الاستاذ الدكتور/ الصفصافى احمد المرسى القطورى

٠٠٠و٠٠٠

أوراق تركية

حول

الثقافة...والحضارة

الكتاب الأول

التاريخ..والسياسة

الجزء الأول

القاهرة
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

• عنوان الكتاب:

أوراق تركية

حول ...

الثقافة .. والحضارة ..

• الطبعة الأولى:

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

• المؤلف:

الصفصافى أحمد المرسى القطورى «دكتور»

رقم الإيداع	٢٠٠٢/١٦٩٩١
الترقيم الدولى I. S. B. N	977 - 237 - 176-6

جواد الشرق للنشر والتوزيع

القاهرة سنة ٢٠٠٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهــداء

إلــى
كل نفس صافية كريمة
تنشد
الحق... والخير... والجمال

بسم الله الرحمن الرحيم

التصدير

كان تخرجي في قسم اللغات الشرقية - تركي - عام ١٣٨٣هـ ١٩٦٣م وتعييني معيداً بنفس القسم في ٢٨ سبتمبر من نفس العام .. وترشيحي في البعثة الدراسية على نفقة الدولة .. وسفري إلى استانبول عبر بيروت في الأول من يناير سنة ١٩٦٧م .. فلم تكن هناك خطوط جوية مباشرة بين مصر وتركيا آنذاك. وأذكر أنه خلال الأسبوع الأول من وصولي وكنّا في شهر رمضان سنه ١٣٨٣هـ كنت أتجول في ميدان تقسيم وسط مدينة استانبول وإذا بصوت أُم كلثوم يصدح في جوف الليل .. تتبعت مصدرالصوت، حتى وصلت إلى المقهى الذي يصدر منه هذا الشدو الجميل .. فخاطبت عامل المقهى الذي كان يقوم بعملية تنظيف وترتيب المقهى باللغة العربية ظناً مني أنه يعرف اللغة العربية طالما أنه يستمع إلى غناء أُم كلثوم ... وكانت المفاجئة أنه لايعرف العربية .. وقال لي بالتركية إن صوت أم كلثوم والموسيقى التي تصاحب هذا الصوت الملائكي هو ملك لكل الأمة الاسلامية .. وليس للعرب أو للمصريين وحدهم. إنها حضارة مشتركة .. !!

تابعت الحياة الدراسية .. وسجلت أُطروحتي للدكتوراه تحت اشراف الأستاذ الدكتور محمد قاپلان رئيس قسم الأدب التركي الحديث في كلية الآداب جامعة استانبول .. وهو الناقد، والباحث الذي كان ملئ السمع والبصر في مضمار النقد الأدبي .. والثقافة والحضارة التركية الإسلامية .. وسيادته هو الذي أشار عليَّ أن أُغيِّر أطروحتي في استانبول من مسرح عبدالحق حامد (١٨٥٢ - ١٩٣٧م) إلى أثر الثقافة العربية في أعمال ضيا باشا، ونامق كمال، وعلى سيعاوى،، .. وكان ذلك بداية احتكاكي الفعلي بالثقافة العربية إلى جانب الثقافة التركية وكلاهما من روافد الحضارة الإسلامية ..

كانت تركيا خلال الستينات تعتمل بكل التيارات الفكرية. والسياسية المطروحة على الساحة العالمية، وكانت مصر كذلك .. الصراع ضد الإمبريالية العالمية، والتحالف .. والقواعد .. ومناصرة القوى الشعبية، وقوى التحرر الوطنى فى كل بقاع العالم .. الصراع العنيف بين الرأسمالية والاشتراكية .. اليمين واليسار ... القومى، والأممى .. والعالمى .. الديني .. والعَلْمانى .. القضية الجزائرية .. الجزيرة القبرصية المعضلة الفلسطينية .. القومية العربية .. القومية التركية .. الفوران الكردى .. الدّس الأرمنى .. واليونانى .. واليهودى الصهيونى الماسونى ..

عايشت كل هذا .. ورأيت كيف أن الطلبة العرب رغم اختلاف المواطن .. وأنظمة الحكم لم يتفقوا على شيئ إلاَّ على شخصية جمال عبدالناصر، وارتضوا جميعاً تعليق صورته هو وحده فى رابطة الطلبة العرب فى استانبول .. عشت الحب العارم لأبى خالد «جمال عبدالناصر» عند زياراتى لحلب الفيحاء وبيروت القومية العربية .. ثم عشت مرارة الهزيمة والإنكسار العربى فى هزيمة ١٩٦٧م، وماأقسى الهزيمة وأنت بعيداً عن أرض الوطن .. رأيت بعيني كيف تدفقت الآلاف، والجموع فى شوارع استانبول تُطالب عبدالناصر بعدم التنحى .. وقبول التحدى .. لم يكن فى استانبول «اتحاد اشتراكى» أو «تنظيم طليعى» ليقود المظاهرات .. أو يدفع الناس إلى الشوارع .. بل كانت هى الرغبة التركية الخالصة من الطليعة الشبابية على اختلاف ميولها السياسية فى الوقوف إلى جانب مصر الثورة .. وتحدى الإمبريالية ..

شاركت - وأنا المصرى الوحيد الدارس فى استانبول آنذاك - فى كل الأنشطة الطلابية التركية المعادية للإستعمار، والإمبريالية، والقواعد الأمريكية فى تركيا .. تابعت عن كسب كل الفعاليات الثقافية الطلابية .. والفنية فى مدينة استانبول العاصمة الفكرية .. والفنية .. والثقافية لعموم تركيا .. بل وكنت الوسيط فى الإنتاج السينمائى المشترك بين مصر ممثلة

فى [فريد شوقى[١] .. عبدالحى أديب[٢] وسعد شنب[٣]] وتركيا [خلقى سنر[٤] .. متين أركسان[٥] .. عاطف يلماز[٦] .. عارف اونال[٧] .. آمال صايين[٨]]، بل نجحت فى عقد اسبوع للفيلم المصرى فى مدينة استانبول وكان عضدى فى ذلك كل من المرحوم جودة السحار[٩]، والمرحوم سيد بدير[١٠] عند رئاستهما لمؤسسة السينما المصرية .. وقد أصَّر الوفد التركى أن أكون فى صحبتهم عند إقامة أسبوع للفيلم التركي فى القاهرة خلال شهر فبراير سنة ١٩٧٣م وكان الوفد التركي مكوناً من «عارف اونال .. منتجاً» وطارق آقان «ممثلاً» وآمال صايين «ممثلة» وأدهم أيلماز مخرجاً .. وصحفياً من الصحافة الفنية .. ومن يرجع إلى صحافة البلدين يجد مدى الصدى الطيب الذى ترتب على ذلك.

ماوددت الإشارة إليه؛ أننى كنت وسط الآحداث الثقافية التركية طوال فترة إقامتى فى تركيا .. تابعت الحركة السينمائية .. والمسرحية .. لم أترك متحفاً لم أزره .. أو قصراً .. أو سراياً لم أطف بين أجنحته .. وأتأمل محتوياته .. شاهدت عروض القره گوز فى النصف الثانى من شهر رمضان من كل عام .. رأيت الاحتفال بمقدم شهر رمضان .. وعيد الفطر .. والعيد الأضحى أكلت حلوى عاشوراء .. وسميط المولد النبوى .. وبيدا(*)

---

(١) الممثل المصرى الشهير ..

(٢) كاتب سيناريو مصرى معروف.

(٣) منتج سينمائى.

(٤) منتج سينمائى ورجل أعمال تركى شهير ..

(٥) ، (٦) مخرجان تركيان عالميان ..

(٧) منتج وصاحب شركة انتاج فى مدينة استانبول.

(٨) الممثلة والمغنية التركية العالمية.

(٩) الأديب والكاتب المصرى العظيم عبدالحميد جودة السحار.

(١٠) الممثل، والمخرج، والسينارست المصرى القدير سيد بدير.

(*) البيدا: خبز يصنع ويعد خصيصاً خلال شهر رمضان المعظم فى كل تركيا .. ويسوى هذا الخبز بالبيض، أو الزيتون، أو الجبنة الرومى وأشهره بالبصترمة ولحم اللانشون.

بالبصترمه، وبالبيض .. وباللانشون والذى يُصنع خصيصاً لشهر رمضان وخلاله .. رأيت الأتراكَ فى زياراتهم لجامع وضريح الصحابى الجليل أبى أيوب الأنصارى .. ودائرة الأمانات المقدسة (*) فى متحف «طوپ قاپى سراى» واصطفافهم فى صلاة التراويح .. وخشوعهم عند انشاد قصيدة المولد(*) .. سرت معهم فى متنزهاتهم فى چامليجه .. وبيوك آضه .. ويلاوا .. وبورصه .. وغابة بلغراد .. اصطدت معهم السمك بالسنانير على ضفاف البسفور .. وأكلته معهم على كبرى غلطه .. وأمينينو .. وممر سوق الزهور .. صليت معهم فى جامع السليمية .. والسليمانية .. والسلطان أحمد .. والشهزاده .. رأيت حفلات الختان .. والخطبة .. والزفاف .. وعقد القران الشرعي فى البيت والرسمى فى «قصر الزواج». رأيت الفتيات يشعلن الشموع عند مزار تللى بابا، ويقدمن النذور .. والبذور للحمام أمام جوامع «ايوب» .. ونور عثمانية وسيركجى، وامينينو .. والسلطان أحمد .. طفت بالأحياء التراثية .. وتمتعت بمشاهدة العمارة العثمانية فى أحياء الفاتح .. وغلطة .. وأقسراى .. وشهرمين .. واستمتعت بحمامات يلاوه .. ويوغرت چكمجه ولحومها الطازجة .. وهل ينسى من زار تركيا الشيش كباب .. والشويرمه .. وراحة الحلقوم .. والضوله .. والحلويات الشرقية .. والكفته .. رأيت عروضهم الشعبيه فى استقبال السيَّاح .. والمهرجانات الفولكلورية .. ومواكب الزهور ومسابقات استنباط أنواع جديدة منها .. عاصرت وضع أساسات الكوبرى المعلق على البوسفور، ودار الأوبرا فى مدينة استانبول .. ومصانع السيارات فى بورصة ..

(*) هى مقدسات اسلامية كسيف الرسول، وجبته، وعلمه. وسنته المباركة «صلعم» ونسخة سيدنا عثمان من القرآن الكريم وعليها آثار دمه الطاهر .. الخ وكلها محفوظة فى متحف «سراي طوپ قاپى».

(*) هى وسيلة النجاة لسليمان چلبى .. وهى فى مدح الرسول «صلعم» ومولده وسيرته. وتنشد فى مناسبات تركية عديدة ..

هكذا. جاءتْ أوراق تركية.. حول الثقافة.. والحضارة،، نتيجة مشاهدة ومعاصرة.. ودراسة امتدت لما يزيد عن ربع قرن... فقد عدت من استانبول فى مايو سنة ١٩٧٣م.. ومنذ ذلك التاريخ وأنا أنشر كتباً دراسية تارة، وأبحاثاً للترقية تارة أخرى... أُشارك فى المنتديات.. والمؤتمرات.. داخل مصر وخارجها.. وكلها تدور حول الثقافة والحضارة التركية على مر العصور.. عن أتراك أواسط آسيا.. والدولة العثمانية.. وتركيا الحديثة والمعاصرة..

هذه الأوراق.. كلها أوراق بحثية منشورة فعلاً فى العديد من الدوريات والمجلات على امتداد الوطن العربى كله. فمن مجلة الشعر القاهرية.. إلى الدارة والفيصل السعودية.. ومن حوليات الكليات الجامعية إلى مجلة التوثيق التونسية والمجلة التاريخية المغاربية ومن محاضرات فى الجامعة الأمريكية إلى مؤتمرات فى جامعة عين شمس وتونس وطشقند.. والمجلس الأعلى للثقافة والفنون المصرية. لقد أردتها مجمعة بين أيدى المهتمين بدلاً من أن كانت مفرقة.. ومتباعدة. فى صفحات المجلات ودوسيهات الأدابير..

لقد خصصت الكتاب الأول للتاريخ والسياسة؛ فمن الهون والكوك تورك والأويغور إلى اولوغ بك. وأورخان.. والدولة العثمانية والولايات العربية، وطرق القوافل والأرشيف العثمانى.. مطوفاً مع آوليا چلبى فى رحلاته وجولاته فى مصر أم الدنيا. ثم كانت الموضوعات المتعلقة بتركيا الحديثة والمعاصرة؛ فمن الجون ترك، إلى الاتحاد والترقى، إلى تركيا الحديثة مع إعلان الجمهورية.. وأوضاعها المختلفة.. ثم كان التطور الديمقراطى.. والدين والسياسة فى تركيا الحديثة والمعاصرة.. ثم كانت قضية فلسطين على أجندة العلاقات المصرية التركية كدراسة حالة.. وقضية الشيشان بين تداعيات الماضى وارهاصات المستقبل لنبين كيف كان التفاعل بين تركيا وعالمها التركى وجيرانها العرب.. وهم شركاء فى التاريخ وفى

الموقع الجرافى.. والدين.. ومظلة الحضارة الإسلامية، وظلالها الوارفة.. وسيكون الكتاب الثانى عن الفكر والأدب.. وله حينه..

إن «أوراق تركية حول الثقافة والحضارة..» خلاصة جهد.. وعصارة فكر عُرض على صفوة المثقفين فى المؤتمرات.. والندوات.. ربما حاز رضي البعض، وحرك كوامن البعض الآخر.. مهما كانت النتائج.. فها أنا ذا أُهديه إلى كل نَفْسٍ صافَية..كَرِيمَة.. تَنْشُد الحق.. والخْير.. والجَمال.. تَسْعَى إلى الاقترِاَبِ من دَوْحَة الكمال.. وما الكمالَ إلاَّ لله وَحْدَه..

وعلى الله حسن الثوابَ

المؤلف
أرض الجولف - مدينة نصر. القاهرة
فى يوم ذكرى العيد الذهبى الثورة
٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ المجيدة..
٢٤/٢٣ يوليو سنة ٢٠٠٢م
١٤/١٣ جماد أول ١٤٢٣هـ

المعطيات الحضارية الإسلامية
إلى الغرب
الثقافة.. والحضارة.. ومابينهما من تداخل

المعطيات الحضارية الإسلامية إلى الغرب

(أ) الثقافة.. والحضارة.. ومابينهما من تداخل:

يشهد العالم فى الوقت الراهن، مع بدايات القرن الحادى والعشرين، أزمة.. بل دعونا نقول مجموعة من الأزمات.. من أهمها مايُطلق عليه الآن الصراع الحضارى .. واختلفت الأراء، ووجهات النظر .. هل هو صراع اقتصادى ..؟ هل هو صراع سياسى ..؟ .. هل هو صراع اجتماعى ..؟ أم هو صراع ثقافات وليس حضارات؟ هل مايدور الآن هو عودة إلى مرحلة الصراع الاستعمارى الذى شهده العالم فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر وبدايات القرن العشرين ..؟ أم هو الصراع الفكرى الذى تخلف عن مرحلة الحرب الباردة بين القطبين الكبيرين خلال مراحل القرن العشرين ..؟ أم نقولها صراحة .. إنها عودة إلى الحروب الصليبية التى جرت باسم الدين .. والدين منها برىء ..؟

إننا لانملك أدوات الحكم القاطع .. ولا نجزم بماهية الدوافع دون بحث .. واستقصاء .. ولكن مانملكه .. وماهو ميسر لنا هو أدوات البحث العلمى .. ونترك للقارئ نفسه استخلاص .. أو استنباط تلك الدوافع .. وستكون اللغة .. ومفردات اللغة هى أولى مفردات هذا البحث، مركزين القول حول الثقافة .. والحضارة .. والعناصر المكونة لكل منهما .. والفوارق التى تفصل بينهما .. وماهى الأراء المطروحة حول الثقافة المادية .. والثقافة المعنوية .. أى الروحية؟ وماقول ول ديورانت بهذا الصدد؟ وهل يمكن أن تكون هناك حضارة قومية كما أن هناك ثقافة قومية ..؟ وماهى الأسس التى يمكن أن تقوم عليها الثقافة القومية ..؟

العناصر المكونة للثقافة:

إذا مانظرنا إلى المفردات التى تُقابل معنى الثقافة فى اللغات الأوربية نجدها بالإنجليزية والفرنسية كمايلى:

وتعنى حراثة .. تثقيف .. تهذيب .. ثقافة ..   Culture : .

حضارة .. مرحلة معينة من مراحل التقدم.
الاستنبات .. زرع البكتريا أو الأنسجه الحية.
للدراسة العلمية .. المستنبت ..

Cultural : . فتعنى: ثقافي .. مستولد .. محدث بالاستيلاء

Cultured : , فهى: مثقف .. مهذب .. مستنبت ..

Culture : , فمعناها: يحرث. يفلح .. وبخاصة حول النباتات المزروعة .. يتعهد النبات بالعناية .. يهذب يصقل .. يرعى .. يُشجع، يكرس نفسه لفن مثلاً.

Cultivated فمعناها: محروث .. متعهد .. منشأ بالعناية أو أما التعهد .. يهذب .. مصقول .. حراثة. تعهد تهذيب .. رعاية ..

إذا كان هذا المعنى فى الإنجليزية .. فلو نظرنا فى معانيها باللغة الفرنسية لوجدناها أيضاً كمايلى:

Culture تعنى: زراعة .. فلاحة .. تربية .. ثقافة

Cultive تعنى: مزروع .. مثقف .. مهذب ...

Cultiver فمعناها: زرع .. فلح .. حرث .. ربى ...

من هذا يتضح أن معظم المعانى تدور حول الزراعة .. والفلاحة والتعهد بالتربية والتهذيب والرعاية بالأرض والبستنة .. والحرث للأرض وفلاحتها .. والتثقيف .. والتشذيب ... ولو أمعنا النظر بعض الشيئ حول الحراثة .. والفلاحة .. والبستنة والحرث للأرض وزراعتها وتنميتها لأدركنا العديد من المعانى التى تدخل تحت نطاق مفهوم الثقافة ..

فالفلاحة، والحرث، والزراعة تؤمن الحياة الغذائية للإنسان .. واعتماداً على ذلك .. فلو طرحنا سؤالاً .. ياترى المعانى الآخرى التى يحتويها مفهوم الثقافة هل فيها مايتصل بالمعانى الحياتية تلك؟ .. بالنسبة

لى .. نعم .. فالزراعة .. والحرث .. والحصاد .. والتنمية .. والبستنة .. كلها تحمل معانى حياتية .. فالرسم .. والموسيقى .. والرقص .. والأزياء والتى لا تتعلق مباشرة بالمأكل والمشرب كانت كلها تتعلق بأمور حياتية فى العصور الوسطى .. فهذه الفنون الجميلة لو رجعنا بها إلى الوراء قليلاً لوجدنا أنها تتعلق بالعناصر الحياتية التى تعيش فيما تحت الشعور ... كلها تتعلق بالرغبة فى الحياة والنماء .. والخوف .. والموت ..

فأغانى المطر .. والحصاد .. ودعاء الإستسقاء .. والرقص حول الصيد والشواء، أليست كلها أمثلة واضحة تبين تلك العلاقة التى بين الموسيقى والزراعة والحصاد؟. ودعاء الاستسقاء وتمنى نزول المطر .. ألا يظهر العلاقة بين الدين والفلاحة والنماء منذ القدم ..؟ والدين .. ألا يهتم هو الآخر بميلاد الانسان، وتغذيته .. وتهذيبه .. وتشذيبه .. وحمايته .. ورعايته عن قرب ..؟

ولما كانت الزراعة تخضع للظروف الطبيعية ومرتبطة بها .. فإن بنى البشر على مر الأجيال قد أضافوا من الفعاليات والأنشطة مايمكن أن يدخل فى نطاق مفهوم الثقافة..

فالمسكن .. والملبس .. كل منهما يحمل أهمية بالنسبة للإنسان لاتقل عن أهمية الغذاء .. فالسكن والملبس مرتبط أيضاً بظروف الطبيعة وشروطها .. فالشتاء .. والصيف .. والخريف والربيع .. والجبال .. والصحراء .. والثلوج والأصقاع كلها عناصر تتحكم فى نوعية الملبس والمسكن .. ولسنا فى حاجة إلى تكرار مايتعلق حتى بالألوان .. والثقل .. والخفة .. والارتفاع والسمك .. وماشابه ذلك .. فظروف الطبيعة والمناخ التى تؤثر فى ملابس القرويين ممالاشك فيه تُشكل نوعاً من «الفانتزية» لأزياء .. وزينه سيدات المجتمعيات الراقية فى المدينة ..

وماذا عن تأثير الطبيعة فى العمارة ..؟ فمسكن سكان الصحارى

يختلف هو وملبسهم عن سكان القطبين فى ملبسهم ومسكنهم ... ومبانى الغابات مما لاشك فيه تختلف عن المناطق الأخرى .. فبينما الأولى من الأخشاب فإن الأخرى من الحجارة والدبش والآجر ..

وكما أن حياكة الملابس .. واقامة المبنى .. وزراعة الأرض وفلاحتها تعتمد على عناصر مادية حياتية، وتحتاج إلى التعليم، والتدريب، والتعلم، والآلة .. فإنها بنفس القدر فى حاجة إلى مراسم .. وتشكيلات وتنظيم متدرج ..

ومع أن عناصر الفلاحة .. والبناء .. والملبس التى اندرجت ضمن مفهوم الثقافة تعتمد فى المقام الأول على المادة وعناصرها .. فإنها تهتم عن كسب بالمناسبات والعلاقات الاجتماعية والقيم المعنوية.

كانت كل المهن فى العصور الوسطى تعتمد على فكرة الملازمة بين الاسطى والصبى، وعلى العلاقات الاجتماعية التى تتحدد بين أهل وأرباب المهنة الواحدة . وكانت كلها تهتم عن قرب بالقيم الأخلاقية والدينية ..

إن العادات، والتقاليد، والأعراف تلعب دوراً مهما فى حياة البدو والرحل الذين يربون الماشية .. والذى يحدد تلك العادات والأعراف ليس الزرع والحصاد بل الحيوانات وأعدادها .. فالبدو والرحل يعرفون أنساب خيولهم ونوقهم ويفتخرون بها .. وقد أضافت إليهم قطعانهم مفردات ومفاهيم تتعلق بثقافاتهم.

إن البذور الموضوعة فى الحقل تحتاج إلى صبر .. ودقة، ورعاية، وعناية .. والقمح؛ لكى يُصبح خبزاً على المائدة يحتاج إلى مجموعة كبيرة من الأنشطة .. وكل شيئ يدخل إلى ساحة الثقافة كالشجر .. والحجر .. والجلد .. والوبر .. والمعدن .. والصوت والصدى والفكر .. كلها كالقمح؛ تحتاج إلى غربلة .. وتنظيف وطحن، وحفظ، وعجن وأشغال توصلها إلى حالة مقبولة، ومستفاد منها .. فبينما نبحث فى دور الشاعر الذى نظَّم أبياتاً جميلة .. فنحن نقول: إنه صقل مفرداته واختارها بعناية كالصائغ الذى

أجاد نظم عقوده» .. والواقع أن نظم الشعر الجيد لايقل فى جهده عن منح الحديد .. أو النحاس أو الجرانيت شكلاً جمالياً .. فالشاعر: ربما يقضى وقتاً أطول من النحات، أو المثْال فى صياغة مقطوعته الشعرية ..

إن تعهد الانسان لنفسه: جسداً، وروحاً .. وذهناً .. بمختلف الوسائل، والوسائط تسمى ثقافة أيضاً .. فكما أن بنى البشر يتعهدون كل شيئ يستخدمونه فى حياتهم اليومية .. فإنهم أيضاً، يتعهدون الفنون الجميلة، واللغة والآداب بالعناية والرعاية .. وجميعها نتاج الحاجة، والرغبة، والحب، والجهد والدقة .. وكلما كانت الأعمال الثقافية تلبى مطالب الانسان المادية، والمعنوية، وكلما كانت جميلة ومفيدة .. فهى ذات قيمة .. وتنشئة انسان مثقف، ورعايته فى تراثنا الاسلامى، هذا بمثابة .. العناية ببستان، أو حديقة غناء .. أو العناية بكائن جميل ذو قيمة تراثية ..

إن العناصر التى تصنع الثقافة، كلما كانت جميلة .. ونافعة .. ومفيدة، ومغذية، وحامية .. ومُسْعِدَة .. ومُعَظِّمة يتم حفظها .. فتقام لها المخازن والعنابر، والمحلات .. والأرشيفات .. والمتاحف .. والمعارض .. والكتب والمكتبات وّتملؤ وتُشحن بكل العناصر المادية والمعنوية التى يحتاجها الانسان .. إنها تشكل أقيم الخزائن التى يمكن أن يخلفها بنى البشر، وتتوارثها الأجيال .. جيلاً بعد جيل .. إن الأمم تكتسب قيمتها، ومكانتها وفقاً لما تمتلكه من عناصر مادية ومعنوية ذات قيم ثقافية رفيعة .. فالأمم ذات العنابر المليئة، تكون بطونها شبعى .. وظهورها محمية .. وتزداد قوتها كلما اكتظت مخازنها بالأسلحة والذخيرة ... والأمم ذات الأجسام والعقول السليمة هى أمم ذات قلوب، ومشاعر وروح سامية ممالاشك فيه ..

إن تعداد العناصر الثقافية التى تشملها معطيات الانسان المادية والمعنوية ومايترتب عليها من نتائج أمر فى غاية الصعوبة .. ومازاد من هذه الصعاب هو تداخل العناصر الحياتية فى بعضها البعض .. ولكن مهما كانت الأمور معقدة .. والمشكلة صعبة .. فيمكن أن نقسّم هذه العناصر

الثقافية إلى مجموعتين، دون أن نغفل الترابط أو التداخل فيما بينهما .. فهناك العناصر الثقافية المادية .. والعناصر الثقافية المعنوية ..

فالعناصر المادية من مأكل، ومشرب، وملبس، ومأوى وماشابه ذلك من موجودات تغطى الاحتياج اليومى للإنسان وهى مانطلق عليه «الثقافة المادية» .. أما الدين .. والفن .. والأعراف .. واللغة .. والأدب والعقيدة .. والقانون .. والعلم والفلسفة وبشكل عام فإن الانشطة والفعاليات الثقافية التى تتعلق بالنواحى الروحية. والمعنوية، والخيالية فإنها تشكل «الثقافة المعنوية» ..

وكما سبقت الاشارة، فإنه من العسير بمكان الفصل بين العناصر المادية والمعنوية فى حياة بنى الانسان .. فالموسيقى مثلاً، تدخل فى نطاق الثقافة المعنوية أي الروحية .. لمالها من علاقة بالروح الانسانية، ولكن الموسيقى فى نفس الوقت تنطلق من عناصر مادية آلاتيه .. مثل البيانو .. والكمان .. والناى والإيقاع .. وهل يمكن أن نفكر فى روح بدون جسد ..؟

مكونات الحضارة:

أما الحضارة ومكوِّناتها.؛ فدعونا أيضاً نعود إلى اللغة، فكلمة: civil-ization تعنى:

الحضارة .. المدنية .. التمدن .. صيرورة الأمة متمدنة. الشعوب المتحضرة .. رفعة فى الذوق .. أو التفكير .. أو التصرف .. ومشتقاتها:

civilize = يحضِّر .. يمدِّن .. يُثقِّف .. يهذب.

civilized = متحضر .. متمدن .. لطيف .. مهذب ..

civilian = المثقف فى القانون المدني ..المدني .. كل مَنْ ليس بشرطي أو عسكري أ. مدني .. لُطف .. كياسة ..

وفى اللغة الفرنسية أيضاً:

civil = مدنى .. أهلى .. ملكى ..

civilement = مدنياً .. بأدب ورقة ..

civilisation= حضارة. مدنية .. تمدن .. تهذيب.

civilise = متمدن .. مهذب ..

civiliser = مدنى .. مهذب ..

civilite = أدب .. لطف .. مجاملة .. إكرام .. تحية. احترام ..

فمن هذه المعاني المطروحة نجد أن الحضارة .. أو المدنية متعلقة بالحضر والمدينة .. وكل مايتعلق بهما من نمط حياة أو تفكير .. وإذا كانت الثقافة تتعلق بالحرث والزراعة .. فإن المدنية أو الحضارة تتعلق بالمدن والحضر .. وإذا كانت الثقافة قومية محلية .. فإن الحضارة أو المدنية عقلية عالمية ... ولما كانت الثقافة تتعلق بتاريخ الأمة وترتبط بمؤسساتها .. فإنها لا تُقلد ... أساس الثقافة هو اللغة ... ولما كانت اللغة خاصة بأمة من الأمم .. فإن عناصر الثقافة الأخرى؛ كالرقص والرسم والموسيقى هى كذلك من خواص الأمم .. كل على حدة .. وفى مقابل ذلك؛ فإن العلم وعناصر الحضارة المعتمدة على العقل، وهى التقنية. يمكن نقلها بسهولة من أُمة إلى أخرى .. وهكذا ؛ تظهر بين الأمم التى قبلت نظماً حضارية متشابهة مايمكن أن نسميه حضارة مشتركة.

فالعلم والتقنية التى تطورت فى الغرب بعد عصر النهضة قد انتشرت فى كل ربوع الكرة الأرضية .. وهكذا ظهرت .. وترعرعت «حضارة صناعية» تتشابه كل مفرداتها فى اليابان والصين .. والهند وروسيا .. وتركيا .. ومصر .. ومع أن هذه الأمم تختلف عن بعضها البعض فى اللغة.. والتاريخ والأعراف والمعتقدات والأديان .. إلاّ أن دروس العلم ومفرداته المطبقة فى كل الميادين التكنولوجية كالرياضة .. والطبيعة والكيمياء والأحياء كلها واحدة تقريباً .. وحتى الآلات المعملية تكاد تكون هى نفسها فى كل هذه الدول ..

وكما حدث وانطلقنا من مفردات وجذور كلمة "Culture" فأود كذلك أن أنطلق من مشتقات، ومفردات كلمة "Civilization" فكلها تعنى فى

المعاجم المعتمدة .. «الحضارة .. الحَضَر الإقامة فى الحَضَر .. التمدن .. الثقافة .. التمكن من العلوم والفنون والأداب .. والمدنية .. الحضارة واتساع العمران .. وتَمدَّن فلان .. أى عاش عيشة أهل المدن .. وتنعم وأخذ بأسباب الحضارة ..

فهكذا .. إذا كان الحرث أي الثقافة متعلقة بحياة القرية فإن الحضارة أي المدنية .. متعلقة بحياة الحضر والمدن . والتى هى بطبيعتها أكبر من القرية .. والقرية تشكل محيطاً اجتماعياً أضيق كثيراً بالنسبة للمدينة .. فى القرية الجميع يعرفون بعضهم بعضاً .. أما فى المدن .. فكلما كبرت المدنية تحولت العلاقات الاجتماعية بين البشر إلى جمود، وخمول فى العلاقات الإنسانية .. ويصبح الكل غريب عن الآخر حتى ولو كانوا فى عمارة واحدة ..

وكلما بعدت المدنية عن الطبيعة ذاد الفرق والبون بين القرية والمدينة ... وبينما القروى يُؤَمِّن مأكله ومشربه من الطبيعة، فإن المدنى يؤمن احتياجاته ومتطلباته الحياتية من الأسواق والتى هى بدورها تؤمنها من القرى عن طريق الوسطاء. أي التجار ..

إن الوسيط أو التاجر لايعنيه كيفية الحصول على المحصول بقدر عنايته بالنقود التى يكسبها، ويشترى ويبيع بها .. فالنقود هى المؤشر عن قيمة البضاعة المباعة أو المشتراه ..

وإذا كان الفلاح يعيش فى تلاصق مع محاصيله، وحيوانه وقطعانه، فإن التاجر ربما لايلمس بضاعته .. وربما لايراها حتى مجرد الرؤية .. وهو بذلك يكون بعيداً كل البعد عن التعامل مع الطبيعة أو حتى الوقوف على العلوم والمعارف التى تسهل له التعامل معها .. فتعامله هنا تعامل مادى ..

وهكذا .. فإن التفكير المادى قد وُلِد فى المدينة، وليس فى القرية .. وهو يهتم بالحياة التجارية عن كسب .. فالتاجر .. أو الفاكهى .. أو البقال يهتم بالقيمة المادية للجمادات التى يتعامل معها كالسكر. والدفتر .. والقلم

.. والتفاح والخوخ والعنب .. إن مايهمه هو القيمة المادية ..

فالمدينة تهتم بالحياة التجارية والصناعية .. بينما القرية الاهتمام فيها بالزراعة، والنماء، وتربية القطعان .. وفى المدينة مهن لايمكن أن نصادفها فى القرى ... كالحداد .. والنجار .. والترزى .. والخياط .. والطابع .. والمحاسب.

إن صانعى حضارة المدينة هم أرباب الحرف والمهن .. وليس التجار والوسطاء .. فهؤلاء هم نقلة الحضارة .. هم الذين يحولون المواد الخام المستخرجة من الطبيعة إلى أشياء ذات قيمة ينتفع بها بنو البشر .. إن الحياة الحرفية والمهنية التى تنتقل من الأسطى إلى الصبي عبر القلفة تتشابه مع الفلاحين فى الجانب المادى .. ولكن هناك فارق مهم فيما بين الخامة التى يتعامل كل منهم معها ... فالحيوان والنبات الذى يتعامل معه القروى كالانسان يلد .. وينمو .. ويكبر .. ويتغذى .. كلها من ذوات الروح التى تعرف الحياة والموت .. والعلاقة التى خلقها معها بنو البشر فى القرى تختلف عن الحرفي أو المهني الذى يتعامل مع الجلد .. أوالعظم .. أو الخشب .. فإذا كان الانسان لايتدخل إلى حد كبير مع ذوات الروح التى يتعامل معها فى القرية .. فإن الحرفي والمهنى يستطيع أن يعطى المادة الخام التى تعامل معها فى المدينة الشكل الذى يريده .. فقطعة الجلد يمكن أن تكون حذاءا أو شنطة .. أو جاكتاً .. يُقطعها .. يمزقها ثم يُعيد تكوينها..

إن الحرفي .. أو التقني يكون أكثر حيوية ونشاطاً أمام الموجودات الجامدة عند الرغبة فى تشكيلها أو منحها شكل ما .. إنه لايملك شعور القروى الذى يجد نفسه أسيراً فى يد الطبيعة، وخاضعاً لها .. إن بنى البشر على الرغم من أنه لايجد فى نفسه القدرة على تغيير القمح، أو الشجر، أو الحيوان .. فإنه بالشكل الذى يمنحه للجماد، يستحدث أعمالاً

لانظير لها فى الطبيعة .. إن القروى الذى يزور المدينة لأول مرة، تتملكه الدهشة والحيرة أمام الأشياء والمبانى التى يراها فى الشوارع لأول مرة ..

إن الانسان فى المدن الكبيرة يشيد عالماً مختلفاً تمام الاختلاف عن الطبيعة بالأعمال الفنية والمعمارية والهندسية التى يستنبطها من الجمادات التى حولنا .. إن تشكيل الجمادات، وتصميمها كيفما نريد حوادث فى غاية الأهمية .. فكما هو الحال فى الحدادة، والخراطة، والنجارة فإن المواد الخام الجامدة أمكن تحويلها إلى آلات .. ومعدات .. وماكينات .. وبواسطة هذه الآلات يمكن تشغيلها بشكل ميكانيكى ..

إن الفنون الجميلة، والمشغولات اليدوية تحمل بصمة وطابع من أبدعها ولكن الأشياء التى تُصنع بالماكينة تكون جماداً .. مغايراً تمام التغاير للإنسان ..

ان الصناعات الثقيلة التى حلّت الماكينات فيها محل البشر، دفعت بالانسان أن يعيش داخل عالم من الجمادات .. ودفعته دفعاً إلى التفكير المادى .. والإنسان كما أنه هو الذى صنع المعدات التى ترى .. وتنتج أكثر منه هو نفسه أيضاً الذى اخترع الإنسان الآلى الذى لاينام ليلاً أو نهاراً .. وهو الذى أوجد الآلات والحاسبات التى تفوق قدرته ..

عندما تُذكر المدنية - فى العصر الحديث - لابد وأن يتبادر إلى الذهن الحياة فى المدن الكبيرة، والتى تطورت بفكر وعقل وخيال الانسان .. ولكنها تطورت مع الزمن بما يفوق قدرات الفرد وحده، بل وربما المجتمع ..

إن الثقافة على الرغم من أنها تحمل ماهية التقريب بين الإنسان والطبيعة، إلاّ أن الحضارة المتولدة عن الوحدة والاتحاد بين الفكر المادى والجمادات تحوز فى طياتها على خصوصيات ومميزات مخيفة. وباردة، وخطيرة وظالمة .. ففى المدن الكبيرة، والمصانع العملاقة لابد وأن يشعر الإنسان بالدونية جنباً إلى جنب مع الدهشة والإنبهار ..

وهناك من يربط بين الثقافة والحضارة .. ولابد أن تكون هذه الرابطة هي التي تربط بين الحس والعقل .. وتجعل من التعايش بينهما ممكناً فالعقل يُنتج مايجعل الحياة مريحة .. والتفكير هادئاً .. والمشاعر فياضة .. ولتصنع الحضارة ماشاءت من مفردات حضارية مادية .. إلاَّ أن الانسان سيظل منذ أن ظهر على وجه الطبيعة ومنذ أن تلده أمه وهو محمل بمشاعر الخوف .. والرغبة .. والحب .. والشهوة .. والرضاء .. والجشع .. إنها المشاعر والآحاسيس التى تحتويها الثقافة.

رأى ويل ديورانت حول الحضارة والثقافة:

ولنقرأ سوياً تلك السطور التى كتبها ويل ديورانت فى مقدمة الجزء الأول من كتابه «قصة الحضارة» والذى ترجمه د. زكى نجيب محمود ومحمد بدران .. وفيها يحدد ملامح الحضارة التى يكتب قصتها: «.... وهى أن أكتب تاريخاً للمدنية، أردت فيه أن أروى أكثر مايمكن من النبأ فى أقل مايمكن من الصفحات، بحيث أقص فى روايتى مأأدته العبقرية، وما أداه دأب العاملين فى ازدياد تراث الإنسانية الثقافى .. وأن تكون قصتى مصحوبة بتأملاتى فى العلل، ووصف الخصائص، وما ترتب من نتائج لما أصابه الاختراع من خطوات التقدم .. ولأنواع النظم الاقتصادية، والتجارب فى ألوان الحكم .. وماتعلقت به العقيدة الدينية من آمال. وما اعتور أخلاق الناس ومواضعاتهم من تغيرات .. ومافى الآداب من روائع .. ومأأصابه العلم من رقيٍّ .. وما أنتجته الفلسفة من حكمة .. وما أبدعه الفن من آيات ... » ...

الحضارة نظام اجتماعى يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافى .. وإنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون. وهى تبدأ حيث ينتهى الاضطراب والقلق .. لأنه إذا مأأمن الإنسان من الخوف تحررت فى نفسه دوافع التطلع، وعوامل الابداع والانشاء. وبعدئذ لاتنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضى فى طريقه إلى فهم الحياة وإزهارها ...

والحضارة مشروطة بطائفة من عوامل هى التى تستحث خطاها أوتعوق مسراها .. وأولها العوامل الجيولوجية .. فتيار الجليد .. وشيطان الزلازل ربما تطمس منشآت الإنسان بركام من ثلوج وأحجار .. أو يبتلعنا فى جوفه غير آبه ..

وثانيها .. العوامل الجغرافية: فحرارة الأقطار الاستوائية لاتهيئ للمدنية أسبابها .. والمطر كذلك عامل ضرورى إذ الماء وسيلة الحياة .. وعليه فإن العوامل الجغرافية على الرغم من أنها يستحيل أن تخلق المدنية خلقاً، إلاّ أنها تستطيع أن تبتسم فى وجهها .. وتهيئ سبل ازدهارها.

والعوامل الاقتصادية أهم من ذلك؛ فقد يكون لشعب مؤسسات اجتماعية منظمة، وتشريع خلقى رفيع .. بل قد تزدهر فيه صغريات، كما هى الحال مع الهنود الأمريكيين .. وقد تكون قبيلة البدو على درجة نادرة من الفتوة والذكاء. وقد تبدى من ألوان الخُلق أسماها: كالشجاعة والكرم والشمم، لكن ذكاءها بغير الحد الأدنى من الثقافة الذى لابد منه، وبغير اطراد موارد القوت، ستنفقه فى مخاطر الصيد ومقتضيات التجارة، بحيث لايبقى منه شئ لِوَشْى المدنية وهُدّابها ولَطَائفها وملحقاتها وفنونها وترفها .. وأول صورة تبدت فيها الثقافة هى : الزراعة، إذ الإنسان لايجد لتمدنه فراغاً ومبرراً إلاّ إذا استقر فى مكان يفلح تربته ويخزن فيه الزاد ليوم قد لايجد فيه مورداً لطعامه؛ فى هذه الدائرة الضيِّقة من الطمأنينة ترى الإنسان يبنى لنفسه الدور والمعابد والمدارس، ويخترع الآلات التى تعينه على الإنتاج. ويستأنس الحيوان ..

إن الثقافة لترتبط بالزراعة كما ترتبط المدنية بالمدينة .. إن المدنيَّة فى وجه من وجوهها هى رقة المعاملة، ورقة المعاملة هى ذلك الضرب من السلوك المهذب الذى هو فى رأى أهل المدن من خصائص المدينة وحدها .. ذلك لأنه تتجمع فى المدينة ماينتجه الريف من ثراء ومن نوابغ العقول. وكذلك يعمل الاختراع. وتعمل الصناعة فى المدينة على مضاعفة وسائل الراحة والترف

والفراغ .. وفي المدينة يتلاقى التجار حيث يتبادلون السلع والأفكار، وهاهنا حيث تتلاقى طرق التجارة فتتلاقح العقول، يُرْهف الذكاء وتستثار فيه قوته على الخلق والابداع .. وكذلك فى المدينة يُستغنى عن فئة من الناس فلا يُطلب إليهم صناعة الأشياء المادية، فتراهم يتوفرون على انتاج العلم والفلسفة والأدب والفن؛ نعم إن المدنية تبدأ فى كوخ الفلاح، لكنها لاتزدهر إلاّ فى المدن.

وليست المدنية أى الحضارة تتوقف على جنس دون جنس .. فقد تظهر فى هذه القارة أو تلك، وقد تنشأ عن هذا اللون من البشرة أو ذاك .. قد تنهض مدنية فى بكين أو دلهى، فى ممفيس أو بابل ... فليس هو الجنس العظيم الذى يصنع المدنيِّة بل المدنيِّة العظيمة هى التى تخلق الشعب، لأن الظروف الجغرافية والاقتصادية تخلق ثقافته والثقافة تخلق النمط الذى يصاغ عليه ...

لابد وأن يُضاف للعوامل المادية والبيولوجية أيضاً العوامل النفسيه الدقيقة.. فلابد أن يسود الناس نظام سياسى .. ثم لابد للناس أن يشعروا شيئاً فشيئاً أنه لاحاجة بهم إلى توقع الموت أو الضريبة عند كل منعطف فى طريق حياتهم .. ولا مندوحة كذلك عن وحدة لغوية إلى حد ما لتكون بين الناس وسيلة لتبادل الأفكار .. ثم لا مندوحة أيضاً عن قانون خلقى يربط بينهم عن طريق الكنيسة أو الجامع أوالأسرة أو المدرسة .. وربما كان من الضرورى كذلك أن يكون بين الناس بعض الاتفاق فى العقائد الرئيسية وبعض الإيمان بماهو كائن وراء الطبيعة أو بماهو بمثابة المثل الأعلى المنشود .. وأخيراً لابد من تربية لكى تنتقل الثقافة على مر الأجيال. فلابد أن نورث الناشئة تراث القبيلة وروحها، فنورثهم نفعها ومعارفها .. واخلاقها وتقاليدها وعلومها وفنونها، سواء كان ذلك التوريث عن طريق التقليد أوالتعليم أو التلقين، وسواء أكان المربي هو الأب أو الأم أوالمعلم أورجل الدين .. لأن هذا التراث إن هو إلاّ الأداة الأساسية التى تحول هؤلاء النشء من مرحلة الحيوان إلى طور الانسان ..

ولو انعدمت هذه العوامل - بل ربما لو انعدم واحد منها - لجاز للمدنيَّة أن يتقوض أساسها .. فانقلاب چيولوچي خطير، أو تغير مفاجئ شديد أووباء يفلت من الناس زمامه .. أو زوال الخصوبة من الأرض أو فساد الزراعة بسبب طغيان الحواضر على الريف .. أو استنفاد الموارد الطبيعية في الوقود أو المواد الخام .. أو تغيُّر في طرق التجارة تغيّراً يبعد أمة من الأمم عن الطرق الرئيسة لتجارة العالم، أو انحلال عقلي أو خلقي ينشأ عن الحياة في الحواضر بمافيها من منهكات ومثيرات واتصالات، أو ينشأ عن تهدم القواعد التقليدية التي كان النظام الاجتماعي يقوم على أساسها .. أو انهيار قوة الأصلاب بسبب اضطراب الحياة الجنسية، أو بسبب مايسود الناس من فلسفة أبيقورية أو فلسفة متشائمة أو فلسفة تحفزهم على ازدراء الكفاح .. أو ضعف الزعامة بسبب عقم يصيب الأكفاء، وبسبب القلّة النسبية في أفراد الأسرات التي كان في مقدورها أن تورِّث الخلَفْ تراث الجماعة الفكري كاملاً غير منقوص .. أو تركز للثروة تركزاً محزناً ينتهي بالناس إلى حرب الطبقات والثورات الهدَّامة والإفلاس المالي .. هذه هي بعض الوسائل التي قد يؤدي إلى فناء المدنيَّة، إذ المدنيِّة ليست مجبولاً في فطرة الإنسان، كلا ولا هي شئ يستعصي على الفناء، إنما هي شئ لابد أن يكتسبه كل جيل من الأجيال اكتساباً جديداً ....،

هذه هي خلاصة الأراء التي طرحها ول ديورانت في مقدمة كتابه الرائع قصة الحضارة .. والتي كان لابد وأن نشير إليها .. ونضيف أنه ربما فاتته بعض العناصر الآخرى التي تؤدي إلى سيادة حضارة، واندثار حضارة أخرى .. مثل الحروب .. والاستعمار الطويل .. ومحاولة سيادة جنس على حساب فناء جنس آخر كما حدث في حروب القرون الوسطى، والحروب الصليبية والاستعمار الغربي .. وافناء الهنود الحمر .. هذه كلها أمثلة صارخة على محاولة الحضارة الغربية أن تسود على حساب حضارات آخرى.

ويمكن أن نضيف إلى ذلك عملية الصراع الثقافي .. فالثقافة الغربية ممثلة في لغاتها الفرنسية والانجليزية والأسبانية والألمانية قد حاولت أن تسود وتُسيِّد ثقافاتها على حساب اللغة العربية في شمال أفريقيا .. والسنسكريتية والأوردية في الهند .. واللغات الأفريقية في شتى بقاع القارة الأفريقية.

هذا؛ وإن كان ول ديورانت قد عاد وأكد على وسائل انتشار الثقافة حيث يقول: « .. والمدنيات المختلفة هي بمثابة الأجيال للنفس الإنسانية، فكما ترتبط الأجيال المتعاقبة ببعضها ببعض بفضل قيام الأسرة بتربية أبنائها ثم بفضل الكتابة التي تنقل تراث الآباء للأبناء .. فكذلك الطباعة، والتجارة وغيرهما من ألوف الوسائل التي تربط الصلات بين الناس قد تعمل على ربط الأواصر بين المدنيات .. وبذلك تصون للثقافات المقبلة كل ماله قيمة من عناصر مدنيتنا .. فلنجمع تراثنا قبل أن يلحق بنا الموت .. لنُسلِّمَه إلى أبنائنا ... »

ونحن نقبل دعوة الباحث العظيم .. ولكن دعونا نرى ماذا يجب علينا أن نفعل حيال هذه الدعوة .. وهل نلقّن لأبنائنا عناصر الحضارة .. أم عناصر الثقافة .. هل نذوب في الآخر .. هل نحتفظ بالأنا ... هل نغوص في المحلية، أم نُحلق في الآفاق العالمية .. ونذوب بين فقاعات العولمة ..

إن المفكر التركي ضياگوك آلب «٢٣ مارس سنه ١٨٧٦ - ٢٥ أكتوبر سنه ١٩٢٤م» بالرغم من أنه يفصل بين الثقافة والحضارة ويفرق بينهما .. إلاَّ أنه قد سعى نحو تأسيس علاقة فيما بينهما .. إنها بمثابة العلاقة بين العقل والحس .. ولكن الواقع أنها محاولة للربط بين العقل المادي الراغب في منح شكل ما إلى المواد الميتة .. وابعاد الإنسان بعيداً عن العلاقات الإجتماعية والعواطف الدافئة المختلفة التي تربطه بالعالم المحيط به .. إن الإنسان بطبيعة الحال لن يستغني عن المدنيَّة المريحة، والرائعة .. والتي حصل عليها بجهود متراكمة عبر الأجيال ... ولكن المراد، والمأمول هو أن

يضيف إلى تلك المدنية بعضاً مما هو متوافر فى عالم «الحرث» فلابد من الدمج بين المشاعر «الروح» والمادة ... والتوائم فيما بينهما بدلاً من التنافر .. أوالتنازع .. ولابد للإنسان أن يضفى على الحضارة المادية التى ابتدعها بجهده وعرقه شيئاً من المعانى والملامح البشرية .. ولابد أنه سيدرك فى يوم ما أن الحضارة المادية ليست غاية فى حد ذاتها بل هى وسيلة من وسائل راحته وهدوءه.

ولكن إذا كان لابد من تحديد بعض الفوارق بين الثقافة والحضارة .. فإن الفكر الإسلامى خاصة، والشرقى عامة يعتبر الثقافة قومية مَشاعِرية .. بينما الحضارة تحمل شخصية عقلانية عالمية.

وإن مادفع هذه المنابع بأن تصف الثقافة بالقومية، فلأنها مرتبطة بالكائن الاجتماعى المسمى بالأمة .. فاللغة التى هى إحدى المقومات الرئيسة للثقافة، والأدب الذى تفوح به هذه اللغة هما من خواص الأمة التى تتحدث هذه اللغة ... فكما أن اللغة والأدب الإنجليزى، والفرنسى والآلمانى والآسبانى يخصان الإنجليز والفرنسيين والألمان والأسبان، فإن اللغة العربية، والفارسية، والتركية والأوردية وآدابهم يخصان العرب، والفرس. والترك. والپاكستانيين والهنود، والذين يتحدثون هذه اللغات.

ولما كانت اللغة مستخدمة يومياً – فإن هذه اللغة تحمل فى طياتها الحياة اليومية .. والرؤية العالمية، والمشاعر الحسية لمن يتحدثون هذه اللغة. ومن هنا تنشأ الصعوبة عند الترجمة من لغة إلى آخرى .. وينطبق نفس الشئ عند نقل أدب أمة إلى أمة آخرى، لأن الأديب قد عبَّر فى لغته عن مشاعر وآحاسيس وثقافات أمته .. فالمحيط الاجتماعى؛ والعائلة .. والمدرسة .. والحارة .. والقرية والمهنة، أو الحرفة قد تغلغل إلى أعماقه دون أن يدرى..

الثقافة ليست مثل العلم والتقنية .. إنها ليست ميكانيكية .. بل هى عضوية .. فكما أن الشجرة قد حققت كل الصفات الجينية التى تحتويها

بذرتها وفقاً لمعطيات التربة التى تغذيها، والماء الذى يرويها .. والهواء .. والرياح والشمس أي المناخ الذى يحيط بها .. فإن الأمم كذلك فى حاجة لمعطيات تاريخها الذى يحمل عصارة تجاربها .. وجغرافياتها التى تحدد ملامحها، واقتصادياتها التى تُنَوِّع أنشطتها .. إنها فى حاجة لكل ذلك لكى تطور ظروفها الاجتماعية والسياسية والدستورية ..

ولما كان الكتاب الذى بين أيدينا يتناول صفحات من الثقافة والحضارة التركية .. فهنا يمكن أن نطرح تساؤلاً .. هل الأمة التركية التى عاشت فى أواسط آسيا، وفى شبه جزيرة الأناضول وفقاً لظروف وعوامل متعددة .. ومتغايرة .. ووصلت إلى يومنا الحاضر .. فهل من الممكن أن تذوب وتنصهر فى أمم اخرى ..؟ .. فكما أن تاريخها .. وشخصيتها فريدة فإن ثقافتها أيضاً فريدة .. إن مناراتها .. وطرز جوامعها التى تطالعك فى استانبول مثلاً قلما تصادفها فى أى مكان آخر ... إنك ستصادف نوع من التفرد عندما تزور مزارات مولانا جلال الدين الرومى (٣٠سبتمبر سنه ١٢٠٧م – ١٧ نوفمبر سنه ١٢٧٣م) فى قونية، والتى زارها الملايين عبر السنين .. إنك ستجد نوعاً من التفرد الخاص بالأتراك فى كل من بورصه .. وأدرنه بل فى كل ربوع تركيا .. إنك لابد وأن ترى بعض الصفات .. والسمات والخصوصيات التى لا يمكن أن تصادفها فى أي مكان آخر .. فلكل مكان تفرده ..

ومما لاشك فيه .. إن الأمم الأخرى لها تاريخها .. ولغتها .. وبلدانها ومعمارها، وثقافاتها .. فكما أن الفرد له مايتفرد به، فإن الأمم أيضاً لها خصوصياتها التى تنفرد بها ... ولما كانت مميزات الفرد هى ماتجعله يستحق التقدير والاحترام، فإن الأمم كذلك، مميزاتها وخصوصياتها هى التى تجعلها تنال ماتستحقه من هذا التقدير، وذلك الإحترام.

فى المقابل من ذلك، فإننا نرى النتاج العلمى والتطبيقى متشابه إلى حد بعيد؛ فالسيارة، والطيارة، والباخرة، والتلفاز، والحاسوب، وماكينات

التصوير، ومصانع صنع الآلات كلها تعمل بنفس النظام، وبنفس النسق، ووفقاً لنفس القواعد الهندسية .. كلها تعتمد على نفس النظريات العلمية والقواعد التقنية .. ربما الاختلاف فى اللون .. والاخراج الخارجى .. وبعض من البصمات الخاصة ..

وحتى هذه الخصوصيات البسيطة، لو أمعنا فيها النظر، ربما هى التى تجعل المشترى الطائرة .. أو السيارة .. أوالباخرة يفاضل بين الفروق التى تبدو له بين المنتجات المتشابهة.؛ فالامكانات الجغرافية، والتجارب التاريخية، ومراحل التطور، والتقدم العلمى أوتخلفه .. وجدية العامل، أو تهاون المهندس والإدارى وسمعة المصنع كلها من العوامل التى تؤثر على رواج المنتج .. إن سبب ذلك، مما لاشك فيه .. هو الإنسان الذى أوجد العلم والتقنية، كما أوجد لنفسه الروافد الثقافية .. إلاَّ أنه لم يخترع لنفسه علماً أوتقنية خاصة به .. بل أنه قد اشترى معارفه فى هذه الميادين من الآخرين الذين سبقوه فيها .. ومن الممكن أن تتشابه .. وربما تتطابق نفس المصانع، ونفس المنتج، وإن اختلفت الأمم .. ولكن .. حتى فى مثل هذه الظروف من الممكن أن تكون هناك اختلافات فى طرق العرض، والصيانة .. والاستعمال .. والرعاية .. فالسيارة واحدة .. ولكن طرق استخدامها تختلف .. تختلف وفقاً للطرق .. وقواعد المرور ورعايتها .. الجرار الزراعي واحد فى كل الأمم .. ولكن مَنْ غير الترك والمصريين يستخدمه فى الريف فى زفة العرس بعد تزيينه .. ؟ وحتى لو تشابه الترك والمصريين فى استخدام الجرار فى الزفة، فمالاشك فيه .. تختلف الأغاني المصاحبة، والترانيم، والدرابكة ..

إن التقليد .. أو الأخذ عن الغير يجب ألاَّ يُخيفنا .. بل لابد من ذلك .. وفى نفس الوقت لابد أن نُحافظ على هويتنا .. وعلى الأشياء الجميلة التى نتفرد بها .. يجب أن نأخذ عن الغرب .. وعن الشرق على حد سواء .. ولكن مع الحفاظ على كل مايجعلنا نختلف عنهم فى الأعراف والتقاليد، والتاريخ والجغرافية ونمط الح[illegible] الأسرى والاجتماعى فيما بيننا .. والأمثلة على ذلك [illegible]

فالترك مثلاً .. بالرغم من أنهم حاولوا فيما يزيد عن ألف سنة الأخذ عن العرب والفرس وتقليدهم، إلاَّ أنهم ظلوا كماهم أتراكاً .. فلقد أخذوا عن العرب الدين الاسلامي وثقافته، وكل مؤسساته .. وعن الفرس الكثير من المؤسسات التعليمية ... ولكن لماكان لهم شخصيتهم القومية المستقلة، ولهم بيئاتهم .. وتاريخهم .. وعاداتهم .. وأعرافهم الاجتماعية .. والسياسية المستقلة .. فقد صبغوا مأأخذوه بصبغتهم الخاصة بهم، والذى يتضح فى طرز معمارهم، ومنمناتهم .. وخطوطهم وأكلمتهم .. وحتى سجّادهم .. وكما كانت لهم خصوصياتهم حتى فى الخط العربي .. فقد أوجدوا لأنفسهم فى العصر العثمانى [١٢٩٩ - ١٩١٧م] مؤسسات مدنية، وحضارية مهمة كمشيخة الاسلام، والقضاء والمدارس العثمانية الخاصة بهم.

التغيُرات الثقافية:

إن السمة الأساسية للتاريخ هى التغير .. وكما قال أحد الفلاسفة اليونانيين القدماء .. «لا يُغتسل فى ماء النهر مرتين ..» فإلى أن يتم النزول إلى النهر فى المرة الثانية، تكون ميهاهه المتدفقة قد تغيرت .. وكذا روح الإنسان وجسده ..

إن فكر التغيرٌ هذه قد عبرت عنه الحضارة الإسلامية باقتدار ووضوح، والترك قد مروا بمراحل كثيرة ومتعددة طوال حياتهم الثقافية .. فمنذ كتابات اورخون التى تتضح فيها التأثيرات الخارجية. إلى قبول الأخر العربى والعجمى الاسلامى .. إلى الاتجاه إلى الغرب والأخذ عنه .. إلى مرحلة التتريك والعَلْمَانية .. ومع أن هناك استمرارية فى الثقافة والحضارة، إلاَّ أن كليهما تتوائمان مع مقتضيات الحياة ومتطلباتها. ويعتريها التغيِّر .. ربما نشعر به .. وربما يمر من بين ظهرانينا دون أن نلحظه .. أحياناً لتباطئه .. وأحياناً أخرى للسرعة الفائقة التى تم بها التغيِّر .. فمن ناحية الدين .. هناك تغير .. من ناحية اللغة هناك تغيِّر .. من ناحية النظام السياسي والاجتماعي هناك تغيِّر .. منذ مائة عام كان التركي يتفاخر

بالطربوش والعمامة .. وهاهو الآن يُزَيِّن رأسه بالقبعة .. ويصطحب الزوجة إلى المراقص .. وتسبقه فى شتى الوظائف، وتولت عنه سياسة الحكم .. وكتبت معه بالحروف الحديثة .. وأصبح من يعرفون الخط العربى وقفاً على دور الحفظ والمتاحف .. ملامح التغير نلحظها فى كل مكان، وبين كل الطبقات.؛ ميئات الآلاف من المدارس .. والمصانع .. والمطابع وملايين الكتب والصحف والمجلات .. والعديد من محطات الإذاعة وقنوات الإرسال ..

الحضارة والثقافة القومية:

مع أن الأفراد يتفردون بخصائص تُميز بعضهم عن البعض الآخر، إلاَّ أنهم فى نفس الوقت يحملون سماتاً مشتركة مع كل الجنس البشرى .. إن الأمم، هى كذلك .. فكما أن هناك تفرد، فهناك أيضاً عناصر مشتركة ..

وإذا كانت الثقافة من تفردات الأمة، فإن الحضارة تشكل السمات المشتركة مع الأمم الأخرى .. فلهذا .. فإن الأمم تختلف عن بعضها .. ولكنهم ليسوا أعداءا ولا متضادين .. ولنبرهن على ذلك ..

إن اللغة أحد العناصر المهمة للثقافة، والناس الذين يتحدثون نفس اللغة يشكلون مجتمعاً مختلفاً يطلق عليه الأمة .. فالعربية .. والانجليزية والتركية والفارسية لغات تختلف عن بعضها .. والأمم التى تتحدث هذه اللغات منذ ميئات، بل آلاف السنين قد استحدثت لنفسها ثقافة خاصة بها .. وأدب كل منها مختلف عن الآخر .. وكل أمة استخدمت لغتها وأوجدت لنفسها شعراً، ورواياتاً، ومسرحياتاً وأعمالاً فلسفية وعلمية خاصة بها .. وهذا شيئ جميل .. وكل الأمم المتحضرة، تنقل آثار الأمم الأخرى إلى لغتها وتستفيد منها .. وهكذا تتشكل بين الأمم حضارة وثقافة مشتركة .. ولكن هذا لايلغى وجود الأمم صاحبة الشخصية القوية، بل على العكس .. كلما زادَ زادُ الأمة من الثقافات الأخرى، ازدادت قوة ورصانة .. أليس الأفراد على هذا المنوال ..؟ فإن كنت صاحب لغة .. فأنت صاحب ثقافة واحدة .. أما إذا كنت من دوى اللسانين .. فأنت من الذين يحملون سمات الثقافتين ..

وهكذا .. «إذا كان جسم الأسد مكوَّن من الحيوانات التى أكلها ..» على حد تعبير الشاعر والمفكر الفرنسي، فإن كل الموجودات الحيَّة تأخذ غذاءها من خارج نطاقها .. وإذا أمعنا النظر، فلسوف نجد أن أكثر الأمم تقدماً أكثرها ترجمة عن الآخر .. ولكن بشرط ألاَّ تشعر بالدونية .. وألاَّ تهمل منابعها وثقافتها الذاتية .. فإذا مانبهرنا باللغة الإنجليزية مثلاً؛ مدعين أن اللغة العربية .. أو اللغة التركية متخلِّفة وناقصة .. ففى ظرف مائة عام على الأكثر نكون قد فقدنا وجودنا القومى .. وهويتنا الثقافية .. ومافعله الاستعمار فى القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ليس ببعيد .. وهذا أخطر مايمكن أن تحدثه العولمة الثقافية ... فلغتنا العربية .. والتركية فى ثراء الموسيقى الشرقية .. وهما من خصوصياتنا .. ومأن تعبث أنا ملك بالمزياع حتى تأتيك أصوات، ونغمات عذبة، دافئة .. إنها تحمل نسمات الوطن .. وأخوة المواطنة مع من يترنم بهذه الكلمات الطلية ..

إذا كانت الموسيقى الشرقية تطربك .. تُحزنك .. تثيرك .. تسليك وتضحكك بل أحياناً ماتبكيك .. فلماذا تتركها .. وتراها متدنية ..؟ .. إن لغتك .. وموسيقاك وأدبك الخاص بك .. وبأمتك هم شرف هذه الأمة .. هم فى مقام الوطن والأرض .. والأرض هى العرض .. ليس معنى هذا ألاَّ أطرب بالموسيقات الأخرى، وألاَّ أقرأ للآداب الأخرى ..

إن أوطاننا الاسلامية ثرية .. مترامية .. جميلة .. ورثناها عن الأجداد عامرة، محميَّة .. هى أمتنا .. نبع تاريخنا .. وحاملة كنوز ثقافتنا .. نصد عنها الأعداء .. ونقدِّم لها الدماء .. ولكن على الرغم من كونها وطناً لنا .. إلاَّ أنها متوائمة مع قوانين الطبيعة العامة .. فهى كسائر أوطان الدنيا .. تعيش تحت نفس الشمس .. وتحتوى على نفس المعادن والمواد الخام .. والمياه المتدفقة .. وجبالها .. ورمالها كالجواهر الثمينة فيها، وحولها العديد من بحار العالم وأنهاره .. والله وحده هو الذى يعلم كم هى أنواع الأسماك

التى تحتويها .. ! .. والاستفادة من علوم العالم، وتقانياته لدراسة هذه الموارد .. هل فيها النفع لنا .. أم سيلحق بنا منها ضرر ...؟ هو أمر محتم..

إن نقل العلم أينما كان ... وحمله إلى أوطاننا .. فيه الرفاة والثروة لنا ... « .. خذوا العلم ولو من الصين ..» .. العلم هو الحضارة .. فمن يكره أن ترتبط قرانا .. ومدننا .. وأوطاننا بالطائرات .. والطرق .. والقطارات ..؟ مَنْ يكره أن يرى الفنادق على الشواطئ .. وقمم الجبال .. وبطون الصحراء ..؟ لماذا لاتهتز ودياننا بالتغاريد .. والآهازيج .. وتمتلئ البطون .. وتعمل السواعد ..؟ مَنْ يكره أن يخلق لنا العلم مدناً جديدة فى أعماق الصحراء .. والبيداء .. وتتخللها المصانع التى تحوِّل رمالها زجاجاً .. ووديانها مروجاً .. لابد أن نطوِّع العلم لنا ولمن سوف يأتى من بعدنا .. نطوِّعه لعاداتنا .. وتراثنا .. وقيمنا .. أى نأخذ بكل أسباب الحضارة، مع الحفاظ على كل مفردات الثقافة .. أي الأصالة.

إن إحدى معاني الثقافة هو العمل والتشغيل .. لابد من تشغيل اللغة .. والموسيقى .. والعمارة .. والجبل .. والصخر .. وقبل كذلك .. الإنسان. ولابد أن نصل به إلى أعلى الآعالى .. إن كل ماأنتجه العقل البشرى من أدوات ومعدات لنا فيها نفع .. ولنا منها منافع .. ولن نفقد هويتنا .. أوشخصيتنا إذا مااستفدنا بها .. بل على العكس تماماً نطور الهوية .. ونصقل الشخصية. ولكن بشرط أن نعض على الوطن .. والأمة .. والتاريخ وكل مفردات الثقافة بالنواجز ..

ما هى الأسس التى تقام عليها الثقافة؟

إن كل ماأنتجته قريحة أمة من الأمم عبرالتاريخ، ووصل إلى أيامنا الراهنه سواء أكان مادياً أو معنوياً فإنه يدخل تحت نطاق مفهوم «الثقافة القومية ..».

إن أهم خاصية للثقافة القومية، هى أن تكون من خلق وابداع وتنمية وتطوير هذه الأمة . وحتى تلك الأشياء التى استعارتها من الأمم الآخرى فهى ملك لها طالما أنها استوعبتها .. فأحبتها ...

إن الملابس التى ترتديها، والأشياء التى تستخدمها .. وثروتك اللغوية والكتب التى تقرأها هى مفردات عالمك الخاص بك .. فلا تستطيع أن تفصل بين الـ «أنا» وعالم الثقافة والمادة التى تعيشها.

فالأنا .. أى الذات؛ سواء أكانت فرداً، أو أمة تنمو وتترعرع وتتطور بماتحتويه. وتمتلكه من أشياء قد أضافها إلى ذاتيتها ... فمثلاً جلال الدين الرومى ترك وطنه الأصلى .. جاء إلى الآناضول .. قضى حياته بين الترك، نشر طريقته المولوية فى تركيا وحيثما وُجد الأتراك .. استوعب أشعاره وموسيقاه الآلاف من الشعراء وعلى رأسهم يونس أمره (١٣٢١/٢٥م) وتغذى على معارفة آلاف من رجالات الدولة، والمواطنين العاديين وقد كتب أعماله العرفانية، والأدبية والفكرية باللغة الفارسية .. فهل نلقى به خارج نطاق الثقافة التركية لمجرد أنه كتب أعماله باللغة الفارسية ..؟

كما أن الأتراك الذين شيَّدوا صرح الحضارة والثقافة الإسلامية فى كل ربوع الآناضول .. قد قبلوا مع الإسلام الكثير من المفردات والمعارف التى درسوها عن العربية والفارسية .. فهل من الجائز أن يُلقى جانباً بهذا التراث بحجة أنه أتى من منابع أجنبية .. ألا نكون بذلك هدمنا ذلك الصرح الذى بناه الأتراك .. إنهم قد أدخلوا مع الاسلام مفردات الجامع والقرآن، والمكتبة، والسبيل والسوق .. وغيرها من آلاف المفردات؛ فهل يُلْقَى بها لمجرد أنها وفدت من اللغة العربية ...؟.

لم يثبت التاريخ حتى الآن، أن هناك أُمة من الأمم لم تستفد من حضارات، وثقافات الأمم الآخرى.

فى المدينة، والثقافة مثلما هو الحال فى الفنون الجميلة، والأعمال الفنية ليس المهم هو العنصر أو المادة الخام، بل المهم هو التركيب أو

التشكيل الفنى الذى يحتويه .. فمثلاً الشاعر التركى يحى كمال بياتلى (١٨٨٤/١١/٢ - ١٩٥٨/٢/١م) قد استعار معجمه الشعرى من اللغتين العربية والفارسية .. ولم يعب عليه أحد صنيعه هذا .. لأن مايخص يحى كمال هنا ليست الكلمات .. بل النظام، والنسق، والجزس الموسيقى المتولد عن هذه الكلمات ..

يمكنك أن تقارن بين جامع عثمانى، وجامع عربي، وجامع فارسى، كجامع فالثلاثة يشبهون بعضهم بعضاً .. ولكن مما لاشك فيه أن الطراز والأسلوب مختلف .. وماتزدان به مدينة كاستانبول من جوامع ومآذن هو على الطراز العثمانى الذى لانصادفه فى مكان آخر .. هو مايجعل هذا الطراز ضمن عناصر واسس الثقافة التركية العثمانية. كما أن مآذن القاهرة تحمل السمات الثقافية الفاطمية والمملوكية ..

إن أهم عناصر وأسس الثقافة القومية هى اللغة، وكل ماتعبر عنه اللغة .. أو يُعبر عنه باللغة .. لأن تناول اللغة وحدها، وبحد ذاتها يمكن ان يحيد بنا عن الطريق المستقيم .. فما أن تُذكر الثقافة حتى يتبادر إلى الذهن اللغة، وما أنتجته اللغة سواء أكان شفاهياً، أو مكتوباً .. فالمخطوطات التى تكتظ بها المكتبات .. ودور الوثائق والمحفوظات .. وأرشيف المحاكم والوزارات والهيئات .. كل هذه أشعة تلقى الضوء على التاريخ القومى، والمساهمات الحضارية. كما أن مايتردد فى القرى، والكفور والنجوع من ضروب الأمثال .. والآغانى، والفوازير والألغاز .. والأشعار والحواديت والأساطير، والنُّكت .. والفكاهات .. واللطائف والأملوحات .. كل هذه المفردات تدخل ضمن نطاق الثقافة؛ كالنسق المعمارى .. والنغم الموسيقى .. والرقص الإيقاعى، والمشغولات اليدوية .. والأكلمة والأبسطة والسجاد اليدوى كلها عناصر ثقافية تحرص الأمم المتقدمة .. والمتحضرة على عرضها والتشهير بها فى دورها .. وقصورها .. ومتاحفها .. ومبانيها .. ومتاجرها ومعارضها .. بل وتخصص لها المناسبات .. والفتارين .. والصالات ..

ليس هذا فحسب .. بل عادات، وأعراف ومعتقدات .. ومراسم وأيين الأمم لما يدخل ضمن تراثها الثقافى .. فما يفكر فيه المواطن فى القرى أو الحضر .. وطريقة اللبس والأكل وسمات البخل أو الكرم .. ومراسم الزواج أو الدفن .. والتفاؤل والتشاؤم حيال عناصر الطبيعة أو مايأتى به القدر .. كلها فصوص ثمينة يشملها العقد المرصع حول جيد الأمة .. ومعصم كل فرد من أفراد هذا الوطن ..

تكامل الثقافة القومية ومميزاتها:

لما كانت اللغة، وطريقة نظرتها إلى الحياة اليومية، والتعبير عنها هى من أسس وعناصر الثقافة القومية .. فيجب القول منذ البداية أن اللغة العربية هى إحدى مقومات الوحدة الثقافية بين كافة مجتمعات الأمة العربية، كما أن اللغة التركية هى التى قامت عليها فكرة الوحدة الطورانية التى تجمع بين كافة شعوب الأمة التركية .. ولتأكيد هذه المعانى لابد من دراسة النتاج اللغوى، والأدبي .. والموسيقى والفنون الجميلة والأعراف والمعتقدات والمراسم على ضوء الوثائق والموروثات المتاحة ..

على الرغم من أن الأبحاث التى جرت، وتجرى مازالت فى مراحلها الأولى إلاً أنها أثبتت أن اللغة العربية تشكل عنصراً توحيدياً بين كل الأمة العربية على امتداد الساحة العربية .. ويكاد يكون نفس الشيئ متطابقاً على الشعوب التركية رغم اختلاف اللهجات، واللكنات .. فاللغة العربية واحدة رغم اللهجات فى المغرب وشمال أفريقيا والصومال والسودان ومصر والجزيرة العربية والمشرق العربى .. كما كانت اللغة التركية هى الوسيط المشترك بينى وبين التركى فى المجر، وبلغاريا، والآناضول، وقزوين وتركستان وطشقند وباقى المدن فى اوزبكستان .. ورغم اختلاف اللهجات إلاً أن الوسيط كان ناجحاً .. ولم تحل هذه اللهجات دون الترجمة عن الآذرية والأوزباكية والتركمانية .. فالأصول واحدة وإن تشعبت المنابع

والجداول .. فتمتعنا واستمتاعنا بالغناء المغربي والتونسي والمشرقي والخليجي، والنغمات الحلوة والترانيم المقدسية والبنانية .. وعذوبة الترتيل والانشاد والتواشيح المصرية .. كلها عناصر عذبة .. فى عذوبة النيل .. عميقة كعمق اللغة العربية التى وفَّرت وحدة المشاعر والآحاسيس والوجدان .. ونغمات الموسيقى التركية التى تُشتف الآذان من قازان .. وآفغانستان .. وتركيا .. وايران وأذربيجان .. وسائر الساحة التركية على امتدادها .. فمما لاشك فيه أن الأصول اللغوية الواحدة هى التى أمَّنت وحدة تلك الأنغام والترانيم ..

إن الأقوام العربية .. شأنها شأن الأقوام التركية .. قد عاشت عنعنات عقائدية .. ومراحل تاريخية متعاقبة .. عرفت كليهما مرحلة ماقبل الأديان السماوية .. ثم استقرت جموعها على الديانة الإسلامية، لما وجدته فيها من تقارب فى الأعراف والعادات، وتهذيب وتشذيب للسلوك والميول والرغبات .. وأصبح من الصعب أو المحال أن تفصل بين ثقافة الاسلام وثقافة الانسان فى وسط آسيا .. أوالآناضول أو المشرق عبوراً لأرض الجزيرة مروراً بمصر وصولاً إلى المغرب ...

إن العرب العاربة والمستعربة .. والفرس والأتراك بعد ماقبلوا الإسلام وائموا بين البناء التحتى والبناء الفوقى فى الثقافة .. أبقوا على ماالديهم مما يتوائم مع الدين الجديد .. ففكرة التوحيد عند المصريين أبقوا عليها، وصهروها فى بوتقة الإله الواحد .. وغيَّر الترك شخصية رجل الدين الشاماني وركزوها حول شخصية الرسول «صلعم» ثم أمير المؤمنين والخليفة وشيخ الطريقة .. فكرامات ألَولي بدلاً من نفحات الشاماني .. والبدوى العربي .. والمرتحل التركى الذين كانوا يعيشون فى الخيام وبيوت الشعر ويحملونها أينما رحلوا .. بعد أن قبلوا الاسلام نقلوا زخارف ونقوش الخيام إلى المآذن .. والمنابر فى الجوامع والمساجد .. مثل هذا التغيُّر الثقافى يمكن أن نلمحه، بل ونلحظه بين كل شعوب الأمة الإسلامية.

إن شعوب الأمة الإسلامية قد مزجوا مزجاً فريداً بين شخصية البطل والغازى .. فى السير والملاحم .. فعنتره .. وامرؤ القيس .. والزبير .. وآلپاميش وكل اوغلان وكورأوغلان .. أصبحوا على بن أبى طالب .. وخالد بن الوليد وجعفر الطيَّار وطارق واورخان .. وسليمان والفاتح .. فالبطل والغازى هما القوة المادية التى تفتح ن وتحمى . ويسيران جنباً إلى جنب مع أمير المؤمنين، والخليفة والولى والعالم الذين ينظمون الحياة الروحية والمعنوية والإدارية للمواطن .. إن الولي والعالم هما الذان يفتحان أبواب العالم الآخر .. بينما البطل والغازى هما الذان يفتحان العَالَم المعاش .. ومن هنا كانت مكانة الشهيد والولى لاتضاهيها مكانة أخرى .. وكلتا الشخصيتين تنالان ماتستحقه من احترام وتبجيل فى التراث الثقافى الإسلامى.

إن الدفاع عن الدين والوطن من أعلى المراتب قدسية وإجلالاً عند الأمة الاسلامية .. من هذا المنطلق تَحَتَّم الارتباط بالدولة ومؤسساتها التى توفر له الحماية والرعاية، والتى تجعله يرتبط بها، ويدافع عنها عند الكوارث والمحن .. فالأرض هى العرض .. والدفاع عن الأرض بالروح والدم والمال من اسمى مراتب الآخلاق .. وهذا مايخلق فى المواطن عزة النفس .. والوقار .. والحيثية وتدفعه إلى حب الخير، والكرم، والتضحية .. واحترام حق الغير والدفاع عن المظلوم، ومساعدة الضعيف والصغير والفقير .. وإجلال الكبير وتوقير المسن .. هذه كلها من سمات الشخصية التى تتمحور حولها العناصر والأسس الثقافية. والتى تدفعه إلى استحداث مؤسسات الخير والصدقات الجارية والتى هى بدورها التجلى المادى للخصال الحميدة .. فوراء الجامع، والسبيل، والكُتَّاب، والحمام، والمدرسة، والخان والمشفى روح صافيه .. ومشاعر سامية .. وماهذه المجسمات إلاَّ فنون جميلة تُزين جبين الوطن وتسمو بالمواطنين .. فالروح الذكية هى التى توقف الأوقاف .. ودور الأيتام والخيرات .. هذه كلها مفردات الثقافة المحلية التى تجعلنا نلتف حول

بعضنا البعض عند الكوارث والمحن، وتعديات الآخر المعتدى .. والعدو المتربص ..

*** من هنا تنشأ الحاجة إلى الإهتمام بهذه المفردات، وصيانتها وترميمها واعادة ماتهدم منها .. نحن فى أمس الحاجة إلى إعادة الحياة والنماء إلى قصورنا، وسراياتنا .. لا لكى نجعلها بيوتاً للضيافة .. بل قصوراً ومتاحفاً لكل المفردات الثقافية من فنون .. وكنوز .. ورقائق وتحف ومخطوطات، ولوحات خطيِّة وزيتية. كم أتمنى أن نرى سراى عابدين كله متحفاً .. وينضم إليه سراى القبة .. وقصر الطاهرة وكل القصور التى تحولت إلى ادارات حكومية وحزبية فى كل ربوع الوطن .. نحن فى حاجة إلى أن نعرض ثقافاتنا المحلية فى المدن الكبرى .. والمحافظات .. كم أتمنى أن تعم المتاحف والمعارض وقصور الثقافة، وساحات الفنون الشعبية، ومحاكى القرى وأن يتحول دوَّار العمدة إلى مشغل للصناعة اليدوية .. وأن يكون هناك ركن فى كل النوادى، ومراكز الشباب، والساحات الشعبية للألعاب والرياضات التراثية .. لماذا لا نعمم رياضة التحطيب، ومسارح خيال الظل .. والمدّاح .. وتمثيلات مواسم الحصاد.؟ لماذا لا نطوِّر الاحتفال بمجيئ فيضان الخير .. وخروج المحمل .. وعودة قافلة الحج .. ومسيرات الزهور .. ومواكب الحرف .. نعيدها .. نطوِّرها .. نستخدم فيها أشعة الليزر .. ونكرِّم المبدعين فيها ..

إن دخل متحف «طوپ قاپى سراى» فى استانبول قد أمَّن وحده الملايين اللازمة لإقامة مبانٍ جديدة للضيافة .. والإدارة .. ولم يسمح طوال التاريخ باستخدامه إلاَّ فى هذا الغرض؛ ألاَ وهو عرض وتشهير مفردات الثقافة التركية الإسلامية .. لماذا لا تحوَّل بيوت الزعماء .. والشعراء .. والأدباء وكبار المطربين الذين شكلوا وجدان الأمة إلى متاحف ..؟ كم سعد الناس بمتحف الفنانة الخالدة كوكب الشرق أم كلثوم .. وبتمثال الشهيد المرحوم البطل عبدالمنعم رياض .. لماذا لانبنى مقراً ثابتاً لرئيس الجمهورية

.. ورئيس الوزراء .. لايتغير بتغير الرئيس .. بل يتغير الرئيس ويبقى قصر الرئاسة .. فهناك «البيت الأبيض» .. «والكرملين» .. «والمستشارية» .. «وداونج ستريت» .. هذا هو التحديث .. والمعاصرة .. مع الحفاظ على التراث والأصالة ...

استمرارية الآثار الثقافية وحمايتها:

إن مسودة النوتة الموسيقية .. وقصيدة الشعر .. ومخططات الكبارى، والسدود .. وخطب الزعماء، وخطاباتهم .. ومذكراتهم هى كقطع البرلنته، وفصوص الماس .. وعقود اللآلئ .. وأساور الذهب وأقراط الفضة وتماثيل البرنز ومسلات الجرانيت .. ومعابد الفراعنة، ومميااوتهم والكنيسة المعلقة .. وجامع عمرو بن العاص .. وأحمد بن طولون .. والأزهر الشريف .. وجامع الظاهر بيبرس .. وحديقة شجرة الدر .. وحديقة الأندلس والأعتاب المبجلة لسيدنا الحسين .. والسيدة زينب .. والسيدة نفيسة .. والسيدة سكينة .. والإمام الشافعى .. وجامع الفتح .. وجامع النور .. وبرج القاهرة .. ومقياس النيل .. وقلعة صلاح الدين، وقايتباى .. هذه كلها كنوزنا لاتقل فى أهميتها عن الهرم، والمتحف المصرى، ودار الأوبرا ودار المحفوظات، ودار الكتب المصرية .. ومعهد الموسيقى العربية .. هى كورق البردى .. ومعبد الكرنك، والمسلات الشامخة .. ومقابر الدير .. وأبى الهول .. كلها تنادينا .. علينا أن نصونها .. نوقرها .. نبجلها .. نرصد لها .. ثم نأخذ منها ..

إن متاحف تركيا التى كانت قصوراً .. وسرايات .. وقصور شاهات ايران وأباطرة الصين واليابان .. ومتحف اللوفر .. والمتحف البريطانى .. ومتحف الفنون والهرميتاج .. والمزارات السياحية الثقافية فى ايطاليا والأندلس واليونان .. كم أدخلت من الملايين لخزائن دولها .. وقدّمت لمواطنيها من مقومات القومية والعزة والفخار ..!

إن الذين أُتيحت لهم الفرصة لزيادة دول الغرب والشرق المتقدمة لابد أنهم قد رأوا كيف تحولت قصورهم وعماراتهم الجميلة إلى متاحف ..

وصالات عرض لمقتنياتهم .. تلك المقتنيات التى لاتقاس بما لدينا .. ولو أفرغت متاحفهم مما ينتسب إلينا .. لبقي القليل، وكلنه مبجل .. والنادر، ولكنه موقر .. والمتخيل .. ولكنه موثق ..

إن دول الغرب لم تهتم بالأعمال التاريخية المادية فقط .. بل عالجوا المخطوطات .. ورمموا الوثائق والأوراق .. وشيدوا لها المكتبات. وحفظوها فى الخزائن .. إن المكتبات فى قدسية دورالعبادة؛ لها الرعاية والصيانة والترميم والعناية .. أحاطوها بكل صنوف التوقير، والتبجيل والقداسة فتحوا أبوابها للآلاف، بل لملايين الكتب الوافدة .. وتسامحوا مع كافة العقول التى تبغى التنوير والاستزادة .. صنّفوها .. فهرسوها .. رمموها .. جعلوها فى متناول الجميع فى لمح البصر .. لاتسويف .. ولا أعذار مختلقة.

والأرشيفات .. كنوز العقول .. وزخائر الأمم .. صنفوها هى الآخرى .. احتفظوا بالأصول، صوّروها وجعلوا التناول والتداول لهذه المصورات فالأصول ميراث الأجيال التالية .. وأحاطوا مبانيها بالحدائق والميادين الواسعة والشوارع النظيفة والمنمقة ..

إن الحفاظ على الأثر التاريخى .. أو الكتاب .. أو الوثيقة ليس غاية فى حد ذاته .. بل هم احتفظوا به، وحافظوا عليه .. لكى يكون وسيلتهم للتعرف على الانسان فى عصورة الماضية .. فالإنسان هو هدفنا .. وغايتنا .. نتعرف على حياة الجدود .. لنعرف أسرار الانسان .. كما نحاول دائماً البحث فى أسرار الكون والطبيعة .. فإذا كانت البذرة سليمة .. والظروف ملائمة فلابد أن تخضر الشجرة .. وتزهر .. ثم تثمر .. فالأحفاد يجب أن يكونوا أكثر قوة، وتقدماً من الآباء .. ولن يتم ذلك إلاَّ إذا عرفنا كيف كان الأجداد يفكرون .. يجربون .. كيف بنوا المعابد .. وحنطوا الأجساد .. واخترعوا الورق هذه ليست جمادات ميْتة .. أشياء بلا معنى .. بل هى أجزاء مكملة لبنى البشر .. لو عرفنا أسرارها فلن نفرط فيها .. لن نبيعها

بأطنان الذهب .. لن ندعها تتفرق .. أوتتغرب .. بل نضعها فى نن العين .. وفوق الرأس .. وقاع اللاشعور ..

إن الأمم التى لا تبجل تراثها .. أو توقر تاريخها .. والتى ينظر انسانها إلى تراثه المعمارى، وأعماله التاريخية على أنها «موضة» قديمة قد عفى عليها الزمن، وأنها ليست سوى أشياء كهنه يجب التخلص منها، أو التفريط فيها، أو بيعها بأبخس الأثمان .. هى أمم قاصرة .. تحكم على نفسها بالزوال أو الذوبان .. إن الأمم الشرقية التى تنظر بهذه النظرة إلى تاريخها .. ووثائقها التاريخية .. قد فرطت فى بعض من وثائقها .. وتماثيلها وتحفها الفنية – التى لاتدرك قيمتها – بثمن بخس .. بل قدمتها كهدايا فى كثير من الأحيان.

إن الشاهد على ذلك ماتحتويه الميادين، والمتاحف. والمكتبات من آلاف القطع الفنية .. وملايين الكتب والمخطوطات والنفائس .. وعشرات المسلات والتماثيل الشرقية البديعة .. إن هذه القطع والنفائس إن لم يعد فى الامكان إعادتها .. فعلى الأقل نعرِّف الأجيال بها .. ونخلق نحوها شعوراً .. وحنيناً تاريخياً . يجب أن تكون لنا نظرتنا، وفلسفتنا التاريخية التى تمنح النفائس قيمتها .. وتربط الأجيال بها .. ليس المطلوب أن نتفرج على الآهرامات، أو المعابد، أو الشواهق المعمارية فقط .. بل المطلوب أن نعرف أيضاً الفلسفة التى تكمن خلف هذه المعابد والشواهق ..

إن هذه الأثار التاريخية، والنفائس الفنية، والوثائق الاجتماعية تحمل قيماً عالية بالنسبة لهؤلاء الذين يعلمون أهميتها، والمعانى التى تحملها من وجهة نظر حياة الانسان التاريخية، إذا كنَّا نود أن نحفظها، فيجب علينا أن نقصها على أجيالنا الصاعدة معنى التاريخ وأهميته .. وإن كان مثل هذا الشعور لايتكون بقص وحكاية الوقائع التاريخية فقط، بل كذلك لابد من التركيز على العلاقات التى تربط بين التاريخ والإنسانية .. وبين التاريخ والأمة.

إن الغرب قد كوّن لنفسه عدة أطروحات فلسفية للتاريخ متمثلة فى النماذج العديدة المنبثقة عن طرز نظرتهم لهذا التاريخ .. وللأسف لم يبدأ لدينا مثل هذا الاتجاه الفلسفى .. وقد ترتب على ذلك، أنه بالرغم من أننا نعيش فى بلد يمتلك أغنى وأثرى مايمتلكه العالم من مفردات التاريخ، إلاّ أنه لم تتولد لدينا بعد الرغبة الملحّة فى الاهتمام بالقيم والمعانى التى يحملها هذا التاريخ.

إذا كنا من كل ذلك قد اتضح لدينا مدى التداخل أو التباعد بين الثقافة والحضارة، فمن الجدير أن نشير إلى بعضٍ من الكلمات التى يمكن أن تتعلق بها من قريب أو من بعيد .. فمثلاً:

مالفرق بين «الوطن» و «الأمة» و «وطنى» و «قومى» و «الوطنية» و «القومية» فهناك تداخل فى المعنى .. وخاصة عند الحديث عن الثقافة القومية. فمعنى كلمة «قومى» أوسع وأشمل من كلمة «وطنى». فالوطن هو الأرض التى تعيش فوق ترابها الأمة. فالوطن العربى، هو الأرض التى تعيش عليها الأمة العربية .. إن الوطن هو منبع الحياة بكل ماتحمله هذه الكلمة من معانى؛ فما نأكله .. ومانشر به .. ومانلبسه .. وحتى الهواء الذى نتنفسه هو منبعه. فبيتنا .. وحقلنا .. وحدائقنا .. وبساتيننا .. ومدارسنا .. ومصانعنا .. وملاعبنا ومرتع طفولتنا .. ونمو وترعرع الشباب فينا .. هذه كلها لبنات فى بناء الوطن، والوطن هو ذاته كل هذه للبنات.

إن الوطن بترابه .. ورماله .. وماءه .. وهواءه .. بزرعه .. وضرعه .. ونماءه .. بقراه .. ومدنه .. بشتاءه وصيفه وربيعه .. بزهوره .. وبراعمه .. وأطفاله، قد كوّن فى داخلنا وأعماقنا منذ الطفولة روابط خفية .. حتى أنه يصعب فصلها عنّا وفصلنا عنه .. وبمعنى آخر .. الوطن هو الذى كوّننا .. خلقنا .. ونحن بدورنا . بفكرنا .. وجدنا .. وعرقنا .. وقوة الابداع والكد فينا .. وبالمشاعر المتأججة فى داخلنا نضيف إليه فى كل يوم، بل يمكن أن يكون فى كل لحظة مايجعله يسعد بنا .. إن مكانة الفرد، الذى هو عبارة عن

قطرة فى بحر الوطن، ونشاطه وكده .. إذا لم تر بالعين المجردة .. إلاَّ أنه لايمكن انكار القطرة .. فبداية الغيث قطرة .. وبداية الطريق خطوة .. وتباشير الربيع زهرة ..

إذاً .. عندما نقول «وطنى» فنعنى الصفات الخاصة بالوطن، وعندما نقول: «قومى» فنعنى الصفات والخصائص الخاصة بالقوم .. بالأمة .. بالفرد الخلاق والمبدع .. ولهذا؛ فالأمة تتقدم بلغتها .. ودينها .. وثقافتها .. ومدنيتها .. فالعرب قبل أن يهاجروا إلى مصر .. والترك قبل أن يصلوا إلى الآناضول .. كانوا أقواماً .. كانوا أمماً .. فالعرب قد حملوا ثقافتهم .. وحضارتهم إلى مصر .. والترك بعد أن استوطنوا الآناضول حملوا إليه ثقافتهم وحضارتهم السابقة .. وكلاهما .. أى العرب والترك حافظوا على الثقافة والحضارة الخاصة بالبلدان الجديدة التى استقروا فيها .. واستوطنوها .. ومع تغيِّر الزمان والمكان .. فمما لاشك فيه أن الثقافة والحضارة الجديدة، تختلف عن الثقافة والحضارة السابقة، وإن كانت استمراراً لها فى بعض من وجوهها ..

ولكن عندما نقول «قومي» فإننا نقصد الصفات، والقيم والآثار التى تكونت قبل المجيئ إلى هذه الديار وبعده .. فـ «الطيبة» وصف «قومي» مصرى، و«الشجاعة» وصف قومي تركى .. فهذه صفات أو أوصاف يشترك فيها كل الأفراد الذين يعيشون فوق نفس التراب، ويتنفسون نفس الهواء .. ويعيشون نفس المحيط الجغرافى والإجتماعى .. فالطيبة صفة مشتركة بين كل المصريين، والبطولة صفة مشتركة بين كل الجنس التركى .. ورغم استيعاب المصريين للثقافة العربية إلاَّ أنهم لم ينسلخوا عن طباعهم السابقة.

فالمشتركون فى الصفات المادية، والمعنوية يمكن أن نطلق على هذه الصفات صفات «وطنية» أو خلق «وطنى» بينما نطلق على الذين يعيشون على نفس الأرض والوطن «مواطنون» .. ويشترك كل المواطنين فى هذه السمات أو الصفات الوطنية لأنهم يعيشون على نفس الأرض، ويتنفسون

نفس الهواء .. ويشربون من نفس الماء .. ويتغذون على نفس الزرع والضرع الذى ينمو ويتطور تحت هواء وشمس نفس الوطن .. فالذين يعيشون فى نفس الوطن هم جميعا كركاب نفس السفينة تهزهم الأمواج جميعاً .. وتصادفهم جميعاً نفس المخاطر .. فتتولد بينهم الصداقة .. ويتم بينهم التعاضد والتعاون .. حتى وإن اختلفت فيما بينهم اللغة .. أوالدين .. أو اللون .. أو العادات والآعراف ..

إننا إن كنا فى حاجة إلى المهندس ليعلمنا الهندسة .. والطبيب ليداوى مرضانا والبناء والنجار .. والحداد .. فإننا بنفس القدر فى أمس الحاجة إلى الفيلسوف والأديب ومَنْ يُلقننا التاريخ .. إن قيم الثقافة القومية التى تنساب إلى أعماقنا دون وعي أو قصد منَّا كالهواء الذى نتنفسه من البيئة الجغرافية، والإجتماعية والعائلية .. أصبحت موضوعات تعالج فى المدارس .. ويفكر فيها فى شتى المحافل التربوية والتعليمية .. والذين يقومون بهذا الدور هم أرباب الفلسفة، والأدب، والتاريخ ومدرسو هذه المواد.

إن معنى كلمة «الشعور القومي» فى غاية الوضوح .. إنها تعبر عن تصرف ذو شعور تجاه الوجود والقيم القومية .. إن الأمي .. أو رجل الشارع يستشعر القيم الثقافية ويستشفها من المحيط الاجتماعى الذى يعيشه، واللغة التى يعيش بين حناياها .. ولكنه هنا يُشبه الفرس .. أو النبت الذى يتغدى على التربة، والماء، والهواء، والشمس .. لابد أن هذه حادثة مهمة .. ولكن التفكير أو الشعور هو الذى يبيِّن مدى قيمة أو عدم قيمة الأشياء.

إن كل طور يتخذه بنى الانسان تجاه الحياة .. لابد وأنه يعتمد على عقيدة وايمان ما .. هذه العقيدة يُعبر عنها .. كماهو مشاهد فى الآساطير والحواديت والأعراف والعادات - بشكل مشخَّص، ليس بشكل مجرد. والفلسفة هى التى تسمو به إلى مستوى الفكر محوِّلة إياه من التجريد إلى التشخيص .. إنها عملية تُشبه التعبير عن حكمة أو مثل يحمل المجاز

بكلمات واضحة ومختارة .. فعندما نقول: تفسد السمكة من رأسها أولاً، أو .. «من أجل الورد ينسقي العُلّيق» أو «تنحنى الشجرة وهى طرية ..» فهذا يعنى أن الفساد يبدأ من أعلى .. وأن الانسان يتحمل أذى العليق من أجل رائحة الورد .. وأن الانسان فى الصغر يمكن تشكيله وتكوينة .. وهذا المثل يحمل نظرية تربوية مهمة ألا وهى الاهتمام بالنشئ أى بمدارس الحضانة قبل الثانوية والجامعة.

إن الدور المنوط بالفيلسوف .. هو التأسيس والتقييم معتمداً على التفكير العلمى حتى ولو عبَّر عنه بالآساطير، والحواديت، والمُثُلَ والمجاز الشعبى .. فافلاطون أكبر فلاسفة العالم قد توصل إلى أفكارمازالت تحمل قيما رفيعة حتى اليوم، وكان منطلقه فيها هى الحكايات الشعبية، والمجاز والاستعارة.

فكما أن للمصريين آساطيرهم، وملاحمهم، وحكاياتهم وعاداتهم .. وأعرافهم، فإن للأتراك كذلك؛ هذا النتاج المتنوع .. وكشف الفلسفة فيه، وكيفية النظر إلى العالم من خلال هذا التراث أمر يقع على عاتق الفلاسفة ..

أما دور التاريخ والأدب فى حياة أي أمة من الأمم، فلا مراء فيه .. فالتاريخ يعتمد على الظروف والأسباب التى تتولد عنها الوقائع والأحداث، ومايترتب على ذلك من نتائج وأحداث آخرى .. وعلى مدرس التاريخ الذى يشرح هذه الأحداث بشكل علمى للشباب أن يؤجج فيهم الشعور القومى القوى الذى يمكن استخلاصه من روح هذه الأحداث.

ليس معنى هذا أن «درس التاريخ» يجب أن يكون قصائد فخر قومية .. فكلمة شعور نقصد بها هنا «العلم والمعرفة» وليس «المدح والفخر» ... فهناك فى التاريخ أحداث فيها أتراح، وآخرى فيها أفراح .. أحداث يجب أن تُنتقد وتُنقد .. وآخرى يجب أن يُشاد بها، وتُستخرج منها العبر .. وعلى مدرس التاريخ أن يذكر كل ذلك لطلابه، وأن يُبيِّن الأسباب .. ويستخرج النتائج .. فتحويل درس التاريخ إلى مجرد درس مدح، وافتخار يتنافى مع

«الشعور القومى» الذى يُعبِّر عن اليقظة، كما يتنافى بنفس الدرجة مع العلم .. والتفكير العلمى.

إن أطفال أي أمة وشبابها يجب أن يعرفوا، ويتعلموا تاريخ أمتهم بكل جوانبه .. وإن أمكن بكل تفرعاته .. فبهذا الشكل فقط .. وبهذه المعرفة يمكن أن نمنحهم الشعور القومي .. وهذه المعارف ممالاشك فيه سوف تؤثر على تصرفاتهم ..

أما تلقين المشاعر والآحاسيس فليس دور الفلسفة والتاريخ، بل هذا الدور منوط بالأدب وبمدرسى الأدب .. إن الآعمال الأدبية، على العموم تُعبر عن مشاعر الانسان وهمومه، أي عما يحب أو يكره .. عن خياله ونزعاته باسلوب جميل، وبطرز مؤثر .. أن أشعار عنترة .. وأمرؤ القيس .. والنابغة .. وأبى نواس .. والبحترى ومن قبلهم المعلقات .. ومن بعدهم العذريات .. وشعر العرفان والسير .. كلها تعبر عن البطولة والجسارة، والحكمة .. والنظرة إلى العالم. ولدى الترك؛ فإن ملحمة اوغوز قاغان .. تعبر عن شجاعة جد الترك اوغور قاغان وجسارته، ونظرته إلى حكم العالم .. ومن بعده جاء يونس أمره (٢٠/١٣٢١م) فعبر فى أشعاره عن انسانية متدفقة. ثم كانت أشعار فضولي (١٤٩٥ - ١٥٥٦م) وباقى (١٥٢٦ - ١٦٠٠م) ونامق كمال (١٨٤٠ - ١٨٨٨م) وتوفيق فكرت (١٨٦٧ - ١٩١٥م) .. ومحمد عاكف (١٨٧٣ - ١٩٣٦م) ويحى كمال (١٨٨٤ - ١٩٥٨م) وجاهد صدقى .. واورخان سيفى .. وناظم حكمت (١٩٠١ - ١٩٦٣م) ونجيب فاضل (١٩٠٥ - ١٩٨٢م) وسزائى قره قوچ (١٩٣٣م - ...) وغيرهم من الشعراء والأدباء الذين عكست أشعارهم وأعمالهم التركية المشاعر والأحاسيس التركية .. وكما أثْرَت هذه الأعمال؛ الفكر التركى وخيالاته .. فمما لاشك فيه أنها أثرت الشخصية التركية .. وأنقذتها من الوحدة الضيقة التى كان من الممكن أن تلم بها.

ويصر علماء التربية على أن الأعمال الأدبية والفنية لماكانت تخاطب المشاعر والأحاسيس والأخيلة فإن دورها فى التربية القومية أكثر تأثيراً من التاريخ والفلسفة .. فالإنسان فى أمس الحاجة إلى المشاعر والأخيلة عند إجراء العملية التعليمية .. ويتحقق هذا بالأعمال الأدبية والابداعات الفنية. فالمسيطر على خيال ومشاعر الأجيال الجديدة والشابة، يمكن أن يدفع بهم إلى الموت أو يزج بهم إلى أتون الحرب وهم نشوى. فالحس والخيال يلعب دوراً أكثر قوة وفاعليه من العقل فى التحركات الاجتماعية .. ومن هنا، فإن الأمم المتقدمة تُعطى قيمة عاليه لآدابها وفنونها القومية. كما أن الفنون والآداب تمنح أصحابها من القيم الرفيعه ماتنحنى أمامها الجباه.

إن عالمنا العربي .. والإسلامى يتعرض منذ بدايات القرن العشرين إلى حرب ثقافية شعواء .. وقد ازدادت ضراوتها فى السنوات الأخيرة .. وتنوعت آساليبها .. وفنونها لدرجة أننا أصبحنا نحن الذين ندعو الأعداء بمحض ارادتنا لكى يأتوا إلينا، ويقضوا على قيمنا القومية بأيدينا نحن .. وهانحن قد سلَّمنا إليهم مقاليد الأمور - تقريباً - فى كل مؤسساتنا ..

الآن فى مصر .. كما هو الحال فى تركيا .. كل المدارس والسينمات .. والمسارح .. والإذاعات .. والتلفاز والقنوات تتسابق فى نقل الآخر بثقافاته إلينا .. وإدخاله حتى فى غرف نومنا .. إن أجيالنا الحالية تعرف عن أمريكا، وفرنسا، وانجلترا وألمانيا أكثر مما تعرف عن السودان أو المغرب .. ولا نقول عن اندونسيا .. أو ماليزيا أو جزر القمر أو الصومال أو نيجريا أوتنزانيا .. أن شبابنا قد تربى منذ محمد على باشا فى مصر، والتنظيمات والآتاتوركية على «الموديل الأوربى» .. والآن على «الحلم الأمريكي» فبلادنا قد اقتظت بالمدارس التى تعلم اللغات الأوربية منذ الحضانة وحتى نهاية التعليم الثانوى .. بل الأفضلية الأن للجامعات .. والآكاديميات الأجنبية. وأصبحت لغة التعامل فى الدعاية والتجارة ..

والإعلام .. والسيطرة البنكية والاقتصادية لغير العربية .. لقد نَسَيْنا .. أو تَنَاسَيْنا .. أو نُسِّينا لغاتنا .. وثقافاتنا .. وحتى مسمياتنا .. وأسماء الثقافات الآخرى بدأت تزاحمنا .. بل نقطع الطريق علينا .. وتسلبنا أعز مانملك. ولكن .. إن المتصدى الحقيقى لهذا التأثير الأجنبي الطاغى .. هم الطبقات الشعبية مبدعة الثقافة القومية، وحامية حماها..

إن وسائل الغزو الثقافى، فكما هى علينا .. وضدنا الآن .. يمكن أن تكون أدوات وأسلحة فى آيدينا .. ونحن نُعيد احياء. وتقييم، وتقويم تراثنا الثقافى القومى، يجب أن تكون «الوسائط» فعَّالة .. فالمهام المنوطة بها كبيرة، وخطيرة .. وأهمية هذه الوسائط والوسائل لاتكمن فيها فى حد ذاتها .. إنما تكمن فى العقول والأيدى التى تستخدمها .. والبرامج التى تُعد لها .. والآثار والأعمال التى تُختار لنشرها .. فالأيدى إذا ماعرفت طريقها .. والعقول إذا ماأدركت خطورة مهامها .. تتحول نفس الوسائل، والوسائط فى الأيدى التى تعرف ماذا تفعل، وماذ ستفعل إلى وسائل طيِّعة فى إعادة الوعي، والبحث إلى الثقافة القومية.

على الرغم من أن فكرة العولمة .. والصراع الثقافى المحتدم قد جعلت الوضع أكثر فداحة .. والصورة أكثر تعتيماً .. إلاَّ أننا لايمكن أن نفقد الثقفة، أو نعدم الإيمان فى أنه ليس من السهل القضاء على ثقافة أمة من الأمم .. فالثقافة مثلها مثل البذرة تماماً .. إذا ماكانت الظروف مواتيه .. والأيدى التى ترعاها أمينة وواعية .. فلابد أن تنبت الشجرة .. وتورق الأوراق .. وتتفتح الأزهار .. وتنضج الثمار .. فالكنوز المصرية الفرعونية التى ظلت آلاف السنين غائبة فى غياهب الجب .. ومدفونة فى ظلمات باطن الأرض مأن تولتها أيدى مدربة حتى طافت أرجاء الأرض، وجاءتها ملايين الأفواج .. وضخت من أجلها مليارات الدولارات .. ليس هذا فحسب .. بل يجب علينا نحن أولاً أن نحيطها بالتبجيل .. ونشملها بالرعاية. ونجعلها

نماذج تُحتذى .. فبدلاً من ناطحات السحاب .. والفيميه .. وواجهات الزجاج .. فلماذا لا تكون عماراتنا هرمية .. أو اسلامية .. ؟ وأن تكون رغم المستحدثات متوائمة مع ظروفنا البيئية .. والمناخية .. ومستوحاة من تراثنا ..

إننا لكي نجعل وسائل الاتصال، ووسائط النشر والاعلام فى خدمة ثقافتنا القومية لابد أن ننمى معارف القائمين عليها بمنابع ومفردات الثقافة القومية ونكسبهم المهارات اللازمة، والطرق الكفيلة لنشرها بين الشعب .. إن الذين لايحبون الثقافة القومية .. ولا يُعْجبون بها .. ولا يتحمسون لها .. ولا ينفعلون .. أو يتفاعلون معها .. ولايعرفون طرق الاستفادة بها .. لايمكن أن ينشروها، أو يقدِّموها إلى الشعب بالشكل المأمول .. وربما حتى لا يسعون إلى تقديمها على الاطلاق ...

إن المهام الرئيسة المطلوبة من الذين يودون نشر الثقافة القومية، لابد أن تبدأ بالكشف عن منابع التذوق، والاستمتاع بالثقافة القومية .. والتقاط الخيط الرفيع فى أرواحهم، ووضعه على أول الطريق .. إن قصيدة . أوأغنية .. أو موَّال .. أو قصة أو رواية واحدة .. أو تمثال فريد يكفى لالتقاط هذا الخيط .. ثم يتلو ذلك الانكشاف الكلى لمنابع الابداع .. فمثلاً .. إذا كان باب الجامع يوقظ فيك تأثير الجمال .. فيمكنك الولوج من الباب إلى الكمال .. لأن الشيئ لايمكن أن يعبِّر عن نفسه بنفسه .. فباب الجامع يوجب الايمان بالجامع، وعمارة الجامع، ومعماري الجامع .. وعمَّال الجامع، ومجتمع الجامع .. والايمان .. والايمان بالله ...

إن العاملين فى المؤسسات الاعلامية إذا ماأعطوا الثقافة القومية ماتستحقه من تقدير .. فيمكنهم أن يجدوا فيها مالايحصى أو يعد مما يمكن تقديمه إلى الشعب والتعريف به بوسائطهم .. فالحبُ يعلمهم أيضاً الطرق التى يستطيعون بها أن يحببوا الآخرين فيما يحبونه ..

ماهي الوظائف والواجبات المنوطة بالفرد والدولة في تطور الثقافة:

إذا ماذكرت الأمة .. فليس المقصود هو تجمع بشرى لامحتوى له .. بل نقصد التجمع البشرى الغفير .. الدائم المبدع، الخلاق الذى يمتلك لنفسه نمط معيشة .. وحياة .. والذى اكتسب على مر التاريخ شخصية ناضجة. معطاءة .. له لغته، وشعره وفنونه .. وموسيقاه .. وتماثيله .. وأشغاله اليدوية .. وأعرافه .. ومراسيمه .. ورسومه .. أما الدولة فهى جميع المؤسسات التى شيدتها الأمة من أجل الحفاظ على وجودها .. واعشاتها .. وتطويرها ..

إن أول مايتبادر إلى الذهن غند ذكر الدولة؛ ويأتى فى المقدمة .. هو الجيش الذى تكون بهدف حماية الأمة من العدو الخارجى .. والتشكيلات الأمنية التى تؤمن النظام الداخلى .. والهيئات القضائية والعدلية التى تحسم المشاكل القانونية والقضائية بين المواطنين .. والمؤسسات التى تربى الجيل الجديد وتعلمه .. وتنظم أمور النقل والتجارة والصحة والمعارف التى تقدم التنوير للشعب .. ثم تأتى المؤسسات التشريعية التى تعلو الجميع، والتى تسعى لكى تجعل جميع هذه التشكيلات تعمل من أجل صالح الأمة ونفعها .. وتمثل إرادة الأمة فى أجلى معانيها ..

وفى هذه المؤسسات، يسعى الميئات .. بل الآلاف .. وميئات الآلاف من البشر لكى يحققوا وينفدوا الأعمال الموكولة إليهم فى ساعات عمل محددة، وفى أماكن معينة ووفقاً للقوانين واللوائح المنظمة لدواليب العمل ..

إن الروح القومية .. والشعور القومى المسيطر على كل هذه المؤسسات هو الذى يؤمن حيوية الأمة .. ويوفر نشاطها .. إن هذه الروح القومية .. وذلك الشعور القومى ينتقل من فرد إلى آخر، ومن جيل إلى جيل عبر الأعمال الثقافية.

إن كل فرد يعمل فى إحدى مؤسسات دولته .. وداخل نطاق أمته يجب أن يدرك أن عمله هذا الذى يدين له بوجوده المادى والمعنوى قد أضاف لذاته

شيئاً ما .. فكيفما أنه لايمكن الفصل بين البحر وموجاته .. فيجب كذلك عدم التفكير فى الفصل بين الأمة والأفراد والمؤسسات المنبثقة عنها .. فكل فرد هو نقطة داخل محيط الأمة.

إن الدولة يجب أن تمنح الشعور القومى لكل المؤسسات التى توفر بقاءها وتضمن استمرارها، وكذا للأفراد الذين يعملون بها .. وهى التى يجب تقص عليهم معنى وجودهم ... فإن الفرد الذى يعمل فى احدى المؤسسات .. إذا ما أدرك أنه يخدم أمته بالعمل الذى يؤديه، فإنه بذلك يمنح وظيفته بعداً مقدساً ..

إن أهم مؤسسات الدولة من الناحية الثقافية، هى مؤسسة «وزارة» التربية والتعليم .. ومؤسسة الثقافة «وزارة» ومؤسسة الإذاعة والتلفاز .. يجب على الدولة أن تعض على هذه المؤسسات بالنواجز .. لأن الثقافة القومية تخرج من هذه المؤسسات إلى كافة طبقات المجتمع .. وهى التى تؤمن جمع وحفظ، وتوزيع ونشر وإذاعة كل العناصر المتعلقة بالثقافة القومية .. إنها تُشبه السنترالات والمحولات الكهربائية الفخمة التى توزع القوة والحركة الكهربائية على آلاف القرى والمدن والمزارع والمصانع .. فكتاب يوزع من قبل وزارة التربية والتعليم، فكما أنه يمكن أن يُفْسد مبئات الآلاف من العقول فيمكنه أن يلقن تلك العقول الأفكار والمعارف الجيدة .. ومن هنا تلزم الدقة المتناهية فى اختيار النماذج والنصوص التى تنشر ويعاد نشرها العديد من المرات ...

فى الواقع ... إن كل شيئ يبدأ عند الفرد المبدع للقيم .. وهو الذى يُكثر وينمى القيم التى أبدعتها مؤسسات الدولة؛ ينشرها بين الجميع، وهو الذى يمنحها صلابة الخرسانة المتينة .. إن نموذجاً جميلاً لدائرة حكومية أو لمدرسة .. أو مكتبة إذا ماتكرر فى ميئتات الولايات، والمراكز وكبرى القرى فإنه يُكسب هذه البلاد وجهاً جميلاً خاصاً بها ..

إن الشخصيات الخلاَّقة التى تُبدع نماذج الفكر والاحساس والحياة، يمكنهم أن يمنحوا شكلاً معينا لحياة الملايين من رجال الأعمال، والفكر والفنون. إن شخصيات مبدعة معينة هى التى اكتشفت السيارة .. والراديو والطيارة .. ولمبة الكهرباء .. ومأأن انتشرت هذه المكتشفات، وانتقلت إلى ربوع المعمورة، حتى تغيرت طرق التفكير .. ونمط الحياة ومشاعر الناس .. ولهذا .. فإن على كل من يعمل أو يهتم بالثقافة القومية أن يجعل من كل مايحبه، أو يكتشفه أو يبدعه .. مفيداً لبنى البشر عامة بقدر فائدته لأمنه خاصة .. فخيركم خيركم للناس .. ومن هنا تتفوق بعض الثقافات وتتحول من ثقافة محليِّة إلى حضارة عالمية تتخطى الحدود وتعمل على سعادة البشرية جمعاء .. ولاشك أن لهذه الثقافات .. كما هو الحال للحضارات .. فلكُلٍ دَوْرَة .. تسود فيها .. ثم تعتريها بعض وسائل الضعف فيخبو لمعانها .. وتنكس راياتها .. مفسحة المجال لحضارات .. أوثقافات أخرى تطبيقاً للقاعدة الحضارية التى تقول «ماطار طير وارتفع إلاَّ كما طار وقع ....» .. فهيا بنا لنجلق مع طائر الحضارة الاسلامية ونرى كم قدمت للغرب من مفردات ثقافية وحضارية .. وكم أثَّرت .. وأُثِّرت الحياة الغربية فى عصور الازدهار الاسلامية.

(ب) معطيات الحضارة الإسلامية للحضارة الغربية(*)

مما لا شك فيه، أن الحضارة العربية الإسلامية، لم تكن عقيمة، فى يوم من الأيام.. بل كانت معطاءة، دائمة العطاء.. ولم يتوقف تدفقها، إلاَّ تحت ضغوط خارجة عن إرادتها.. وكانت ، ومازالت تعيش حيوية الأخذ، والعطاء. وإذا كان يرجع لها الفضل فى إضاءة الطريق للعالم الغربى، فى بعض المراحل التاريخية، فهى بعينها مدينة للغرب القديم ببعض الفضل.. فالحضارة الإنسانية، وحده، واحدة لا تتجزأ فى الزمان، وفى المكان.. مثلها فى ذلك، مثل وحدة الزجود فى الفكر الصوفي..

لا يستطيع أي باحث أن يدعى أن حضارة الأمس، هى نفسها حضارة اليوم، بل يمكن القول بارتياح أن حضارة الأمس هى التى مهدت الطريق لحضارة اليوم.. ومن حضارة الأمس، انطلقت حضارة الغرب الحديث، فلا ينكر دور الفلسفة الإسلامية – التى مزجت بين المعقول والمنقول، والتى عاشت فى عصر كانت علوم اللاهوت قد تخلصت من شوائبها – إلاُ كل منكر حقود.

وكذلك الحال بالنسبة لنظريات التربية، فإن المسلمات.. أو لنقل هذه النظريات قد اقتبست كثيراً من مقررات القرآن، والسنة، ومشت فى ركاب متّزن من المقاييس السماوية .. وما كان من المسلمين إلاَّ الوقوف بين الأراء المقدسة التى يعتريها الباطل، وبين البيئة التى عاشت فيها هذه الآراء.

ولا يستطيع أي منصف أن ينكر، أو يقلل من قيمة الجهد الرائع الذى قام به المسلمون فى العلوم التطبيقية، كالطبيعة، والرياضة، والطب. والكيمياء والفلك، وإن لم تصل إلى درجة التماثل بين العلوم الحديثة.. بل

(*) نشر هذا المقال فى العدد الثانى – مارس سنة ٢٠٠٢ من مجلة جامعة عين شمس والتى تصدرها العلاقات العامة بجامعة عين شمس. واتخذ عنواناً للمؤتمر الذى عقده قسم اللغات الشرقية وآدابها فى شهر ابريل سنة ٢٠٠٢م. وألقى هذا الملخص فيه.

الحضارة الإسلامية أخذت بيد العلوم البدائية التى تسلمتها من الحضارات السابقة عليهم.. وسلمتها إلى مَنّ أتوا بعدهم أكثر تقدماً، ورقياً.. فالحضارة لاتموت، ولكنها تهاجر من بلد إلى اخر.. تغير مسكنها، وملبسها.. ولكنها تظل حية ، محافظة على جوهرها.. وموت إحداها يُفسح المجال لخروج شرنقة جديدة.. فالحياة تخلع غشاءها القديم، وتُفاجئ الموت بشباب غض جديد..

وهناك مزج فريد بين الدين الإسلامى، والعلوم الإسلامية، فلا تدرك علوم الإسلام ما لم يدرك الدين الإسلامى ذاته كقوة حضارة واسعة، باعثة، دافعة للحياة.. فأول آيات القرآن دعوة للقراءة، للبحث، للنظر فى الكون.. كانت العلوم إحدى ثمار هذه الدعوة.. ولم تظهر هذه العلوم إلى عالم الوجود مصادفة بين شعوب اتفق أن اعتنقت الإسلام، بل برزت بالشكل الذى برزت عليه، لأن الذين أنتجوها كانوا مسلمين يعيشون فى عالم إسلامي..

لقد ظهرت علوم الإسلام إلى حيز الوجود نتيجة التزاوج بين الروح التى برزت من وحى القرآن، وما ورثه المسلمون من علوم الحضارة المختلفة.. وقد تحولت من خلال قوة الإسلام الروحانية إلى مادة جديدة تختلف عن مادتها السابقة، ولكنها فى نفس الوقت استمرار لها.. ذلك أن طبيعة الحضارة الإسلامية الدولية ، والعالمية المستمدة من الصفة العامة الشاملة للوحى الإسلامى، والمنعكسة من الفضاء الجغرافى للعالم الإسلامي (دار الإسلام). كانت طبيعة معطاء.

إن الدين الذى يقول قرآنه ﴿ هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون.. إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ ..﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم إنه الحق.. ﴾.. والذى يقول رسوله الكريم (ﷺ) « إن العلماء ورثة الأنبياء... وً طلب العِلم فريضة على كلْ مسلم ومسلمة. و«أطلبوا العلم من المهد إلى اللحد..» و « اطلبوا العلم ولو فى الصين.. و «حبر الطالب أقدس من دم الشهيد..».

هذا. ومثله كثير هو الذى أدى إلى ظهور العلم فى الإسلام، ويمكن الإسلام من تقديم دراسة وصفية للعالم، متمثلة فى علوم الكونيات، وعلم الهيئة - الفلك، وعلوم الجغرافيا.. ويقدم للبشرية العلوم الطبيعية، كالجيولوجيا.. وعلم المعادن، وعلم النبات، وعلم الحيوان وبيطرتها.. وكانت هذه العلوم الطبيعية تلعب دوراً رئيسياً كمصدر تتكامل فيه علوم معينة للطبيعة الوصفية من علم المعادن إلى علم الحيوان..

أما الكون ودراسته الرياضية، فقد احتلت مركزاً مهماً، فى الحضارة الإسلامية؛ فالرياضيات تحتل مكانة ممتازة فى تقاليد الإسلام، فالفنون، والعمارة الإسلامية تتخللها الأشكال البلورية والهندسية، ويظهر الولع بالحساب، والرموز العددية فى كل من الفنون التشكيلية والسماعية، وخاصة الشعر والموسيقي..

وهذا الحب للرياضيات، يرتبط إرتباطاً وثيقاً بجوهر الرسالة الإسلامية أي مبدأ التوحيد، فالله واحد، ودور « إخوان الصفا » وآرائهم فى الأعداد لا يمكن إغفاله.. ودور علم الرياضيات، والفلك فى تحديد مواقيت الصلاة، والقبلة، لا يمكن إغفالها فى الأبحاث الفضائية الحديثة.. ودور عالم الفلك موسى وأولاده الثلاثة فى علم الفلك، والجبر، والنجوم لا يمكن أن ينكره إلاً حاقد، أو منكر للحقائق.. وأول المظاهر الملحوظة للفلك الإسلامى هى بطبيعة الحال الأرصاد العديدة التى أجراها المسلمون على السموات، وهى تفوق بكثير ماقام به الإغريق.. شملت هذه الأرصاد جميع نواحى المظاهر الفلكية، فتقدمت دراسة النجوم الثابتة، واكتشفت نجوم جديدة مازالت تحمل الأسماء العربية، ووضعت خرائط جديدة للنجوم، وتم قياس ميل فلك البروج، ورصدت حركة أوج الشمس، وربط بينها وبين حركة النجوم، الثابتة.

وما الفيزياء بمفهومها الحديث إلاً امتداد للفلسفة الطبيعية الإسلامية، ومادور البيرونى، ومن قبله الرازى، ومن بعده البغدادى ثم مدرسة «المتكلمين» ببعيد عن كل باحث منصف وحصيف..

كما أن إسهام المسلمين فى موضوع القوة والحركة = «الميكانيكا والديناميكا» كان بالغ الأهمية، وصار يحتل مكانة رئيسية فى إهتمامات مؤرخى العلوم بالغرب.. كما قام المسلمون كذلك بدراسات موسعة للجاذبية، وقدَّم كثير من علمائهم أمثال ابن سينا، وابن الهيثم، وأبى البركات، وفخر الدين الرازى وابن باجة آراءا كبيرة الأهمية فى هذا الشأن.

ولم يكن علم البصريات، المنبثق من ميادين علم الفيزياء، بأقل أهمية لدى المسلمين من العلوم الأخرى، فقد أنشأ ابن الهيثم هذا العلم منذ القرن الرابع الهجرى = العاشر الميلادى، على أسس جديدة، وجعل منه علماً منظماً حتى استحق بذلك لقب : ابو البصريات».. ثم جاء الكندى، ومن بعده علماء آخرون درسوا الظواهر الجوية، وتناهي سرعة الضوء.

الطب الإسلامى والصيدلة :

الطب الإسلامى كله يتصل بالإسلام من خلال الأوامر التى جاء بهاالقرآن والحديث حول الصحة، والنظافة.. وجميع آيات الشريعة الخاصة بصحة الأشخاص، وعادات التغذية، والوضوء وصحة البدن، وغير ذلك من العناصر المتعلقة بجسم الإنسان كلها تتصل بالطب.. وأنشأت الحضارة الإسلامية مؤسسات ونظماً متينة متعلقة بالصحة و بهيكلها العام، قصد التمكن من تعليم الطب وممارسته.. وإستفاد المسلمون من النظام الذى ورثوه عن الفرس، والبيزنطيين والمتعلق بالمستشفيات، وطوروه، وأضافوا إليه الكثير من تراثهم.. وأوقفوا عليها الكثير من الخبرات، والمنح ، والأوقاف.

وكانت ممارسة الطب الإسلامى متصلة اتصالاً وثيقاً بالمستوصفات، وحوانيت بيع العقاقير الملحقة بالمستشفى، أو التى تعمل مستقلة عنها، وكان العطار أكثر إتصالاً بالناس من الطبيب.. وحتى الحمام التقليدى كان له مغزاه من حيث استعمالاته الطبية. ووضع المسلمون نظرية خاصة بهم فى الطب الإسلامي، واستنبطوا منه، وله علوم آخرى مثل علماء التشريح

ووظائف الأعضاء، ثم علم الصحة، والصحة العامة. وتفرع لديهم إلى علوم أخرى مثل الطب الباطني، والكحالة أو طب العيون، والجراحة فهناك إبن خلدون بمؤلفاته العديدة، وفي الجغرافيا أي تقويم البلدان، فمن يمكن أن ينسى البيروني، والأدريسي.. فهؤلاء الأفذاذ ترجمت أعمالهم إلى اللغات الأوربية، وتركت بصماتها الواضحة في الفكر والعلوم، بل في كل فروع الحضارة الغربية.

إذا ما حاولنا أن نرصد رؤوس أقلام معطيات الحضارة العربية الإسلامية إلى حضارة الغرب لوجدناها متمثلة في الميادين التالية؛ ففي مجال الأدب هناك الزجل العربي، والقافية، والموشحات، والقصص، وبدت مظاهر الحضارة الإسلامية واضحة في أوربا في المجالات التالية .. الفلسفة والتصوف، وفكرة الجامعات التي تعتبر نفحة من نفحات الحضارة الإسلامية، وترجمت جميع كتب الأعلام الذين ذكرناهم، ودُرِّست هذه الكتب في كل الجامعات الأوربية التي بدأت في الظهور رويداً، رويداً، واستفادت أوربا من كتب المسلمين في الجبر، وترجموا أعمال الخوارزمي، وفي حساب المثلثات ترجموا عن أبي الوفا البوزجاني... وقد عرف الحسن ابن الهيثم بعلومه المتعددة في البصريات، وترجمت كل أعماله تقريباً.. ولم تكن استفادتهم في علم الفلك وآثاره الإسلامية التي ترجمت إلى اللغات الأوربية عدة مرات بخافية على أحد.. ناهيك عن الطب، والكيمياء والصيدلة والنبات كما سبقت الإشارة.

أثر الحضارة الإسلامية في الفنون الغربية :

لم تكن الفنون الغربية بعيدة عن مجال التأثير الإسلامي، عبر العصور التي ازدهرت فيها المدنية العربية، والإسلامية.. ونرى بوضوح هذا التأثير متجليا في صناعة المنسوجات بكل أنواعها، ومازالت صناعة السجاد الشرقي الإسلامي تلقى رواجاً منقطع النظير في الغرب، كما نقل المسلمون فن الطباعة ، وصناعة الورق الصينيان إلى أوربا عبر المراكز الإسلامية

المتقدمة، فقد أقام العرب أول مصانع للكاغيد = الورق ، في بلنسية، وشاطبة، وطليطلة.. ودخلت إلى إيطاليا عن طريق صقلية الإسلامية.

وهل دور العرب والمسلمين في صناعة الرحى، والطواحين المائية والهوائية وفي الصناعات الحربية كالبارود، والمدافع، والبنادق ببعيد عن الباحثين..؟ وحتى جراحة الفم والأسنان نالت إهتماماً كبيراً من قبل علماء المسلمين. ولا ينكر أي باحث أن مصدر الطب الإسلامي، كان الطب النبوي، الذي شكل الأساس لإنطلاقة هذا العلم..

وإذا كان تطور الطب الإسلامي قد ارتبط ببعض المراكز الطبية مثل بغداد، والقاهرة، ودمشق.. وغيرها من العواصم الإسلامية، فإنه كذلك قد ارتبط ببعض العلماء أمثال الرازي، وأبو القاسم الزهراوي في الأندلس، ثم جاء العبقري العظيم ابن سينا الذي ألَّف في الطب بالعربية والفارسية، وترجمت كل كتبه ومؤلفاته إلى معظم اللغات الأوروبية.. ثم جاء بعده أطباء عظام مثل ابن النفيس الذي ألف موسوعة « الشامل في الصناعة الطبية»..

وإذا كان من الثابت أن الحضارة الإسلامية قد استفادت من المراكز الحضارية السابقة، ومن علوم الذين سبقوهم كاليونان، والفرس، والهنود، والإغريق.. إلاّ أنهم قد تركوا آثاراً تُبدي بوضوح، وتُعبر عن مظاهر الحضارة الإسلامية..؛ فالمكتبات، أو بيت الحكمة، أو خزانة الحكمة، والمدارس والجامعات، والجمعيات الفكرية كجمعية اخوان الصفا، والمارستانات = المستشفيات، والمراصد، ودور الصناعة، وأساليب الزراعة في الأندلس، وآلات الجراحة لما يُعد شاهد حق على عظمة الحضارة الإسلامية.

وقد أنجبت الحضارة الإسلامية الكثير من العظماء، أمثال عبد الله بن المقفع، وأبي العلاء المعري في الآدب، أما في الفلسفة ، فهناك الكندي، والفارابي، والرئيس ابن سينا، وابن رشد، وأبي حامد الغزالي،.. ومن أهل الحقيقة الصوفية؛ ابن طفيل، ومحي الدين بن عربي، وبن الفارض، ومولانا

جلال الدين الرومى.. وفى ميدان الرياضيات، محمد بن موسى الخوارزمي، وأبى الوفا البوزجانى، وعمر الخيام، أما فى الطبيعة، فهناك الحسن بن الهيثم، وفى الفلك هناك ؛ البستانى، والمجريطى، والزرقالى.. وفى الطب هناك أعلام كبار فيالطب العالمى مثل؛ أبى بكر الرازى، والزهراوى، وابن سينا، وجابر بن حيان فى علم الصنعة أى الكيمياء، وبن البيطار، وفى التاريخ والإجتماع، ناهيك عن الصناعات الدقيقة؛ كالإسطرلاب الذى أوصله المسلمون إلى درجة الكمال بعد أن أخذوه عن اليونان.. ومثلت الإسطرلابات قمة لا تضاهى للملاحين، وأنواع الإستطرلابات الإسلامية، تزخر بها مكتبات، ومتاحف باريس، واكسفود، كما أن البحارة المسلمون الذين كانوا يحتكرون التجارة فى البحار هم أول من استخدم البوصلة فى البحرية، وأوصلوها إلى البحارة الأوروبيين.. وأليست المزولة الشمسية من إختراع العرب..؟ وقد استخدمها الأوروبيون، وخاصة الحلفاء الغربيون فى الحرب العالمية الثانية. وهل ينكر فضل عباس بن فرناس فى صناعة الساعة الدقاقة، والنظارات والطائرات..؟ وأليست محاولته للطيران هى أول محاولة فى التاريخ..

أما فى الفنون الجميلة.. فحدث ولا حرج.. فدور الموصل، وبغداد، بل والمسلمين جميعاً فى الموسيقى، والنوتة الموسيقية، لا ينكره إلاً جاحد حاقد.. وصناعة الخزف التى بلغت مبلغاً عظيماً فى الحياة الإسلامية، ورسوم المينا على الكؤوس والأوانى الخزفية المطلية بالألوان الفيروزى أو الأسود، أو الأزرق ألا تزدان بهاالمتاحف الغربية حتى الآن.. وألم تقف شاهداً على سبق العرب والمسلمين فى هذا المضمار.. ومارأيكم فى الزخارف بالخط العربى، وتكفيت المعادن وزخرفة الخشب والعاج، والتصوير الذى تعج به ألاف المخطوطات المكنوزة فى مكتبات العالم الغربى.. ألا تقف دليلاً على سَبَق العرب والمسلمين فى فن التصوير، وتعريم الكتب أى تجليدها بالجلد المزخرف..؟ هذا، ناهيك عن فنون العمارة الإسلامية التى مازالت تقف شامخة، سامقة فى أجواء الأندلس، والبلقان.. وأخيراً.

لكل شئ إذا ما تم نقــــصان ٠٠٠ فلا يغر بطيب العيش إنسان
وهذه الدار لا تبقى على أحــــد ٠٠٠ ولا يدوم على حال لها شــان.

فلابد للزمن أن يدور دورته، ويعود للعالم الإسلامى صحوته.. وتعود مساهمته فى صنع الحضارة الإنسانية..

(•) المراجع:

أولاً: المراجع العربية:

١) أثر المدنية الإسلامية فى الحضارة الغربية، الدكتور/مختار القاضى، القاهرة ١٣٩٣هـ - ١٩٧٤م.

٢) شمس العرب تسطع على الغرب « أثر الحضارة العربية فى أوربة، المستشرقة الألمانية زيغريت هونكه، ترجمة: فاروق بيضون. كمال دسوقى، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٨، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٣) العلوم فى الإسلام، دراسة مصورة، سيد حسين نصر، ترجمة : مختار الجوهرى . دار الجنذب للنشر، تونس ١٣٩٩هـ - ١٩٧٨م.

٤) ول ديورانت ؛ قصة الحضارة .. نشأة الحضارة، الشرق الأدنى، ترجمه: د. زكى نجيب محمود. محمد بدران. مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١ - القاهرة، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر. سنة ٢٠٠١م.

ثانياً: المراجع التركية:

1) Prof. M. Kaplan, Büyük Türkiye Rüyasi, Istanbul 1969.

2) Prof. M. Kaplan, Nesillerin Ruhu. Ist 1970.

3) Prof . Dr. Mumtaz Turhan, Kültür Deyişmeleri, Istanbul 1971.

4) Prof. Dr. Osman Turan, Türk Cihan hakimiyet mefküresi Tarihi Türk Dünya Nizaminin Milli Islami ve Insani Esaslari Cilt I Istanbul 1969 ve cilt II Istanbul 1969.

5) Prof. Dr. Osman Turan, Islamiyet ve Türkler Istanbul : 1968.

6) Türk Kültur ve Medeniyeti "Makaleler" Ankara - 1976.

7) Prof. Dr. Ziya Gök alp, Türkleşmek, Islamlaşmak Muasirlaşmak Istanbul 1965.

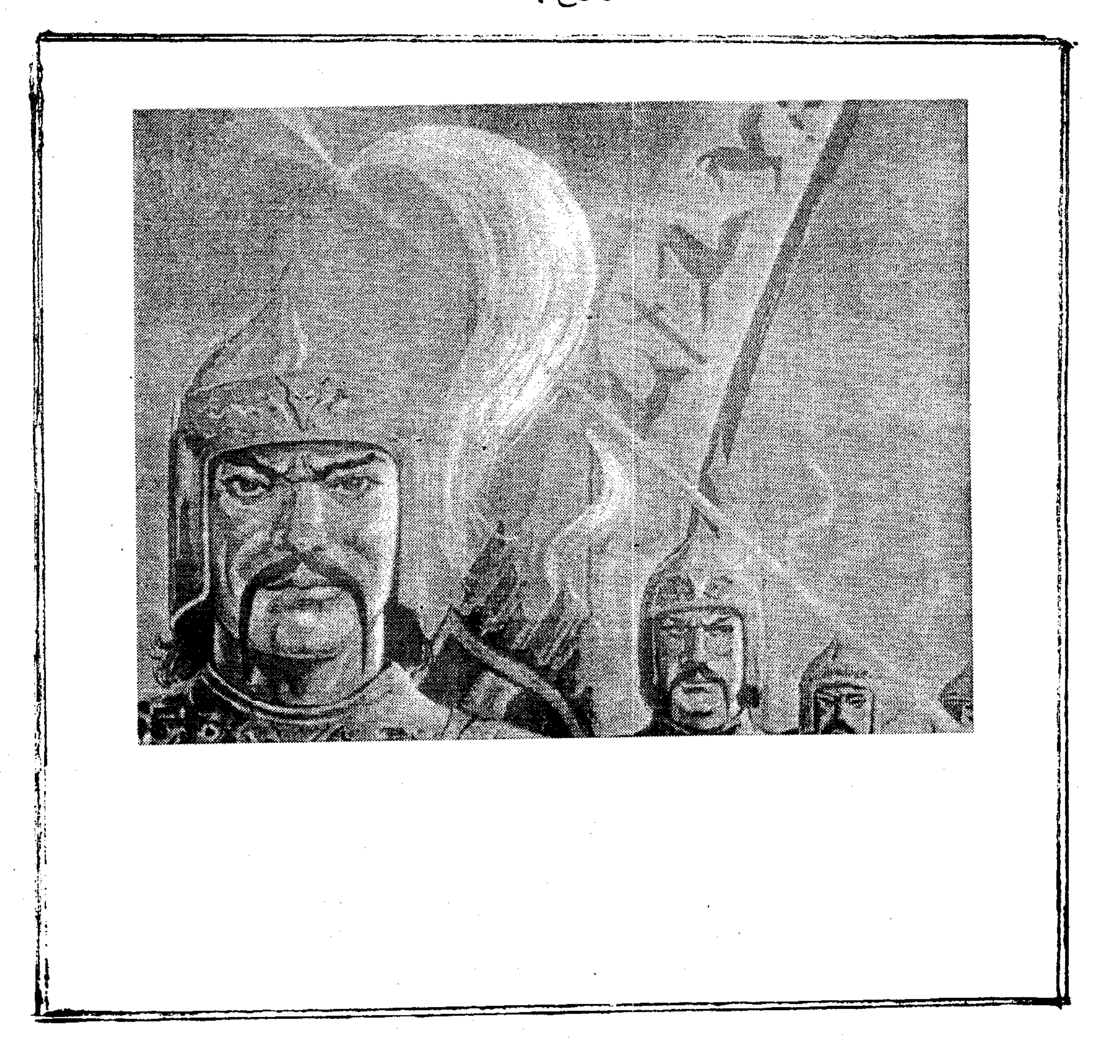
أولاً: حول الدول التركية

الهون

الگوك تورك

الأويغور

اولوغ بك



دول الترك

الهـــون(*)

كانت أسيا الوسطى مسرحاً للعديد من الحركات الثقافية طوال قرون عديدة قد شـهدت إزاحة الستار عن الغموض الذي شمل حياة الهون فيما بين القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد.

كما شهدت هذه الساحة تشكيل أول امبراطورية تركية وتوسعاتها الكبيرة وسيطرتها على كتل بشرية عديدة.

إن أول من تحدث التركية هم هؤلاء القوم الذى يطلق عليهم المؤرخون الغربيون «هون» Hun بينما يطلق عليهم الصينيون «هيونج - نو». وتُرجع بعض المراجع تاريخ الهون أو الـ «هيونج - نو إلى ما قبل القرن الثانى عشر قبل الميلاد. وأن موطنهم الأول كان ممتداً فيما بين مغولستان الحالية وجبال آلتاى. وهناك معلومات مفصلة عنهم منذ القرن الثامن قبل الميلاد، وأنهم قد وصلوا حتي نهر «هوانج - هو» فى أعماق الصين(١) وكان الصينيون يطلقون على حكامهم «طان خو» Tan hu ولما كان هؤلاء الحكام لهم مكانة دينية عالية فقد كان الشعب يلقبهم بابن السماء Hengrikut gogunoglu ابن السماء = ابن الاله.

ومجتمع الهون قد تشكل على أساس نظام ارستقراطي معتمد على الترك. فى نطاق هذا النظام الارستقراطي التابع للخاقان؛ كانت المناصب المهمة فى أيدي الأمراء المنتسبون للعائلة Teginler الحكام، وإلى الذوات أو البكوات Beyler وأصحاب المراكز العسكرية الهامة وهم بدورهم لم يخرجوا عن العائلات التركية الأصيلة. وكان قواد الجيش المكون من أربع وعشرين

(*) أعدّت هذه المادة للنشر فى الموسوعة العربية التى كان يشرف على اصدارها د. مصطفى لبيب صاحب دار الثقافة سنة ١٩٧٩م.

(1) Nerjat Diyerbekir, Hun Sanatı, birinci basılış, Egittim Basımevi, Ist. 1972, S . g.

تومانا(١). والذى كان في حالة استعداد للحرب دائما – من المنتسبين للعائلة الحاكمة. وكان هذا المنصب يتوارثه السلف عن الخلف وكان بين المجتمعات التى تكون دولة الهون فوارق طبقية واضحة. وتوضح المصادر الصينية أن بعض الجماعات المنتسبة إلى الهون كانت تُشكل طبقة مميزة بين الألتائين ومادونهم الذين كانوا يمثلون الطبقة الدنيا فى المجتمع. وهذا يوضح أن العبودية عند الأتراك الهون كانت عبودية جماعية أو طائفية بدلاً من العبودية الفردية. إن مجتمع الهون كان قد تشكل على أساس مجموعات حربية محترفة او على أساس جيش. وكان كل فرد فى هذا المجتمع المتحرك محارباً. وكانت مهارة الفرد تُقاس بمدى تثنيته للرماح الصلبة. وكان يُطلق على المصوب الحاد «صفر نشان» وكان محاربوا الهون يستخدمون إلى جانب القسي والرماح، المزراق والسيوف والخناجر في القتال المتلاحم – وهذه القتالية التي اتسمت بها حياة الهون كانت نتيجة طبيعية لحياة القنص التي كانوا يحبونها.

وفي الأزمنة التي ظهرت فيها العشائر التركية على حدود الصين كانت القوات الصينية تمتلك عربات حربية ذات مقدرة فائقة على المناورة بأسلحة الحرب المعروفة آنذاك وهي القوس والمزراق. كما كانت تتعامل بالتكنيك الحربي الصيني المتقدم.

وقد كان المحاربون الصينيون لايضاهون في استخدام وسائل الحرب هذه، وقد ظل الصينيون حتي القرن الثالث ق.م مرتبطون بفن الحرب وأصولها التي وضعها سلالة شانج Sang الصينية. كما أن المصادر التاريخية تثبت أن أسرة كوف Cov الصينية إلى جانب أنها كانت تمتلك ألف عربة حربية، فقد كانت صاحبة قوة حربية لم يتصورها عقل في عهودها الأخيرة. وقد كان في كل عربة ثلاث أفراد، الميمنة يقوم بإستخدام المزراق والميسرة يستخدم القوس، أما من بالوسط فقد كان يقوم بالقيادة. ويأتي

(١) كان التومان عند الهون يتكون من عشرة آلاف فارس.

خلف كل عربة فرقة من المشاة مكونة من اثنان وسبعين محارباً علاوة علي خمسة وعشرين مرافق آخر يقومون بتلبية كل مايحتاج إليه هؤلاء المحاربون. وهكذا كان خلف كل عربة حربية وحدة مقاتلة مكونة من مائة شخص. وكانت في البداية تقوم بأكثر مما كان متوقعاً منها أو منوطاً بها، ولكن مع تقدم الزمن وسيطرة الطبقية على الجيش بدأت مساوئ هذا العدد غير المتجانس طبقياً تطفو على السطح وفسد فن الحرب الذي كانوا يطبقونه، وفقدت تلك العربات مقدرتها الحربية الضاربة والمخترقة. وأضحت هذه القوة غير قادرة علي مواجهة الهون القادمون من الشمال، وخاصة من منطقة (أوردوس) Ordos ومحاربتهم. ومن هنا شعر الصينيون بضرورة تغيير تكنيكهم الحربى دون ضياع للوقت، وهكذا ؛ فبينما قد شكل الهون مرحلة في تطور العسكرية الصينية فإنهم أي الصينيون قد تركوا هذا المجتمع المتحرك تحت التأثير الثقافي والفني للكتلة الصينية المستقرة.

وفجأة فقدت «العربة الحربية» التى كانت أقوى وسائل الحرب في عصرها كل أهميتها، لأنها لم تعد تساوي شيئاً في الصراع أمام القدرة الفائقة علي المناورة والخفة لفرسان الفيافي - ولم يعد أمام الصينين من حل لمواجهة الهون إلاَّ أن يتعلموا منهم، ويأخذوا عنهم الكثير. وكان على الامبراطور «ويو - لينج» أن يبدأ حركات الاصلاح فيما بين سنوات ٣٢٥ - ٢٩٨ ق.م «أولاً. وإن يأمر جنوده، بارتداء ملابس فرسان فيافي الهون - وأن يتعلموا ركوب الخيل وفروسيتها. ونتيجة لإصلاحات «ويو - لينج» هذه فقد كان ركوب الخيل وساستها، بدلاً من قيادة العربة الحربية. وارتداء الجاكت والبنطلون اللاصق بالجسد أثناء الحرب، بدلاً من الملابس الفضفاضة، وحذاء الفروسية الطويل المصنوع من الجلد بدلاً من الخف الصيني اللين من أوائل وأهم هذه الاصلاحات[1].

(١) المرجع السابق ص ١١ - ١٥.

تعتبر المراجع الصينية الخاقان «طويو - ماو» أو «تيومان» حسب النطق التركي هو أول امبراطور للهون، وقد وصل إلي السلطة حوالي ٢٢٠ ق.م، وهو الذي حاول جمع الترك تحت علم واحد وألقي الأسس أو اللبنات الأولي في بناء امبراطورية كبيرة. وفي سنة ٢٠٩ ق.م انتقلت السلطة إلي «مته» ابن «تيومان» الذي يطلق عليه الأتراك «بهادر» وقد قام هذا الخاقان بهجمات متتالية لمدة خمس وثلاثين سنة خلال «٢٠٩ - ١٧٤ ق.م» حتى وصل إلي مركز القارة الصينية. وامتدت حدود الإمبراطورية في عهده من المحيط إلي بحر الخزر، ومن سيبريا في الشمال إلى الهمالايا في الجنوب. وقد أثبت المؤرخون أن «مته هذا ها هو إلاَّ» «اوغوزخان» في الملاحم التركية[1]. وقد نجح في أن يحول العديد من الجماعات الرحل إلي حياة منظمة مستقرة وأن يشكل منهم جيشاً منظماً مضيفاً تطوراً جديداً في فن الحرب. ويتضح من الخطاب الذي أرسله الخاقان الشاب إلي إمبراطور الصين أنه قد نجح في هزيمة جيوش ستة وعشرين دولة وتوحيد أكثر من خمسين إقليماً مسلحاً في آسيا الوسطى. وأن يجعلهم يعيشون في سلام وطمأنينة تحت حمايته. كما أن الرواة وشعراء الهون لم يملوا قط التغني بالملاحم والأساطير التي صاحبت اعتلاءة العرش - وأن تلك الأساطير قد وجدت طريقها ممهداً لاختراق سد الصين العظيم، وتستقر في صفحات التاريخ التي أعدها المؤرخ الصيني «جيبو - مارش» فبينما كانت أصول الوراثة عند الهون توجب اعتلاء «مته» للعرش خلفاً لوالدة «تيومان» إلاَّ أن الوالد - لأسباب لايعلمها الابن - قد ورث العرش لابن آخر. وقد أعد خطته بدقة ومهارة فائقة حتي لايتسبب فى عصيان أو ثورة لدرجة أنه قد وضع فى هذه الخطة احتمال قتل ابنه، إلاَّ أن شجاعة ومهارة الأمير كانت تنقذه دائماً من مثل هذه الخطط وقد وصل الأمر بوالدة أن أرسله رهينة لدى عدوه اللدود «يوه - جي» بموجب الاتفاقية الجديدة التي عقدت بينهما.

---

(١) نفس المرجع.

وقد كان الـ «يوه - جي» في نزاع مستمر مع الهون في المناطق التي يقطنونها بالقرب من مناطق «طون هيوانج» في الحدود الغربية للصين. وقام تيومان باختراق واضح لهذه الاتفاقية عقب تسليم الابن كرهينة إلاَّ أن الأمير الشجاع قد استشف الأمر ووجد لنفسه الوسيلة التي جعلته يعود إلى وطنه سالماً.

وقد تعمد الأب إهمال الابن وجعله يعيش فى شبه عزلة وسط ألف فقط من الأتباع، إلاَّ أن «مته» كان ينشئ من في معينه علي طريقته الخاصة وفي كل يوم وهم يتجولون علي ظهور خيولهم كان يأمرهم أن يصوبوا سهامهم حيث يوجه هو قوسه، وكان في البداية يوجه سهامهم إلى الحيوانات المتوحشة كما كان لايتردد في قتل أو اعدام من يصوب سهمه نحو هدف لم يعينه هو شخصياً له.

وقد دفعه الظلم والغدر والاهمال الذي عاش فيه إلي التعامل بالمثل حتي أنه - لكي يعود أتباعه علي النظام والطاعة العمياء وتصويب الهدف إلي حيث يريد هو شخصياً لا إلي حيث يريدون هم - لم يهتز وجدانه عندما أمرهم بتصويب سهامهم إلي حصانه المفضل ومن بعده إلي زوجته المحبوبة. لقد كان يريد الطاعة وعدم الرحمة. وبعد هذا الأعداد المتقن لم يتورع عن قتل أجود جياد والدة، وأصبح يثق ثقة كبيرة في من معه وفي النظام الذى بثه فيهم. ولهذا استغل أول فرصة واتته عندما خرج إلى الصيد مع والده ووجه قوسه نحوه وأطلق سهمه، وفى أقل من لمح البصر كانت سهام كل من في معيته موجهه نحو نفس الهدف. وقتل والده وأصبح «مته» خاقان الهون، ولم يتراجع لحظة واحدة عن قتل أقرب المقربين إليه أو من تسول له نفسه التدخل فيما يجري[1] وحول الكتل المرتحلة المتنقلة إلى جيش منظم مدرب وأضاف إلي ذلك الجيش تكتيكاً متطوراً إلى جانب تكنيك الحرب بحيث لم يعد أي محارب حراً في اطلاق سهمه كيفما وأينما يشاء. بل أينما وكيفما

(١) المرجع السابق ص١٧.

يشاء قائده، وأصبحت وحدات الفرسان تدار من قبل قوادها ، كما كانت تستخدم السهام التي تصدر صفيراً معيناً لتحديد الاتجاه أو الهدف المقصود طبقاً لتكنيك الحرب المدارة (١).

إن الدراسات التركية تعد «مته» Mete هو أول من أرسي مبدأ: «إن الأرض هي أساس بناء الأمة (٢) عند التحدث عن مبادئ القومية وبناء الأمة كما أن صفحات التاريخ تبين أن «مته» هذا بعد أن تمكن من الحاق هزيمة ساحقة بـ «طيونج - هو» نجح أيضاً في القضاء على أقوام «يوه - جي» وأخضع كثيراً من عشائر شمال الصين لنفوذه كـ «تينج - لينج» و «سين - لي» و «كيين - قو» و «ولو - سون» إن من بين ماتحتويه النقوش والمتروكات الصينية صور تبين أن فرسان الهون كانوا يستخدمون إلى جانب القسى والرماح الحراب الطويلة، كما كانوا مهرة في الاتجاه إلى الخلف والقاء سهامهم علي الأعداء عند الانسحاب من أرض المعركة (٣) وقد انعكس ذلك علي الفنون والرسوم التركية حتي عصر العثمانيين.

إن الدراسات التاريخية الحديثة تبين أن عائلته «تي - سين» الصينية قد عانت كثيراً في مواجهة هجمات فرسان الهون المتكررة، وإن هذه المعاناة كانت تدفعهم إلي التفكير في وسيلة لوقف هذا الهجوم المتدفق ونتيجة لهذا التفكير فقد أعادوا تعمير السور الذي كان قد سبق أن أنشأته الأسر الصينية المتطاحنة فيما بينهم، ولكنهم اتحدوا فيما بينهم وأعدوا مشروعاً لسدهم العظيم، الذي ظهر إلي الوجود بعد ذلك بفترة وجيزة وكان طوله ٢٤٥٠ كم وارتفاعه ١١م وعرضه ٧٫٥ متراً إلاّ أن هذا السد العظيم لم يحد من هجمات الهون وأن «مته» بجيشه المنظم وبفرسانه المهرة قد شنوا العديد

(١) نفس المرجع.

(٢) نفس المرجع.

(3) Doğanavcı oğlu, Türklerin Tarihi, ikinci Kitap Takım Yayınevi II baskı, Ist. 1945. S. 5.

من الهجمات علي ذلك السد الكبير[١] وقد اتسعت امبراطورية الهون التي كانت تتكون من أربع وعشرين عشيرة بعد هزيمة «يورجي» حوالى سنة ١٧٧ ق.م حتى وصلت إلي تركستان الصينية غرباً، بل هناك من الحفريات الحديثة التي تفيد أنهم قد وصلوا قازاقستان وقيرغيزسنان، وما زال خبراء الحفريات القيرغيزية يقومون بدراستهم على مدافن الهون التي وجدت في تلك المدافن[٢].

إن الامبراطور الصيني «ويو – تي» « ١٤٠/١٤٧ » ق.م قد سعي سنة ١٣٩ ق.م لايجاد حلفاء ضد الهون، وقد كلف أحد رجاله المقربين بمهمة الاتصال بحاكم الـ «يوه – جي» الذين كانوا قد استقروا في Boktriya أي أفغانستان الحالية ولكن سفيره وقع في أسر الهون وعندما نجح بعد عشر سنين من الهرب لم يوفق أيضاً في تحقيق مهمته لأن الـ «يوه – جي» كانوا قد رحلوا عن أفغانستان ولم يكن يعرف موطنهم الجديد[٣]. إننا نجد أن صراع الهون والصين قد استمر إلي القرن الأول بعد الميلاد وإن كان التصدع قد بدأ يصيب امبراطورية الهون. فقد اتحدت الأسر الصينية ضد الهون، وقد ساعد علي ذلك أيضاً النزاع الذي نشب بين أفراد الأسرة الحاكمة إلاَّ أن المؤرخ «ابرهارد Eberhard[٤] يسجل أنه رغم ضعف امبراطورية الهون وتشتتها فقد نجحت بعض جماعاتهم المتوطنة داخل حدود الصين من تكوين دول خاصة بهم وأن سلالة خان الهون قد استمرت في الصين حتى القرن الخامس بعد الميلاد[٥].

(١) المرجع السابق. ص٧.

(٢) فنون الهون .. مرجع سبق ذكره.

(3) L . Ligiti, Bilin meyen Iç - Asya - I. Ist 1970 s. 50 - 60.

(4) W. Ebarhard olfram Çin Tarihi, Tarih Kurumu Ank. 1947. S. 139 - 164.

(٥) المرجع السابق ص١٤٤.

هذا ومازالت الابحاث التاريخية منذ القرن الثامن عشر تجري لايجاد روابط بين هون أسيا والهون في اوربا وكان رائد هذه الدراسة هو الباحث الفرنسي دجيونيه Deguines الذي درس المصادر والحفريات الصينية وكذا النقوش اللغوية الصينية القديمة وتعقب «لفظ الهون» بينها لكي يدعم نظريته القائلة بهذا الترابط المشار إليه(١). كما قام كثير من الباحثين الغربين بدراسات مستفيضة عن مادة هونْ أو خون أو قون لكي يصلوا إلي رأي قاطع فى هذا المضمار(٢) بل هناك من يربط أتيلا والهون ويرجع كثيراً من الهجرات الكبري التي اجتاحت الغرب ووصلت إلي اوربا والمجر ونهر الطونا ومن ناحية أخري إلى الهند وبحر الخزر وسير داريا إلي هؤلاء القوم، وأنهم سنة ٤٨٤م قد هزموا فيروز الإمبراطور الساسانى هزيمة منكرة. وأنهم نفس القوم الذي اتحد خسرو انوشيروان الساساني مع خاقان الـ «گوك تورك» زيزابول سنة ٥٥٠ ضدهم. وإن الگوك تورك هم الذين قضوا على نفوذ الهون البيض في الهند(٣).

---

(1) Tarihte Türk Devletleri I. Ank. 1987. S. 7 - 21.

(٢) نفس المرجع ص ٢٣ - ٢٧.

(٣) نفس المرجع.

٢) امبراطورية الكوك تورك :
(٥٥٢ - ٧٤٥م) :

رأينا أن نهاية الهون كانت علي أيدي الكوك تورك. فمن هم هؤلاء القوم؟ وكيف ظهروا؟ وأين وُجِدوا على ظهر هذه الأرض؟.

هناك احتمال كبير أن اشتقاق الاسم قد نبع من العبارة التي كان يرددها بلكة قاغان Belge Kagan التركي «مؤسس» نقوش اورخون» والتى كان يقول فيها:

«أنا بلكه التركي الذي خُلِق في السماء مثل اله السماء»[١] فإذا، وضعنا في الاعتبار أن معني التسمية هو أتراك السماء = اتراك اللّه = قوة اللّه. فإن هذا الاحتمال يكون وارداً.

وهناك احتمال آخر أن يكون هذا الاسم كان لأحد عشائر «أبناء اجينيا» الذين أسسوا امبراطورية الهون السابقة والتي رأينا أنها كانت تتكون من أربع وعشرين عشيرة.

وعلي أي حال فإن أول نقش يحمل هذا الاسم هو «نقوش اورخون»[٢] وتوضع المراجع الصينية أنهم كانوا يعيشون في المناطق الغربية من مقاطعة «بينج - ليانج Ping leang الصينية. وأن رئيسهم كان يحمل اسم «اجينيا» أما نقوش اورخون - التي تعد المرجع الأول والقاطع بالنسبة لتاريخهم - فتوضح أنهم ظهروا على مسرح التاريخ في أواخر القرن الخامس الميلادي، وأنهم كانوا يعيشون انذاك في منطقة في شمال الصين، وأنهم اضطروا تحت وطأة هجوم صيني إلي اللجوء إلي الأوار[٣] مؤسسين دولة مستقلة

---

(1) Muharrem Ergin, Orhun Abideleri. Ist. 1970. S . 17.

(٢) نفس المرجع.المقدمة.

(3) ÖGel Baha eddin, Göktürklerden önce ortaasya'da türk Devletleri. S. 68-74.

تحت حماية الأوار هؤلاء وقد سمح لهم الآخرون بالتوطن في منطقة بالغرب من «كين – شان» التون داغ «وكان حاكمهم آنذاك» اولوغ يابغو ulug yapgu الذي ينحدر إلي سلالته «أولاد آجينا» وأنه كان يتحمل هذه الحياة في مشقة جامة ويتحين الفرصة للخلاص منها وبعد وفاة «اولوغ يابغو» تولي مكانه ابنه بومين "Bumin" = تيومان = وأصبح يابغوا Yapgu = مدار = حاكم – أي حاكماً. وقد اتفق مع أخيه «استه مي» Istemi (٠٥٥٠) على ضرورة الإعداد لحرب تحررهم من هذه التبعية، ولكن لم يكن هذا بالأمر الهين أمام «الآوار» أي المغول في ذلك العصر.

وقد فكر «بومين» في الاستفادة من الحرب التي كانت تنشب من حين لآخر بين «الأوار» والعشائر الصينية التي كانت تناصبهم العداء، وفي نفس الوقت يتقرب من إمبراطور الآوار، فما كان منه إلاَّ أن طلب يد ابنة الامبراطور، إلاَّ أن الأخير اعتبر ذلك إهانة ورد علي طلب تومين قائلاً:

«لن أعطى ابنتي التي تنحدر من سلالة الآوار الأصلية إلي رئيس جماعة لا توازينا نسباً ويعيش تحت حمايتي»..

وتزوج «أو – نا – هوائي» O-Na- Hoei امبراطور الآوار إبنة امبراطور الصين سنة ٥٣٣ تدعيماً للصداقة ودرءا لمخاطر القبائل الصينية الأخري.

حروب الگوك تورك الاستقلالية:

لقد بدأت حركات الگوك تورك الاستقلالية ضد الآوار سنة ٥٥١م واستمرت حتى سنة ٥٥٢ وكانت هذه الدولة في نظر الآوار – الذين ظلوا يسودون مسرح التاريخ ١٥٦ سنة – دولة تابعة ولايمكن أن تضاهيهم قوة وعدداً، إلاَّ أن مجريات الأحداث جعلت نهاية الآوار علي أيدي الگوك تورك إذ تمكنوا من هزيمة الجيش الأواري المكون من مائتي ألف مقاتل. وكانت هذه الهزيمة مهمة ليس بالنسبة للمغول وحدهم، بل أيضاً للصينين وللدولايلات التي كانت تابعة للآوار أنذاك. ويموت «او – نا – هوائي» من

آلامة. ويتلقب «بومين» بـ «ايل - قاغان» ويصبح هذا لقباً للگوك تورك من الآن فصاعداً(١).

وبعد أن استقرت الأمور للگوك تورك اتفق كل من «بومين» و «ايسته مي» علي تقسيم الدولة إلي قسمين:

(أ) القسم الشرقي «تولس» ويكون حاكمه «بومين».

(ب) القسم الغربي «طاردوش» ويحكمه «ايسته مي» تابعاً للقاغان الشرقي. وكليهما سيكون مرتبطاً ومتمسكاً بتقاليد «سلالة» أولاد آ - جي - نا. وقد كانت الدولة الشرقية محاطة من الجنوب بالصين والتبت والهند وفي الجنوب الشرقي بالأويغور والغز وفي الشرق بالتتار وفي الشمال بالقيرغيز والمانچو طونغور، أما القاغانية الغربية فقد كان يجاورها القارلوق والتوركش والعجم الذين يحملون أسماء «الصغد» وألالما «ويسكنون» «سمرقند» وبوخارا ومرو وبلخ. وبالرغم من العداء الذي كان يسود بين هاتين الدولتين وبين جيرانيهما إلاَّ أنهما استطاعا أن يحافظا علي استقلالهما واستمرارها لمدة ناهزت السنة الثالثة والتسعين بعد المائة. وقد حاولت بعض الدول المحيطة أن تدعم صداقتها بهذه الدولة التي ظهرت سريعاً وتألق نورها حتى أن امبراطور الصين أرسل إبنته إلي بومين سنة ٥٥٣ كما أن خسرو انو شيروان شاه العجم قد تزوج بابنة «ايسته مي» سنة ٥٦٣م. واتسعت دولة الـ «گوك تورك» اتساعاً كبيراً حتي عبرت من الغرب جبال الأورال ووصلت إلي نهر الفولجا ومن الشرق تخطت شمال كوريا إلى البحر المحيط، وضمت تركستان الغربية، وأصبح «سد الصين» هو الحدود الجنوبية لها. وكان هذا الاتساع السريع يمثل خطراً وتهديداً كبيراً لكل الدول المحيطة، مما جعلها إلى كانت تخطب ودها علنا فقد كانت تعمل ضدها سراً.

وتوالي الأبناء الحكم بعد وفاة أو قتل الآباء في كلتا الدولتين الشرقية والغربية كما كان ينشب الشجار من حين لآخر بين الأبناء وأعمالهم علي الحكم مما كان يضعف من شوكة الدولة كما حدث في عهد «جورقاغان = مو

---

(١) محرم ارغين، المقدمة.

- هو» - الذى يُمثل الامبراطور السادس للگوك تورك» - وقد استمر الصراع بينه وبين ابن أخيه «إشار قاغان سنة ٥٨٧م وعقب قتل «جورقاغان» سنة ٥٨٨م نشب الخلاف والانقسام علي أشدة بين أبناء مؤسس دولة الگوك تورك «بومين وايسته مي» فاستقل أبناء «ايسته مي» باداراتهم للقسم الغربي، ورضي أبناء «بومين» بهذا الوضع مكتفين بإدارة ماتحت أيديهم من المناطق الشرقية.

أدي هذا الانقسام إلي تجديد الأطماع الصينية وسعيها إلي استرداد المناطق التي فقدتها في السنوات السابقة. وقد ساعدها علي ذلك أيضاً ما كانت تتمتع به من تأثير إجتماعي وثقافي بين الأتراك وماكان لها من عيون ونفوذ في بلاط الـ «قاغان» بل وفي فراشه أيضاً عن طريق زيجاتهم الصينيات وماكانوا يسعون إليه من تغييرات في السمات والصفات الفسيولوچية للأتراك[1].

وقد أثمر هذا النفوذ وأينع في غضون خمس وعشرين أو ثلاثين سنة علي الأكثر، فقد أصبح الأمراء الذين ولدوا من زيجات صينية في مراكز القيادة والنفوذ. ساعدهم في ذلك من كان قد استقر من الأسر الصينية بين الأتراك.

وإن كان هذا لا يعني علي الاطلاق أنه لم تكن هناك مقاومة تركية لهذا النفوذ، بل إن المراجع الصينية ذاتها تفيد مايؤيد وجهة النظر بوجود هذه المقاومة؛ فمثلاً عندما طلب «شي قاغان» المساعدة من امبراطور الصين حتي يتمكن من إعادة توحيد قسمي الشرق والغرب أرسل إليه «قا - ادن - صو» امبراطور الصين خطاباً يعده بالمساعدة إذا ماحقق الشروط التالية:

١) علي الگوك تورك أن يحذوا حذو الصين في جميع المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية، وسيطبق القانون الصيني بدلاً من القانون التركي.

---

(1) Bilinmeyen iç Asya. 2 . S . 10 - 20.

٢) إن اللغة الصينية ستكون اللغة الرسمية والخاصة أيضاً بين الگوك تورك.
٣) سيحلق الگوك تورك شعورهم كالصينيين.
٤) إن الگوك تورك لن يخيطون أو يعتمدون مقدمات ملابسهم من اليمين إلي الشمال بل العكس من الشمال إلي اليمين كالصينيين.
٥) إن مسميات المدن والقري والأشياء بل والحيوانات في بلاد الكوك تورك ستكون صينية وليست تركية.
٦) إن الگوك تورك سيتعلمون الصينية لكي يستطيعون القراءة والكتابة بالصينية.

وأنهى الامبراطور الصيني خطابة قائلاً: «لو تعهدت بتنفيذ الشروط السابقة فإنني سأكون مستعداً إلي حوار عقد الصلح مع مساعدتكم بالسلاح والعتاد والملابس والرجال لتمكينكم من اخضاع خاقانية الگوك تورك القريبة لنفوذ وسيادة خاقانية الگوك تورك الشرقية «ولكن» شي قاغان» خاقان الكوك - تورك الشرقية أجاب علي خطاب الامبراطور الصيني بما يلي: «إن ولدي الآن في قصركم لتقديم رسالتي هذه إليكم، أنني أستطيع أن أعدكم بتقديم الجزية من سلالات خيولي الأصيلة، وأستطيع أن أعدكم بنذر حياتي علي طاعتكم، ولكن فيما يختص بحل مقدمات ملابسنا، وقص شعورنا، وتغيير لغتنا ومسمياتنا والخضوع لقرابينكم فإن أحداً حتي اليوم لم يقدر عليها أو علي واحدة منها لأنها متأصلة في عاداتنا وتقاليدنا وتتبع من عصور بعيدة جداً كما وأن جميع الگوك تورك يحملون قلباً واحداً»(١).

وعلي هذا فقد تجددت الحروب الصينية - الگوك - توركيه. وبينما الكوك توك علي وشك الاستفادة من ظروف الضعف التي طرأت علي الصين، إلاّ أن «شي قاغان» تواتيه المنية (٦١٩م) فيعتلي العرش أخيه «چولوق قاغان».

(1) Doğan Avci Oğlu, Türklerin Tarihi, ikinci Kitap Takım Yayınevi, ikinci basım, Ist 1975, S, 55.

وبدأ چولوق قاغان حكمه بالتقرب الواضح للصين والصينيين بزواجه من أميرة صينية إلاَّ أن الزوجة الصينية بتكليف من ساداتها في الصين قتلت زوجها بالسم بعد سنة ونصف السنة فقط من الحكم (٦٢١م)، ولم تتورع عن الاقدام علي الزواج من أخيه «كيلي قاغان» الذى لقبه الگوك تورك بـ «القاغان الأسود» لفعلته هذه. ولكن لم يكن الأخ بأقل من أخيه في التقرب من الصين. مما جعل البلاد في شبه خضوع كامل للصين لدرجة إحلال العلم الصيني محل العلم الگوك توركي[1]. واستمرت هذه الفترة مايقرب من خمسين سنة تقسمت بلاد الكوك تورك خلالها إلي ست ولايات عين علي كل منها قائداً صينيا إمعانا فى استمرار عملية «تعيين» البلاد أي تحويلها إلي بلاد صينية.

ولكن في نهاية هذه المدة فيض الله من رجلات الترك من حاول رفع راية العصيان ضد النفوذ الصيني وكان ذلك ه الأمير «نكين» الذي تولي الحكم سنة ٦٨٠م. ونجح في تجميع من تشرد من بني نسله وبدأ يناهرهم العاء ويشن عليهم الجملة تلو الأخري ويخلص بعض المناطق من نفوذهم حتي لقبه القوم بـ «ايل ته ريش»[2].

وتشتت دولة الآوار. فهاجر البعض إلي الصين وتوطن البعض الآخر بالقرب من جبال القفقاس، ولجأ البعض إلي دولة بيزنطة وعاشوا في استانبول «كجنود مرتزقة» الإمبراطورية روما الشرقية. أما البقية الباقية في الامبراطورية المتهاوية فقد خضع لل...وك تورك. وهكذا ظهرت علي مسرح التاريخ سنة ٥٥٢ أول دولة تركية تحمل إسماً تركيا، وعلماً أزرق اللون «وشارتها» «رأس الذئب»[3].

---

(1) Ali Kemal Meram. Göktürk Im. S. 18 - 20.

(2) Stanslas, Julien, Documants Sur les Tou - line (Turc) Paris 1889 . P . 555.

(٣) هون صنعتي، مرجع سبق ذكره، ص١٧.

عصر ايل ته ريش قوتلوق قاغان (٦٨٠-٦٩٣)

كان أول عمل شغل فكر ايل ته ريش هو إعادة توحيد البلاد، وقد نجح بالفعل فى إخضاع الخاقانية الغربية لحكم الخاقانية الشرقية التي يتولاها هو شخصياً، وعين عليها «أجينة تورجه قاغان» وعين لمساعدته فى الشئون العسكرية أمير يلقب بـ «شاد» وحكيماً بلقب بـ «ياپغو» وأصر علي أن يعود التقليد التركي الذي يحتم أن يتولي «القاغان = الخاقان» أي السلطان قيادة الجيش أثناء الحرب ويترك تسيير الأمور إلى «الشاد» والياپغو أثناء غيابه. وقد أمن هذا النظام تغلب الگوك تورك علي أعدائهم حتي من العشائر= الأقوام التركية الأخري كالـ «دوقوزاوغوز» و «القيرغيز» والـ «اون اويغور» وغيرهم من الأقوام التركية التي كانت تعيش في شبه اتحاد فيدرالى مع الگوك تورك خلال فترات القوة «٥٥٢ - ٦٣٠» وانفصلوا عنهم خلال فترة الخضوع للصين.

وكما تذكر نقوش اورخون، فقد أوفد «ايل ته ريش قاغان» سبع وأربعين حملة علي هذه الأقوام التي ناصبته العداء، كان من نتيجتها إعادة توحيد أو اخضاع هذه الأقوام لسيطرة الگوك تورك، وساد نفوذهم علي مساحة تزيد عن ١٨ مليون كم[1]. واستمرت ثلاثة عشر سنة هي مدة حكم «ايل ته ريش قاغان الذي مات، سنة ٦٩٣م.

فترة حكم قاباغان قاغان ٧١٦/٦٩٣م.

تولي «قاباغان قاغان» أخو «ايل ته ريش» قاغان الحكم عقب وفاة أخاه سنة ٦٩٣ فكان علي قاباغان أن يتم مابدأه أخوه من تحرير للسيادة التركية وكان يتحين الفرصة لتحقيق ذلك. وقد واتته عندما أعلنت العشائر المغولية خيطاي = «قيطان» الحرب ضد الصين. فما كان من قاباغان إلاَّ أن أرسل سراً إلي امبراطور الصين يعده بالمساعدة ضد المغول إذ هو وعد

(1) Muharrem Ergin, S II.

بتحرير بقية العشائر التركية. وقد وافق عن رضي وسرور امبراطور الصين علي هذا العرض. وتم الاتفاق الذي علي إثره سير قاباغان جيوشه ضد الخطاي وألحق بهم هزيمة أخضعتهم لنفوذ الصين، ودعمت الصداقة الصينية الگوك توركية ظاهرياً.

ووفي امبراطور الصين بوعده، ورفع الوصاية الصينية عن العشائر والأقوام التركية التي كانت خاضعة لنفوذه، بل لقد أرسل إلي «قاباغان قاغان» يخطب عروساً من أميرات الگوك تورك «قونجوي» إلى إبن أخيه. إلاّ أن رفض الخاقان التركي لهذه الزيجة وتعليلها بعدم تكافؤ الأسرتين - فقد كان يري في نسبة علواً لايضاهية نسب امبراطور الصين - جعل الامبراطور يكتم غيظه كمدا، ويتحين الفرصة للرد على هذه الإهانة.

جمدت الصين علاقاتها السياسية والاقتصادية بالگوك تورك. وشمل الصمت والريبة العلاقة بين البلدين لفترة بددها الهجوم المفاجئ للصين علي بلاد الگوك تورك، إلاّ أن جو الصداقة عاد وشمل المنطقة لمدة ثمان سنوات من حكم «قاباغان».

خلال هذه السنوات الثمان كانت الصين تعد سراً لحرب ضروس تقضي بها على الگوك تورك تماماً إلاّ أن الرياح تأتي بما لاتشتهي السفن، فقد كانت نتيجة الحرب لصالح الگوك تورك، وفرضت شروط الصلح علي الصين بعد أن دخلت عاصمتها الجيوش الغازية. وبناءا علي هذا الصلح؛ يتم السلام، وتنسحب جيوش الگوك تورك من العاصمة، وتعود الصداقة والسلام بين العائلتين وتقدم الصين للگوك تورك ماصُرِف خلال الحرب، علاوة علي ذلك تُقدم الصين سنوياً خمسين ألف حمل من الملبوسات والمأكولات إلي الگوك تورك مضافاً إليها مائة ألف قطعة ذهبية (١).

(1) Öğel, Bahaeddin, Göktürk Imparatorluğu, , 1974, S. 2 - 20.

إلاَّ أن الصين سعت إلى إفساد المجتمع التركى من الداخل مستفيدة من معاهدة الصلح هذه. فأشاعت الفساد بين الأمراء، ودست الفتنة بين العشائر والأقوام ونشرت دعاياتها بين طبقات الشعب ضد الخاقان العجوز، وقد ساعدها ومهد لها في ذلك ظهور مناوئ خطير للگوك تورك علي مسرح الأحداث التاريخية آنذاك ذلكم هم العرب بعد ظهور الدعوة الإسلامية وبدأ نشرها في ربوع آسيا. لقد صادفت هذه الفترة بدء انتشار الإسلام مما تسبب فى صدام بين بني أمية والگوك تورك «مما جعلهم في موقف الدفاع ضد الهجمات العربية، وقد انهكت هذه الهجمات قواهم، وكانت أهمها هي تلك التي حدثت سنة ٧٠٧ وسنة ٧١١م وتسببت فيما يمكن أن نسمية تجاوزاً بالحرب الأهلية بين الگوك تورك. وقد كان «تورك بلگه تكين» وأخيه «گوك تكين» يساعدان عمهما في هذه الحروب. وكان مقتل «قاباغان قاغان» في ساحة الوغي يوم ٢٦ يوليو سنة ٧١٦م علي يد جاسوس صيني بعد مدة حكم بلغت اثنتا وعشرين سنة عن إحدي وخمسين سنة مما فتح الطريق أمام الصراعات العائلية للوصول إلي العرش.

عصر تورك بلگه قاغان (٧١٦ - ٧٣٤م)

ترك قاباغان بعد مقتله ثلاثة أبناء كان أكبرهم «بوغو» أشد المطالبين بالعرش إلاَّ أن «تورك بلگه قاغان» الذي كان قد ترك العرش لعمه المقتول رأي أن من حقه العرش الان، خاصة وأن رجالات الدولة وقواد الجيش الذين عرفوه في ساحة القتال كانوا يؤيدونه في هذا المطلب. كما كان يدعمه في ذلك قيامه بإدارة المنطقة الغربية من البلاد باسم عمه لمدة تسع عشرة سنة[1]. وكان تورك بلگه خان هذا قائداً لجيش الگوك تورك أثناء المعارك التي دارت بينهم وبين العرب خلال سنتي ٧٠٧، ٧١١م ونجح إلي حد مافي وقف المد الإسلامي مما زاد من كفاءته في الصراع علي العرش، كما كان له دور بارز في حروب البلاد مع الصين وإيران وفي إخماد الحرب الأهلية.

---

(1) Ali Kemal Meram, Göktürk Imparatorluğu, Milliyet Yayınları, illk basım 1974, S. 2 - 20.

إلا أنه لأسباب مازالت مجهولة استطاع «بوغو» أن يصل إلي العرش، فاندلعت الحرب الأهلية من جديد وزحف «گوك تكين» علي العاصمة «اوتوگان» وتمكن من قتل «بوغو» وتولي «تورك بلگه» العرش وأصبح قاغان أي خاناً سنة ٧١٦م.

كانت المهمة العاجلة للحاكم الجديد هو إعادة الأمن إلي البلاد وتخليصها من الحروب الأهلية، وكان له ما أراد، ثم أعقب ذلك بإعادة تنظيم الجيش حتي يكون قادراً علي مواجهة هجمات الصين والـ «طقوزاوغوز»، فعين أخاه «گوك تكين» قائداً عاماً للجيش، وحماه مستشاراً للبلاد.

ولما رأي أن الـ «طقوزاغوز» لم يكفوا عن المناوءة اضطر إلي أن يسير هو وأخاه إليهم وأنزل بهم خسارة فادحة اضطرتهم إلى توقيع صلح يفرض عليهم الخضوع الكامل لـ «تورك بلگه» خان سنة ٧١٩م ويقدموا بمقتضاه قوافل الجزية كل عام[١].

إلاَّ أن الصين لم تكن لترضي عن ذلك، فلم تكف عن إشاعة الفتن وتأليب الدويلات التركية الأخري ضد الگوك تورك، مما اضطر «تورك بلگه قاغان» إلى شن حرب جديدة ضد القارلوق سنة ٧٢٠م أخضعهم على أثرها لنفوذه التام. ولكنه كان يدرك أن هذه القلاقل لن تنتهى مالم تضع الصين حداً لتدخلاتها، ولن تكف الصين عن هذا التدخل إلاَّ بعد حرب، فأستشار أخاه ورجالات الدولة فأشاروا جميعاً بإعداد جيش لوقف التدخل الصيني، وقامت الحرب بين الدولتين. ورغم الخسارة الفادحة إلاَّ أنها انتهت بالصلح لصالح الگوك تورك سنة ٧٢٠م.

ساد البلاد شئ من الهدوء حتي سنة ٧٣١م ولم يتخلل هذه المدة «١١٠ سنة» سوي حربين داخليتين لم تتركا أثراً واضحاً في مجريات الأحداث أما سنة ٧٣١م فقد شهدت ميلاد حرب ضروس من جديد. فقد أعادت دولة الـ «طقوزاغوز» بناء جيشها، ودون سابق انذار شنت هجمات مفاجئة علي عاصمة الگوك تورك وأعملوا السهام والمزارق في الأهالي، وأوشك الگوك تورك بقيادة «گوك تكين» علي صد الهجمات وردها إلي بلاد

(١) المرجع السابق.

الطقوز اوغوز لولا استشهاد القائد أثناء الحرب في ٢٧ فبراير سنة ٧٣١م مما جعلها تنتهي لصالح الطقوز اوغوز. وبالرغم من أن هذه الحرب لم تكن الفاصلة إلاَّ أنها؛ ومع موت القائد العام قد دفعت بالبلاد إلي طريق النهاية. عاشت البلاد في هدوء وسكينة لمدة ثلاث سنوات أخري لم يتخللها أي قلاقل أو حروب، حتى كان مقتل الخاقان «تورك بلگه قاغان» علي يد أحد المكلفين بحراسته في ٢٥ نوفمبر سنة ٧٣٤م. فلم تستطع الامبراطورية أن تعيش بعده سوي ثمان أو عشر سنوات كانت مخضبة كلها بالدماء.

تولي «بلكه قوتلوق» العرش بعد مقتل والده، ولكنه كان صغير السن قليل الخبرة مما أفسح المجال أمام والدته للتدخل في شئون البلاد وإدارة دفة الحكم.

وتصادف أن قُتل أيضاً حاكم بلاد الگوك تورك الغربية مما فتح المجال أمام فوضي شملت البلاد بقسميها الشرقي والغربي، حتي وصلت هجمات المناوئين إلي العاصمة «اوتوگن». ونجح الموالون للصين في أن يجعلوا الحاكم الشاب – دون علم والدته – يوقع طلباً للمساعدة وحق اللجوء إلى الصين.

وخلال فترة وجيزة انتشر هذا الخبر بين الشعب، واعتبره الجميع إهانة قومية لابد من الرد عليها، فرفع قواد الجيش رأية العصيان ضد القاغان وأثناء حركات العصيان هذه قتل «بلگه قوتلوق قاغان، ونشب الصراع من جديد بين سلالة القاغان؛ كل يريد العرش لنفسه. وخلال هذه الفرصة لم تتأخر الصين لحظة واحدة عن اغتنامها لإزالة إمبراطورية «الگوك تورك» تماماً من الوجود. فدعمت الأقوام التركية الي كانت تعيش خاضعة لها وداخل حدودها مثل الـ «باسيل» والـ «قارلوق» وعشائر الـ «اون أويغور».

وكان الـ «اون اويغور» أقوي هؤلاء الأقوام جميعاً، فقد كان بإمكانهم اعداد جيش قوامه ٢٠٠ ألف مقاتل من تعدادهم البالغ أربعمائة ألف نسمة. ولم يطل الوقت طويلاً حتي شهد المسرح التاريخي مبلاد دولة الأويغور.

٣) دولة الأويغور

الوضع التاريخي لمجتمع الأويغور:

لم ينجح الأيغور في تكوين دولة مستقلة بهم منذ ماقبل التاريخ فقد عاشوا منذ مايقرب من ألفي سنة تحت سيطرة الهون والصين والآوار «المغول» والگوك تورك ثم الصين فالقيرغيز والقراخيطاي «مغول» ثم الصين من جديد حتى يومنا هذا(١).

إن الأويغور الذين لم تستقل هويتهم القومية قط، لم يؤمنوا بديانة الترك «گوك ديني» ذو الاله الواحد بل اعتنقوا المعتقدات المغولية البدائية. ثم ارتبطوا فيما بعد بديانة إيران المانية «Manchnizm» ثم البوذية من بعدها. ولما وصلت المسيحية إلي تلك الديار اعتنقوا المذهب الناسطوري، ثم - قبلوا الديانة الإسلامية وظلوا عليها.

وإلي جانب هذا التبديل والتغيير من دين لآخر، فقد نتج عن اختلاطهم الجنسي بالمغول والصينيين جنساً خليطاً بين السمات الصينية والمغولية.

وعلي الرغم من أن الاويغور ينتمون أصلاً إلي الأتراك إلاَّ أن الصفة التي ميزتهم كمجتمع هي بعدهم عن السمات أو الصفات التركية في التفكير، والاعتقاد والعادات والتقاليد وانضمامهم إلي العشائر والأقوام التركية الأخري التي ناصبت الگوك تورك العداء كالطقوز اوغوز والقيرغيز والقارلوق والباسميك. وكذلك التوركش الذين اتضحت هويتهم القومية بعض الشئ أثناء المناوشات العربية التركية خلال الفتح الإسلامي لتلك البقاع.

لقد ظهر الأويغور علي مسرح التاريخ في بادئ الأمر كإمارة متحدة تدور في فلك الصين، وكانوا يحملون اسم «جيوش» التي تعني «مهاجري الشمال الحمر» وقد انسحبوا إلي مناطق الاستبس في القرن الثالث قبل الميلاد، وعرفوا آنذاك بالـ «چيليس».

---

(1) Candarlıoğlu, Gülcin, Uygur Hakanliği (744 - 840) Ank. 1987. S. 223 - 233.

أما في عهد عائلة «واي Wei الصينية التي حكمت الصين (٢٢٧ - ٢٦٤م) فقد كانوا يعرفون بـ «قاو - جه» وعند انضمامهم إلي امبراطوية الهون فقد كانوا يتكونون من خمس عشرة قبيلة متحدة عرفت في المصاد الصينية باسم «ايو - كير» = «ايو - غير».

وعندما نجح الگوك تورك في القضاء علي دولة الآوار وأزالوها من الوجود التاريخي كامبراطورية، خضع الاويغور - مع غيرهم من المجتمعات التركية - إلي سادة الگوك تورك وسيطرتهم (٥٤٥ - ٥٥٢م) ولكن الكثرة العددية لإمارة الأويغور المتحدة كانت تقلق امبراطورية الگوك ترك وتجعلها تتوقع أي شئ من هؤلاء القوم الذين يبذلون كل يوم من دياناتهم وهوياتهم القومية ويجعلون التهجين هو السمة المميزة لعرفهم.

ولقد فكر الاويغور في رفع راية العصيان في أول فرصة سنحت لهم إلا أن «شي قاغان» استغل هذه الفرصة وسير جيوشه علي بلادهم سنة ٦١٥م فاستثار الأويغور حمية القبائل الأخري لرفع راية العصيان أملا فى الحصول علي السيادة والاستقلال، إلاَّ أن قاغان الكوك تورك «أتبع سياسة القمع الفورية وقتل العديد من رجالات «سيه - ين » و «طو - يو» الذين يشتركون في اتحاد إمارة الاويغور المتحدة.

ولكن هذا الحدث شحذ من همم هذه العشائر وجعلها تصر علي استمرار الحرب ضد الگوك تورك، ولقد نجحوا - بعد حرب استمرت عدة شهور - في إعلان استقلالهم عن الگوك تورك سنة ٦١٦م. وإن كانت نهاية الحرب بهذا الشكل قد هزت كيان الگوك تورك، فإنها في نفس الوقت قد أسمعت أواسط آسيا أنباء الايغور لأول مرة في ذلك العصر. وقد حاول «صدقون شيكه» حاكم الأويغور انذاك من تشكيل دولة علي ضفاف نهر «سلانگه» وعقب وفاته تولي الحكم بعده «يو - صا» الذي أظهر تفوقاً ومقدرة كبيرة أثناء القتال (٦٢٩م)(١).

---

(١) المرجع السابق.

وكانت والدة ملك الاويغور الجديد «يو – صا» سيدة فاضلة نالت شهرة كبيرة بعلمها وخبرتها في إدارة شئون الملك، ولم تبخل علي ولدها بل كانت له نعم المساعد والمعين.

وعلي الرغم من أن الاويغور قد كسبوا استقلالهم عن الإدارة الگوك توركية إلاَّ أنهم كانوا يسيرون في فلك امبراطورية الصين؛ يقيمون معها علاقات وطيدة في شتي المجالات، كما كانت الصين تضع كل ثقلها وتستخدم كل قوتها العسكرية ضد أعداء الأويغور، وقد كانوا هم أيضاً – أي الأويغور – يعتبرون البعد عن الگوك تورك والسير في أفلاك الصين شرفا يسعون إليه ويحرصون عليه، بل جعلوا سياسة السعي إلي أزالة دولة الگوك تورك التي ينتهجها الصينيون مبدأ سياسياً يسعون هم أيضاً إلي تحقيقه.

وطوال فترة الصراع التي امتدت إلي خمسين عاماً (٦٣٠ – ٦٨٠م) بين الصين والگوك تورك والتي كانت نهايتها لصالح الصين كان للاويغور دوراً كبيراً فى هذا الصراع، كما كانوا كغيرهم من الأقوام حريصين علي صداقة الصين أكثر من حرصهم علي علاقتهم بامبراطوية الگوك تورك المتهاوية. ولم تتأخر الصين عن تقديم العون للاويغور ليحلوا محل الگوك تورك فما كان منها إلا أن قامت بتعبيد الطريق المؤدي إلي بلاد الاويغور وزودته بالكثير من النزل « كروان سراي» كنوع من اظهار حسن النوايا، كما أنشأت العديد من (مراكز البريد) داخل البلاد لتدعيم الروابط بين البلدين.

إن الأويغور الذين يتابعون هجماتهم علي الگوك تورك بتأييد من الصين قد نجحوا في تشتيتهم، وأخضاع الأقوام التركية الأخري لنفوذهم. وكتقليد لدولة الكوك تورك المنهارة فقد بدء حكامهم بتلقبون بالـ « قاغان» وأقروا هذا اللقب بالقانون حتي وإن كان اسم هذا القاغان اسماً صينياً «طورس – طو» الذي حكم البلاد فيما بين (٦٤٠/٦٥٢م).

وعقب مقتل هذا القاغان سنة ٦٥٢م فقد عين مكانه ابنه (بويون = Boyun) تنفيذاً لأوامر امبراطور الصين ورغبته. وإن كان «بويون» هذا قد حكم البلاد لمدة ثمان سنوات، فقد أعقبه في الحكم «بيلير قاغان» Bilir Kagan.

ثم «طوق – قايت – س» «Tok - Kayit- Si» من (٦٦٠ – ٦٨٠م) خلال هذه الفترة كان الگوك تورك تحت قيادة «قوتلوق تكين (Kutluk Tegin) يعيدون تنظيم أنفسهم استعداداً لحرب تعيد إليهم الحرية وتعيديهم إلى مسرح التاريخ من جديد وبالفعل بدأوا في شن هجماتهم من جديد في أواخر أيام «طوق – قايت – س» علي كل من الأويغور والصين في وقت واحد، ونجح الگوك تورك في إنزال هزيمة بكلا الجيشين، واستمرت هذه الهجمات حتي اضطر «بوغداي حاكم الأويغور – بعد موت» طوق – قايت – س – إلي اللجوء إلى بلاد الصين مع رجاله وعشيرته.

المصادر والمراجع

1 - Nejat Diyarbekir, Hun Sanatı, birinci basılış, Eğittim Basım evi, Ist. 1972. (s. g).

2 - Doğan Avcı Oğlu, Türklerin Tarihi, ikinci Kitap, Takım Yayın evi 2 baskı, Ist. 1975.

3 - L.Ligeti, Bilinmeyen iç - Asya, Macarca'dan Çeviren Sadrettin Karatay, Birinci basılış. Devlet Kitapları, Milli Eğittim Basımevi, Ist. 1970 [ikicilt].

4 - W. Ebarhard Olfram, Çin Tarihi, T. Tarih Kurumu. Ank. 1947.

5 - Tarihte Türk Devletleri, Ank. Uni. Rektörluğu Yayinlari: No 98. iki cilt. Ank. 1987.

6 - Muharrem Ergin, Orhun Abideleri, Ist. 1970.

7 - Oğel Bahaeddin, Göktürlerden Önce Orta Asya'da Türk devletleri. Ank 1984.

8 - Oğel Bahaeddin, Göktürk Imparatorluğu, Ank. 1974.

9 - Ali Kemal Meram, Göktürk Imparatorluğu, Milliyet Yayinevi, ilk basim 1974.

10 - Candarlı Oglu, Gülcin, Uygur Hakanliği (1744 - 840) Ank. 1987.

11) Stanslas, Julien, Documants Sur Les Tou - Line (Turc) Paris 1889.

اولوغ بك



ULUĞ BEY
(1394–1449)

اولوغ بك(*).

هو «أولغ بك بن محمد بن شاه رخ بن تيمورلنك». أحد فلكي القرن (٩هـ = ١٥م).

وُلد سنة (٧٩٦ هـ = ١٣٩٣م) في مدينة «سلطانية» من بلاد ماوراء النهر.

ونشأ في بيت إمارة وسلطان؛ فقد كان أبوه حاكماً لبلاد كثيرة ومقاطعات واسعة، ضمت بلاد ما وراء النهر والأقاليم الشمالية في «الهندستان»، واتخذ من «هراة» مركزاً له، حتى منتصف القرن (٩هـ = ١٤م).

وأما جده فهو القائد المعروف «تيمورلنك»، الذي كان أميراً على إقليم «كِشَ» وكون مملكة عظيمة سنة (٧٧٢هـ = ١٣٧٠م) بسمرقند، و «بلاد فيجق»، و «خوارزم»، و «خراسان»، و «أذربيجان»، و «جرجستان».

وقد ظهرت على «أولغ بك» علامات النجابة والذكاء، فولاه أبوه إمارة «تركستان» وهو في سن العشرين، فجعل «سمرقند» مركزاً لإمارته، وظلت كذلك نحو (٣٩) سنة، ثم تقلد حكم البلاد بعد وفاة أبيه سنة (٨٥٠هـ = ١٤٤٦م) وكانت عاصمة حكمه «هراة».

وقد برع «أولغ بك» في فنون كثيرة، كالفلك والتنجيم والرياضيات وغيرها، واستطاع القيام بأعمال جليلة في مجالات تلك الفنون؛ فأنشأ مدرسة عالية في «سمرقند»، عهد بإدارتها إلى «قاضي زاده رومي».

وعرف «أولغ بك» بإسهاماته في مجال الفلك؛ حيث بنى مرصداً في «دمشق» (وقيل في «سمرقند» سنة ٨٢٣هـ = ١٤٢٠م) غاية في الإتقان والإبداع، وزودة بجميع الآلات والأدوات المعروفة في زمانه، حتى وصف بأنه إحدى العجائب، كما جمع العلماء سنة (٨٤١هـ = ١٤٣٧م) وعملوا أزياجاً (جداول فلكية) لأغراض الرصد.

(*) نشرت هذه المادة في دائرة معارف سفير للمعارف الإسلامية العددان ٢٩ - ٣٠.

وأخرج من هذا المرصد زيجه المسمى «زيج كور كانى» أو «زيج جديد سلطانى»، الذى ظل معمولاً به فى الشرق والغرب لبضعة قرون.

وقد أشاد العلماء العرب، وغيرهم بجهوده؛ فأثنى عليه «حاجى خليفة» فى كتابه: «كشف الظنون»، وقال عنه المستشرق «سيديو»: «إن أعمال أولغ بك الفلكية كانت تتمة ضرورية للأعمال الفلكية المأثورة عن العرب».

وقد برع «أولغ بك» فى علوم الرياضيات، ولا سيما الهندسة وحساب المثلثات، وساعدت الجداول التى أنشأها في جيوب الزوايا وظلالها علي تقدم علم الفلك.

وبالإضافة إلى إسهاماته الفلكية، فقد كان معمارياً ذا ذوق فنى، دفعه إلى العناية بالبناء؛ فشيد: الخانقاه (وهى بيت ينزل فيه المتصوفة) التى فيها أعلى قبة فى العالم آنذاك، و «مسجد أولغ بك» المسمى بالمسجد المقطَّع، وسمى بذلك الاسم؛ لأنه مزخرف من الداخل بالخشب المقطَّع اللون على النمط الصينى؛ كما شيد «مسجد شاه زنده»، والقصر ذا الأربعين عموداً المعقودة بأبراج أربعة شاهقة، والمزين بصف من عمد المرمر، وابتنى قاعة العرش أو «الكرش خانه»، وشيد «چينى خانه»، ونقش حوائطه بالصور أحد الفنانين الصينيين البارعين الذين أعجب بهم «أولغ بك».

وكان «أولغ بك» شغوفاً بالشعر، محباً للشعراء؛ فقد اتخذ أحدهم شاعراً له، كما عنى بالتاريخ وألف كتاباً فى تاريخ أبناء «جنكيز خان» الأربعة، بعنوان: «أوغلوس أربع جنكيزى» والظاهر أنه قد ضاع، وكما قال «لوبوفات»: «لو بقى لكان جليل القيمة».

فضلاً عن ذلك كله، فقد كان «أولغ بك» فقيها دينيًا، أكبَّ على دراسة القران الكريم وحفظه، وجوّده بالقراءات السبع.

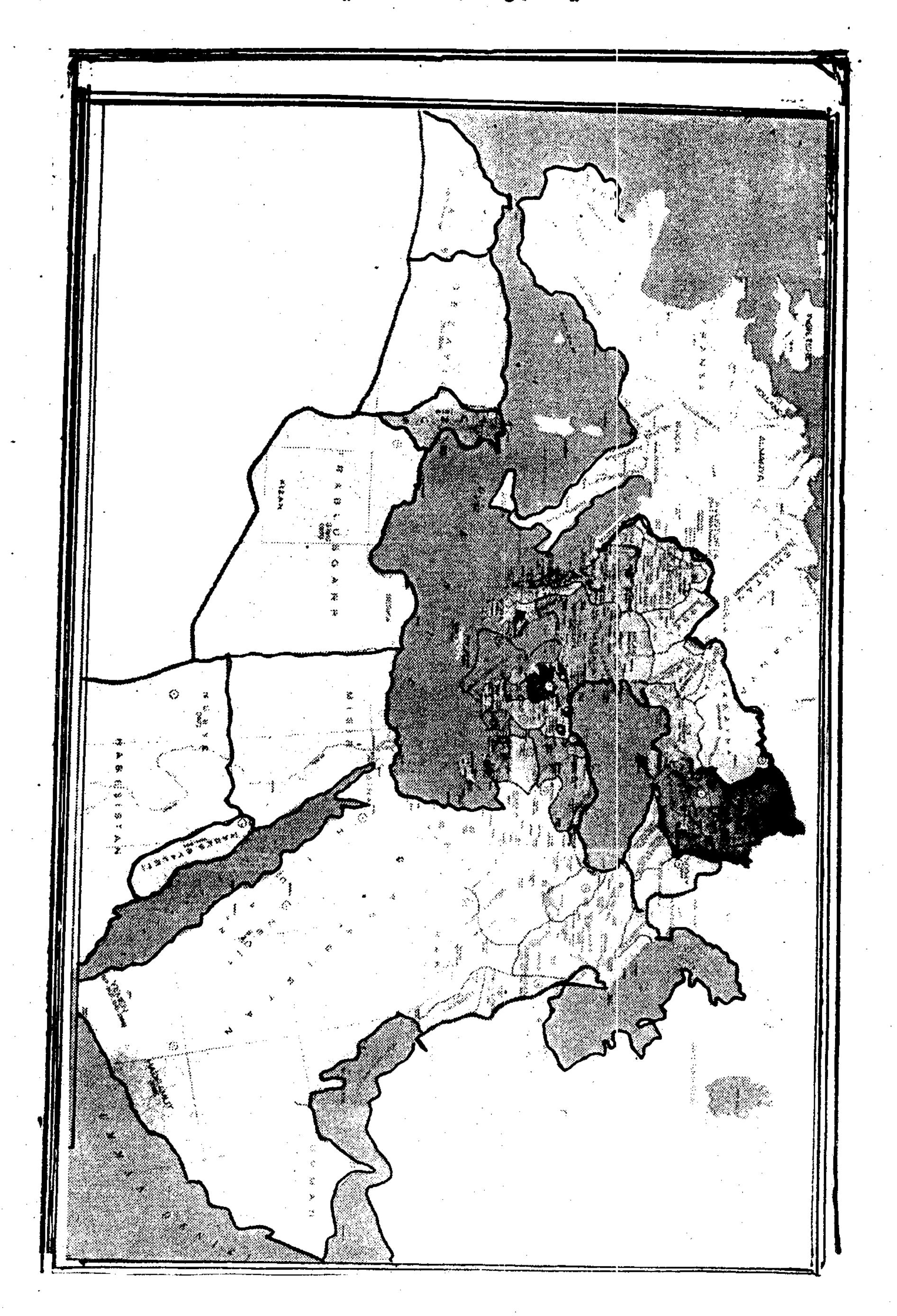
وقد تحققت أمنية جده «تيمورلنك»؛ حيث أصبحت «سمرقند» مركزاً للحضارة الإسلامية فى عهد «أولغ بك»، تجمع الكثيرين من علماء الفلك والرياضيات والأدب، أمثال: «جمشيد»، و «قاضى زاده رومى»، والشاعر «عصمت البخارى»، و «طاهر الأبيوردى»، و «رستم الخوريانى»، وغيرهم.

وتوفي «أولغ بك» سنة (٨٥٣هـ = ١٤٤٩م) بعد ما ثار عليه ابنه «عبداللطيف»، الذي استولي على «بلخ»، وهزم أباه عند «شاهر خيه» وسلّمه لعبد فقتله، بعد أن حكم «أولغ بك» عامين وثلاثة أشهر.

أهم مراجع المدخل:

* قدرى طوقان - تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك - دار الشروق - بيروت - ١٩٥٧م.
* سيديو - خلاصة تاريخ العرب - ترجمة: على مبارك - مطبعة محمد أفندى مصطفى - القاهرة - ١٣٠٩هـ.
* حاجي خليفة - كشف الظنون - دار الفكر - بيروت - لبنان - ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م.
* فايجرت وتسمزمان - الموسوعة الفلكية - ترجمة: عبدالقوى عياد - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٩٠م.

ثانيا: حول الدولة العثمانية



اورخان بن عثمان الغازى

١٢٨١ - ١٣٥٩م



أورخان بن عثمان الغازى(*).

هو «أورخان بن عثمان الغازى» ثانى أبناء الأمير «عثمان»، مؤسس الدولة العثمانية، وثانى سلاطين آل عثمان.

وُلد في (١ من المحرم ٦٨٧هـ = ٦ من فبراير ١٢٨٨م)، وكان أبوه «عثمان» حريصاً على إعداده لتولى المسئولية ومهام الحكم؛ فكان كثيراً ما يعهد إليه بقيادة الجيوش التى يرسلها لفتح بلاد الروم، كما حدث فى سنة (٧١٧هـ = ١٣١٧م) عندما أرسله لحصار مدينة «بورصة» (مدينة فى آسيا الصغرى)، فهاجم «أورخان» القلاع المحيطة بها، وظل محاصراً لها قرابة عشر سنوات، ولما تأكد حاكمها أنها أصبحت فى قبضة «أورخان» سلَّمها إليه، فدخلها دون قتال سنة (٧٢٦هـ ١٣٢٥م)، ولم يتعرض لأهلها بسوء؛ مما جعل حاكمها يعلن إسلامه، فمنحه «أورخان» لقب «بك».

ولم يكد «أورخان» يُتِّم فتح مدينة «بورصة» حتى استدعاه والده إلى «سكور»، فوجده فى مرض الموت ولم يلبث أن فارق الحياة بعد أن أوصى له بالحكم من بعده فى (٢ من رمضان ٧٢٦هـ = ٢ من أغسطس ١٣٢٥م) وأوصاه وصية جاء فيها: «يا بنى أحط من أطاعك بالإعزاز، وأنعم على الجنود، ولا يغرنك الشيطان بجندك ومالك، وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة، يا بنى إنك تعلم أن غايتنا هى إرضاء الله رب العالمين، وأن بالجهاد يعلو نور ديننا كل الآفاق، فتحدث مرضاة الله جل جلاله يا بنى لسنا من هؤلا الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد، فنحن بالإسلام نحيا، وللإسلام نموت وهذا يا ولدى ما أنت أهل له».

ولم يعارض «علاء الدين» – الابن الأكبر لعثمان – هذه الوصية، بل قبلها مقدماً الصالح العام على الصالح الخاص، بالإضافة إلى أنه كان يميل إلى العزلة ودراسة الفقه، فى حين اتصف «أورخان» بالشجاعة والإقدام.

---

* نشرت هذه المادة فى دائرة معارف سفير للمعارف الإسلامية العددان ٢٩ –٣٠.

ولقد نفذ السلطان «أورخان» وصية والده أحسن تنفيذ؛ أقام أول جامعة إسلامية فى الدولة، وأول جيش نظامى، وعندما تولى السلطة نقل مقر الحكومة إلى مدينة «بورصة» الشهيرة؛ لحسن موقعها، وجعلها عاصمة لدولته، وبنى بها جامعاً ومدرسة، وتكية يقدم فيها الطعام للفقراء والغرباء، كما ولي أخاه «علاء الدين» الصدارة العظمي (رئاسة الوزراء) فاختص «علاء الدين» بتدبير الأمور الداخلية، وتفرغ «أورخان» للفتوحات الخارجية، وبهذا يعد «علاء الدين» أول وزير فى تاريخ الدولة العثمانية، فأمر بضرب النقود الفضية باسم «أورخان»، وكان أحد وجهى العملة يحمل عبارة «خلَّد اللَّه ملكه»والوجه الآخر يحمل اسم الأمير.

وفيما يتعلق بتنظيم الجيش، فقد حرص السلطان «أورخان» فى بادئ الأمر على تأليف جيش من الأتراك أنفسهم، وكانت الدولة تدفع لهم الرواتب، ولكن هذه الخدمة العسكرية - التى لم يكن للأتراك عهد بها من قبل - حملت الناس على المغالاة فى مطالبهم، فاقترح «جاندرلى» - الذي يعرف بـ «قره خليل»، وهو أحد قواد الجيش - إحياء التشريع الإسلامى الذى يقضى بأن يحتفظ بيت مال المسلمين بخمس الغنائم، وعزل الأولاد من أسرى الحرب، وتربيتهم تربية إسلامية خالصة تحثهم على الجهاد فى سبيل اللَّه، فوافق السلطان «أورخان» على هذا الاقتراح، وأعجب به، ودعا إلى تنفيذه، وإعداد هذا الجيش الجديد.

* وأما مدة حكم «أورخان»، فتنقسم إلى فترتين:

- الأولى من سنة (٧٢٦هـ = ١٣٢٥م) إلى سنة (٧٤٣هـ = ١٣٤٢م)، وفيها اهتم بتوطيد دعائم الحكم العثماني فى «آسيا الصغرى»، وإنشاء الجيش الجديد «الإنكشارى»، وتأسيس الدولة.

- والثانية من سنة (٧٤٣هـ = ١٣٤٢م) إلى سنة وفاته (٧٦١هـ = ١٣٥٩م)، وكان يستعد فيها لتثبيت قدمه فى «شبه جزيرة تراقيا»، و «مقدونيا»، ونشر سلطانه على أرض أوربا، وقد تمكن «أورخان» أيضاً من

فتح «جزيرة بيثنيا»، وقلعتى «سمندرة»، و «أيدوس»، وهما قلعتان استراتيجيتان تحرسان الطريق الحربى الواصل بين «القسطنطينية» - عاصمة الإمبراطورية البيزنطية و «نقومكيدية» التى استولى عليها «أورخان» فى سنة (٧٢٧هـ = ١٣٢٦م)، ثم تمكن من فتح بلاد «قره سى» فى سنة (٧٣٦هـ = ١٣٣٥م)، وكانت معاملته الطيبة لأهل هذه المدن سبباً فى اعتناقهم الإسلام.

ولماً اتسع ملك الدولة العثمانية، تفرَّغ «أورخان» لترتيب البلاد وتنظيمها، وسنَّ القوانين اللازمة لاستتباب الأمن، وانتشار العمران فى أنحاء الدولة العثمانية كافة.

وعندما زار الرحَّالة المعروف «ابن بطوطة» بلاد الأناضول فى فترة حكم السلطان «أورخان» وقابله هناك، قال عنه:

«إنه أكبر ملوك التركمان، وأكثرهم مالاً وبلاداً وعسكراً، وإن له من الحصون ما يقارب مائة حصن، يتفقدها ويقيم بكل حصن أياماً لإصلاح شئونه».

وبفتح إمارة «قُرَّهْ سِى» اقترب «أورخان» من الإمارات الأوربية التابعة للإمبراطورية البيزنطية، فدخلت مدن الثغور البحرية فى طاعته؛ صيانة لتجارتها، كما استنجد الإمبراطور البيزنطى «جان باليولوج» بالسلطان «أورخان»، وأرسل إليه سنة (٧٥٦هـ = ١٣٥٥م) يطلب إليه الدعم والمساعدة لصد غارات ملك الصرب «استيفان دوشان» الذي أصبح يهدد «القسطنطينية» نفسها، فأجاب «أورخان» طلبه، وأرسل إليه جيشاً كبيراً، لكن «دوشان» ملك الصرب عاجلته المنية، فعاد العثمانيون من حيث أتوا دون قتال.

ولماً تيقن العثمانيون - بعد عبورهم للشاطئ الأوربى - من حالة الضعف والانحلال التى حلَّت بالإمبراطورية البيزنطية، شرع «أورخان» فى تجهيز الكتائب سراً؛ لاجتياز البحر، واحتلال بعض النقاط على الشاطئ الأوربى؛ لتكون مركزاً لأعمال العثمانيين فى أوربا.

وفى سنة (٧٥٨هـ = ١٣٥٧م) أمر السلطان «أورخان» ابنه «سليمان» بعبور مضيق «الدردنيل»، وكان معه أربعون من أشجع جنوده، فتمكنوا من الإستيلاء على ما كان بها من السفن والقوارب، وعادوا بها إلي الضفة الشرقية، حيث حشدوا فيها (٣٠ ألف جندي، تمكنوا من احتلال مدينة «تزنب» كما ساعدتهم الظروف على فتح مدينة «غاليبولى» - التى تبعد عن «القسطنطينية» بحوالى (٥ ر٨٦) ميلاً - إثر زلزال أصاب المدينة، فدخلها العثمانيون، واحتلوا عدة مدن أخرى، منها «أبسالا»، و «ردوستو»، وبنوا العديد من المساجد.

وتُوفِّى الأمير «سليمان» سنة (٧٦٠هـ = ١٣٥٩م)، وفي العام التالي (٧٦١هـ = ١٣٦٠م) توفي السلطان «أروخان»، الذي يُعَدُّ أول سلطان عثمانى امتد ملكه إلى داخل أوربا، وكانت مدة ملكه خمساً وثلاثين سنة، وكان - رحمه الله - ملكاً جليلاً ذا أخلاق حسنة، وسيرة طيبة، وكرم وافر، عمل على استقرار الدولة العثمانية بفتوحاته الجديدة وتنظيماته العديدة، ودُفِن فى مدينة «بورصة» عاصمة الدولة العثمانية، وتولَّى بعده ابنه السلطان «مراد الأول».

أهم مراجع المدخل:

* محمد فريد بك وجدي - تاريخ الدولة العَلِيَّة العثمانية - تحقيق: إحسان حقى - دار النفائس - بيروت - الطبعة الثانية - ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.
* عبدالعزيز الشناوى - الدولة العثمانية دولة مفتري عليها - مكتبة الأنجلو المصرية - ١٩٨٤م.
* محمد حرب - العثمانيون في التاريخ ، والحضارة - المركز المصرى للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركى - القاهرة - ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م.
* كارل برو كلمان - تاريخ الشعوب الإسلامية - نقله إلى العربية: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكى - دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة الثانية عشرة - ١٩٩٣م.
* القرمانى - تاريخ سلاطين آل عثمان - تحقيق: بسام عبد الوهاب - دار البصائر - سوريا - الطبعة الأولى - ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

الانكشارية



الإنكشارية (*).

«الانكشارية» اسم أطلق على التشكيلات العسكرية فى الجيش العثمانى، وأصل الكلمة فى التركية: «ينى تشرى» وتعنى: الجند الجدد وقد ارتبطت هذه التشكيلات بشخص السلطان العثمانى، وانتهى وجودها سنة (١٢٤١هـ = ١٨٢٥م) على يد السلطان «محمود الثانى».

وتضطرب المصادر اضطراباً شديداً فى تحديد نقطة بداية ظهور هذه القوات، كما تختلف فى بيان نوع الجنود الذين تألّفت منهم، وقد اشتهرت آراء ثلاثة فى التأريخ لنشأة هذه القوات:

– الأول: يُرجعها إلى عهد «أورخان» سنة (٧٢٤هـ = ١٣٢٤م)، ويذكر أن تكوينها كان بمساعدة «علاء الدين» أخى السلطان، و «قره خليل الجاندرلى»، وأن الشيخ الصوفى «حاجى بكداش هو الذى أطلق عليهم هذا الاسم.

– والثانى: يُرجعها إلى عهد «مراد الأول سنة (٧٦١هـ = ١٣٦٠م)، وهو السلطان الذى اكتسب هذه القوات فى عهده صفة الدوام؛ إذ كانت قبل ذلك تقوم بأعمال مؤقتة ثم يتم تسريحها.

– والثالث: يُرجع نشأتها إلى القرن التاسع الهجرى = القرن الخامس عشر الميلادى.

وأيًّا ما كان الأمر فيما يختص بزمان نشأتها، فقد اتفق أصحاب الآراء المذكورة على أن جنود الانكشارية كانوا يمتازون – جميعاً – بأخلاق الفتوة أو (الآخيان كما تُسمى فى التركية)، وهى مجموعة الخصال والتقاليد التى اقتبسوها من التربية الصوفية عند المسلمين، وعُرفوا بالولاء للسلطان العثمانى بوصفه إمام المسلمين، وكان لهم أثر بارز فى نجاح عددٍ من الفتوح الإسلامية فى أوربا و «البلقان»، وغيرها.

(*) نشرت هذه المادة فى دائرة سفير للمعارف الإسلامية العددان ٢٩ – ٣٠.

وتحمل المصادر قولين في الجنود الذين تألَّفت منهم قوات الانكشاريَّة:

- الأول: وهو الصحيح الأشهر، أنهم قوات من المسلمين الذين تربوا تربية صوفية جهاديَّة.

- والثاني: وهو الذى زعمه بعض المستشرقين وتلاميذهم، يقول: إنهم من المسيحيين الذين كانت تأخذهم الدولة العثمانية من المدن الداخلة فى سيطرتهم.

وكان تكوين أفراد الانكشاريَّة يمُرّ بمرحلتين قبل ضمِّهم إلى الخدمة:

- المرحلة الأولى: يتم فيها تجميع الفتيان وإرسالهم لتعلُّم اللغة والعادات والتقاليد التركية، ومبادئ الدين الإسلامى، وتُفْرَض لهم يوميَّة معلومة.

- والمرحلة الثانية: يُجمَعون فيها فى معسكرٍ خاصٍّ يُسمى «عجمى أوجاغى لمدة (٧) سنوات، يوزعون بعدها على القصور السلطانية بحسب الحِرَف التى تعلَّموها.

وقد وُضعت لهذه المعسكرات إجراءات أمنية خاصة، فلم يكن يدخلها الأجانب حتى عهد السلطان «مراد الثالث» (١٥٧٤م)، وتُكتَب أسماء مَن يدخلون إلى هذه المعسكرات فى دفاتر يوميَّة خاصة، كما تُكتَب أوصافهم، وأقيم أول معسكر من المعسكرات فى مدينة «أدرنَة» (٨٧١هـ = ١٤٦٦م)، وتَّم نقله إلى «استانبول» بعد أن أصبحت عاصمة للدولة العثمانيَّة، وقُسِّم إلى (١٩٩) دائرة، وتحوى كل دائرة مطبخًا ومخزناً للمؤن وعنابر للضابط والأفراد، وكانت الدائرة وحدة عسكريَّة متكاملة.

وكان عدد الإنكشارية (١٩٦) فرقة في عهد «سليمان القانونيّ» (٩٢٦هـ = ١٥٢٠م)، وقُسِّمت إلى (٣) أقسام بحسب تخصُّصها، وكانت الرتب تتدرج إلى (١١) رتبة، أعلاها «أغا الإنكشارية»ومعاونه «سكبانباشى». ويصل الضابط إلى رتبة «الأغا بالانتخاب أو بالتعيين، وكان يُعَيَّنُ منهم الوزراء بعد تصديق السلطان.

وامتازت «الانكشاريَّة» بالطاعة والالتزام، والروح العسكرية والصرامة، والمحافظةعلى الشعائر الدينية، وعدم مغادرة المعسكرات أو الاشتغال بمهن أخرى، واحترام الأقدميَّة المطلقة، وشهد المؤرخون الغربيون بكفاءة الانشكاريَّة وأثرهم البارز، فى فتوح الإسلام، ومهارتهم فى استعمال الأسلحة، وأداءالخطط العسكرية أداءً فائقاً.

وفى عصورها الأخيرة تدخلت «الانكشاريَّة» فى شئون السياسة والسلْطنة، وأثَّرت فى اختيار بعض السلاطين وعزل بعضهم، وكانت نهايتهم بعد اعتراضهم على تعديلات السلطان «سليم الثالث» (١٢٠٣هـ = ١٧٨٨م) فى الجيش، فعزم على التخلص منهم، ونجح فى ذلك السلطان «محمود الثانى، الذى تولى الحكم سنة (١٢٢٣هـ = ١٨٠٨م)؛ حيث دبر لهم مذبحة بحديقة قصر «ضولمة باغچة سراى، تشبه مذبحة «محمد على» للمماليك بالقلعة بمصر، وانتهى كيان «الانكشارية» سنة (١٢٤١هـ = ١٨٢٥م).

أهم مراجع المداخل:

* عبد العزيز الشناوى – الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها – مكتبة الأنجلوالمصرية – القاهرة – ١٩٨٦م.
* إسماعيل حقى، أوزون چارشيلى – عثمانلى إمبراطور ليغى تشكيلاتى – باللغة التركية – الجزء الثانى.
* محمد فؤاد كوبريلى – قيام الدولة العثمانية – ترجمة: أحمد السعيد سليمان – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – ١٩٩٣م.
* محمد زكى پاك آلين – عثمانلى تاريخ ديملري وتريملرى سوزليغى – باللغة التركية – الجزء الثالث – إستانبول – ١٩٨٣م.
* محمد فريد بك – الدولة العلية العثمانية – تحقيق: إحسان حقى – دار النفائس – بيروت – الطبعة الثانية – ١٩٨٣م.

الدولة العثمانية
والولايات العربية



مؤتمر مصادر التاريخ العثماني في تونس سنة ١٩٨٢م
المؤلف مع مشاركين من مصر والمجر وتركيا..

الدولة العثمانية والولايات العربية(*).

السمات العامة للدولة العثمانية فى الولايات العربية:

الدولة العثمانية قدر لها من بين دول الترك أن تُصبح أمبراطورية مترامية الأطراف، وأن تحكم شعوباً، ومللاً، ونحلاً غير متجانسة، وأن تكون أطول دول الترك بقاء، إذ عمرت 623 عاماً (1299- 1922 (م) واختلف على عرشها أربعون حاكماً، الثلاثة الأول منهم بكوات، والباقى سلاطين، ووليها من أيام السلطان سليم الأول 1470- 1520 (م) إلى انقراضها اثنان وثلاثون سلطاناً خليفة، جمعوا فى أيديهم السلطتين الزمنية والروحية، ودعى لهم على منابر العالم الاسلامى السنى طوال 406 سنة (١).

ولقد ورثت هذه الدولة حضارة السلاجقة ومؤسساتهم العلمية (٢). وحضارة الدول التركية الأناضولية، وأخذت نظم الادارة عن دولة المماليك والإيلخانيين، وتأثرت بالبيزنطيين والصقالبة، ونبغ من العثمانيين فى عهد سليمان طائفة من مشاهير علماء المسلمين، أشهرهم شيخ الاسلام ابن كمال باشا صاحب المكانة المرموقة منذ أيام سليم الأول وأبو السعود أفندى صاحب التفسير وسلطان المفسرين (٣). واحتلت اللغة العربية المكانة الأولى فى نفوس الأتراك .. وكانت تدرس بها كل العلوم الدينية والتطبيقية (٤). بل

(*) ألقى هذا البحث فى مؤتمر «الولايات العربية ومصادر وثائقها» المنعقد فى تونس أيلول سنه (1982) ونُشر فى المجلة التاريخية المغربية بالعدد فى 30-29 جويلية سنة 1983. ومجلة الدارة الصادرة فى المملكة العربية السعودية، والتى تصدرها دارة الملك عبدالعزيز بالعدد الرابع – السنة الثامنة رجب ١٤٠٣ ابريل سنة ١٩٨٣م.

(١) محمد فؤاد كوبرلى، قيام الدولة العثمانية، ترجمة أ.د. أحمد السعيد سليمان، القاهرة سنة 1967 ص ز.

(2) Ismail Hakki Uzunçarşılı, Osmanlı Devietinin Ilmiye teşkilati, Ankara, 1965, S. 7.

(٣) مستقيم زاده سليمان سعد الدين، دوحة المشايخ مع ذيل، جاغرى باينلرى استانبول 1978ص 23.

(4) H. Uzunçarşılı, O. D. ilmiye teşkilati, S. 39.

كان العالم التركى يضع مؤلفاته أولا باللغة العربية وإذا ما أراد لها الانتشار بين بنى جنسه ترجمها بعد ذلك إلى التركية (٥).

ولقد كانت السمة الدينية من أهم السمات التى اتسمت بها تشريعات الدولة العثمانية ومعظم تصرفاتها، فقد كان للهيئة الاسلامية وضع معترف به. ومركز مرموق، وكان يطلق على رئيسها «المفتى» أو مفتى استانبول، ثم تغير هذا اللقب الى «شيخ الاسلام»، وكان السلاطين أنفسهم حريصين على تدعيم سلطته ويعملون على استغلالها كلما حزبهم أمر أو أقدموا على مشروع خطير، كان المفتى يصدر فتوى تجيز الحرب دفاعاً أو هجوماً، وعقد الصلح وغير ذلك من الأحداث الجسام، وكانت الدولة العثمانية تهتم اهتماماً بالغا بنشر التعبئة الروحية بين أفراد القوات المسلحة واثارة عاطفتهم الدينية وصولاً إلى «تسخين» الجنود روحياً قبل خوض المعارك (٦).

وقد اعتمد العثمانيون المذهب الحنفى مذهبا رسمياً للدولة، ولعب المفتون فى استانبول، وفى مراكز الولايات، دوراً هاماً فى مختلف المجالات؛ وكانت الأولوية فى بدء الدولة العثمانية للقاضيعسكر(٧). الذى كان يرافق

(5) Adivar, Osmanli - turklerinde ilim, 1943. 17.

(٦) أ.د. عبدالعزيز محمد الشناوى، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، ج ١، القاهرة، ١٩٨٠ص ٥٤.

(٧) الـ «قاضيعسكر» من أرفع المراكز العلمية فى الدولة العثمانية، وقد كان منصب قاضى الجند أو العسكر موجودا فى الدولة العباسية، والخوارزمية، ولدى سلاجقة الاناضول والأيوبيين والمماليك فى مصر والشام. ويعد مراد الأول هو أول سلطان عثمانى أوجد هذا المنصب فى بلاده، وكان «چانداولى قره خليل» هو أول من شغل هذا المنصب فى الدولة العثمانية. وفى عهد محمد الفاتح تشعب المنصب إلى قاضيعسكر الروميلى وقاضيعسكر الأناضول. وبعد فتح بلاد الشام وديار بكر ومصر فى عهد سليم الأول استحدث منصب «قاضيعسر العرب والعجم» وعين فيه المؤرخ المشهور «أدريس البتليسى».

وكان مكانهم فى التشريعات بعد الوزراء مباشرة، ويجلسون فى صدر الديوان عند انعقاده، ويستقبلون بمثل استقبال الوزراء. ويدخلون على السلطان أربعة أيام أسبوعيا كالوزراء، ويقف لهم السلطان عند استقبالهم فى الأعياد والمناسبات الدينية، ولهم الحق فى الدخول على السلطان بدون اذن فى وقت الحرب، وترتب لهم العلوفات «المرتبات» ويعقدون الديوان العسكرى، ويخصص لهم مساعدون، ويشترك فى مناقشات الأمور الدينية التى كانت تعقد فى الباب العالى، أنظر:

Mehmet Zeki Pakalın, Osmanlı Tarih Deyimleri ve terimleri sözlüğü, Ist. 1971.

الجيش المحارب، ثم أصبح المفتى رئيساً للعلماء، فى عهد السلطان سليمان القانونى (1495 - 1566) (م) وكان تلقبه بشيخ الاسلام مبنياً على الدور الذى لعبه فى التوفيق بين القوانين التى أصدرها سليمان القانونى وبين الشريعة، وكان يحق لمفتى استانبول اصدار فتوى بعزل السلطان نفسه، كما أنه هو الذى يعين المفتين فى مراكز الولايات، أما المذاهب الأخرى فقد تركت الدولة لأفرادها حق اختيار مفتيها من بينهم [٨].

وكانت الأولوية بين القضاة للقاضى الحنفى، ويعين القاضى الحنفى أيضا فى مراكز الولايات العربية من قبل قاضيعسكر الأناضول فى استابنول .. ومنذ بداية القرن السابع بدئ في تعينه من بين المحليين أحياناً، وفي القرن الثامن عشر تم تعيين القاضى دائماً من بين المحليين .. وكان قاضى دمشق من أبرز قضاة بلاد الشام، واعتبر فى مستوى قاضى مصر على اعتبار أن المدينتين كانتا عاصمتين سابقتين للخلافة، وقد لقب بلقب قاضى القضاة.

وأحياناً بلقب ملا أو منلا [٩]. وأقام قاضى القضاة فى المحكمة الرئيسية، وله نواب يصرفون شؤون القضاة فى المحاكم الفرعية.

---

(٨) د. عبدالكريم رافق، العرب والعثمانيون، دمشق، ١٩٧٤، ص ٥٢.

(٩) عبدالكريم رافق. نفس المصدر ص 52.

(١٠) نقيب الاشراف. منصب عرفته الحضارة الاسلامية، وهو يتولى أمور المنتسبين الى آل بيت رسول الله ويتثبت من نسبهم، ويقدم على سجلاتهم، وتوزيع حصصهم من المغانم، وقد كان بمثابة الوصى على المنتسبين الى أهل البيت ..

وقد كان منصب نقيب الاشراف من المناصب الرفيعة في الدولة العثمانية، ومكانه فى التشريعات بعد السلطان مباشرة ..

تم الاخذ بهذا النظام منذ عهد بايزيد (1360 - 1403م) ومنذ عهد بايزيد الثانى (447 - 1512م) صار يعين لهم، وكيل نقيب الأشراف فى الاألات والمقاطعات الاخرى.

وقد كان نقيب الاشراف هو الذى يقلد السلطان السيف ويقوم بمراسي تتويجه في الاحتفال الذى كان يقام في مسجد أبى أيوب الانصارى لتنصيب واعلان السلطان الجديد. وكان هو الذى يقوم بالدعاء للسلطان فى المناسبات، وكان يتقاضى راتباً من الدولة، بل أقامت له الدولة قصراً بالقرب من قصر السلطان للاقامة به انظر «هامر. جلد 2 . ص 255».

وهناك منصب نقيب الأشراف(١٠). فى مركز الولاية، ويعين من قبل نقيب الأشراف فى استانبول .. ويشرف على شئون الأشراف المختلفة ...

وكان من مظاهر الطابع الدينى فى الدولة العثمانية، العناية الفائقة التى أبداها السلاطين بانشاء وتجديد العديد من المساجد الكبرى، ورصد الاعتمادات المالية الضخمة علي تشييد هذه المساجد دليل على عناية السلاطين بمراعاة الشعور الدينى المتسلط على الرعايا العثمانيين، ومن ثم قام تنافس من أجل اقامة المساجد بين السلاطين الذبن تعاقبوا على عرش الدولة وحذا ذوهم الأمراء والأميرات ورجالات الدولة ويقول محمد جميل بيهم «لم يكن سبب هذا التنافس حاجة ملحة إليها بقدر ما كان الهدف هو اكتساب قلوب الشعب عن طريق الدين. ،، (١١).

ولم يكن اهتمام السلاطين بانشاء المساجد مقصوراً على الأقاليم التى كانت مهادا للعثمانيين عند نشأة دولتهم، بل امتد هذا الاهتمام إلى الولايات الاسلامية، ففى مصر - على سبيل المثال - كان البشوات العثمانيون يشيدون - بناء على أوامر تصدر لهم فى غالب الأحيان من استانبول - مساجد جديدة - كمسجد سليمان باشا بالقلعة (1528) (م) والمحمودية (1567) (م) وسنان باشا (1571) (م) والملكة صفية (1610) (م) وكان السلاطين يعهدون الى الولاة فى اصلاح وتجديد المساجد القديمة وعلى رأسها الحرمان الشريفان والجامع الأزهر والمسجد الأموى بدمشق(١٢).

وقد وضح الطابع الدينى فى التطبيق الصارم للشريعة الاسلامية، والنص فى قوانيين الدولة منذ عهد السلطان القانونى على أنها تتفق مع الشريعة الاسلامية كما وضح أيضاً فى المحافظة على التقاليد الدينية واقرار

---

(١١) محمد جميل بيهم العرب والترك فى الصراع بين الشرق والغرب، المطبعة الوطنية، بيروت 1957 ، ص 125.

(١٢) د. عبدالعزيز الشناوى، نفس المصدر، ص 25.

عقوبات التجريس أو التشهير فى حق من يرتكب جريمة الافطار فى رمضان أو ترك الصلاة، بل وصل الأمر إلى حد الزج بالمخالف فى الترسيم أى الاعتقال(١٣).

كما أن الدولة أشرفت اشرافاً فعلياً على الحج، واعتبرت هذا العمل واجبا يقع على عاتقها، باعتباره الركن الخامس من أركان الاسلام، وأن عليها تيسير الحج أمام الراغبين فيه، فأنشأت الآبار على طول طرق الحج وأقامت الحصون، وشجعت على اقامة الخانات، وأقامت المخافر، وكانت تشرف على قوافل الحج الأربع (١٤) الرئيسية التى تخرج من كافة أنحاء الدولة في مواعيد محددة، وتضع لها قوة تحرسها، يقودها أحد كبارالعسكريين الذى كان يسمى سردار الحج (١٥) وكان على رأس كل قافلة أمير للحج، وكثيراً ما كان أمير الحج يتولى قيادة الجيش، وخاصة فى قافلة الحج الشامى(١٦). ومما يؤخذ على الدولة العثمانية منذ نشأتها مؤازرتها للطرق الصوفية ... فقد أولت الطرق الصوفية وأربابها أهمية بالغة، وأمدتهم بالعون المادى، وألحقتهم بالجيش، وانتسب السلاطين إلى الطرق الصوفية، وكان كل منهم حريصاً على ذلك الانتساب، وضجت الأناضول والبلقان والولايات العربية بالطرق الصوفية كالنقشبندية والمولوية والبكداشية

---

(١٣) المصدر نفسه، ص ٥٧.

(١٤) **قوافل الحج الاربع هى: قافلة الحج الشامى**: وتضم حجاج بلاد الشام والجزيرة وكردستان وأذربيجان والقوقاز والقرم والاناضول والبلقان وحجاج استانبول نفسها. وكان عددها يتراوح بين ثلاثين وخمسين الفاً .. **قافلة الحج المصرى**: وتضم حجيج مصر وشمالى افريقيا .. قافلة الحج العراقى: وتضم حجاج العراق وفارس ... **قافلة الحج اليمنى**: وتضم حجيج اليمن والهند وماليزيا واندونيسيا.

(١٥) سردار = سر عسكر بمعنى رئيس الجيش، قائد الجيش: وهو لقب عسكرى قد أطلق على قائد الجيش العثمانى بعد تخلى السلطان عن قيادته. وبعد الغاء الانكشارية لقب قائد الجيش بهذا اللقب أيضاً. واذا ما عينه الصدر الاعظم يسمى بـ «سردار أكرم» وكثيراً ما كان الصدر الاعظم يجمع بين اللقبين إذا ما قاد الجيش بنفسه فيطلق عليه: وزيرى أعظم وسردار أكرم.

(١٦) وثيقة رقم ٣٧٣٨ الارشيف التركى،٤٧٧/٢/١ أرشيف المركز الوطنى السعودي.

والرفاعية أو الأحمدية والخلوتية والكازرونية أو الاسحاقية أو الرشدية [١٧] مما شوه حقيقة الاسلام وساعد على ادخال البدع فى صلب الدين ..

وأخذت الدولة كذلك بنظام الفتوة الذى يعد الطابع الاسلامى للفروسية العربية، والذى ورثته عند قيامها فى الأناضول، وقد خالطهم ابن بطوطة ووقف على نظمهم وتعرف على زواياهم وأسلوبهم فى الحياة، ثم تحدث عنهم في «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار[١٨]. وقد كانوا جميعا معتنقين للمذهب السنى واستفادت منهم الدولة فى حروبها مع الدويلات والثغور المتاخمة ..

كما أن الاهتمام الكبير بالحجاز كان من السمات التى حافظ عليها كل السلاطين العثمانيين، فقد كانت تبعية الحجاز وما تحويه من أهم الأماكن المقدسة الاسلامية على وجه الأرض للدولة العثمانية مما أضفى عليها مركزاً دينياً مرموقاً، فى جميع أرجاء العالم الاسلامى .. وقد أعفته الدولة من أداء الضرائب، بل أقر له سليم الأول ثلث ما كان يجئ من مصر[١٩]. كما أوقف خراج اليونان عند فتحه على الحرمين الشريفين [٢٠]. ولم يكن الاهتمام وقفاً على الأماكن بل تعداها الى المواطن، فقد أعفى سكان الحجاز من التجنيد [٢١]. وأبقت الدولة على الحكم الذاتى المتمثل فى نظام الشرافة، وكل ما كانت تفعله، أن ترسل فرماناً، يحدد امكانات واختصاصات وواجبات الشريف الجديد عند تعينه [٢٢]. وكان

---

(١٧) محمد فؤاد كوبريلى، نفس المصدر، ص ١٦٨.

(١٨) ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، الانجلو المصرية، القاهرة سنة 1968، ج1، ص 156 - 166.

(١٩) عبد الكريم رافق، نفس المصدر، ص 63 -67 .

(٢٠) مجلة العربى عدد سبتمبر سنة 1981م.

(٢١) د. عبدالعزيز الشناوى، نفس المصدر، ص 60.

(22) Ord. prf. I, Hakki Uzunçarşılı, Mekke - I Mükerreme Emirleri. Ankara, 1972, 6. 19.

أمير مكة يتمتع – فى التشريفات – بأسمى مقام فى صف «الصدر الأعظم» فى الأستانة و «الخديوى» فى مصر(٢٣). وترتب له العطايا من قبل السلطان(٢٤).

ومن المفيد فى هذا المجال ذكر رأى المؤرخ العربى الجبرتى الذي يسجل اعجابه بالدولة العثمانية واهتمام السلاطين العثمانيين بـ «أقامة الشعائر الاسلامية والسنن المحمدية، وتعظيم العلماء وأهل الدين، وخدمة الحرمين الشريفين، والتمسك في الأحكام والوقائع بالقوانين والشرائع، فتحصنت دولتهم، وطالت مدتهم وهابتهم الملوك، وانقاد لهم الممالك والملوك (٢٥).

الفتح العثمانى للبلاد العربية:

إن علاقة الدولة العثمانية بالبلاد العربية بقيت – حتى نهاية القرن الخامس عشر – علاقة مجاملة ومؤازرة عن طريق المراسلة مع تبادل الوفود والهدايا..

وكان أول احتكاك يحدث بين الدولة العثمانية ودولة المماليك المصرية قد حدث سنة 1489– سنة 1490م عندما استولى المماليك على بعض المقاطعات العائدة إلى آل ذى القدر الذين كانوا يمتون إلى آل عثمان بصلة المصاهرة، ولذلك جرد السلطان بايزيد الثانى (1447– 1512م) حملة عسكرية لإخراج المماليك من تلك المقاطعات ولكن جيشه لم يستطع التغلب على جيش المماليك، ثم كرر الحملة فى السنة الثانية أيضاً دون جدوى (٢٦).

---

(٢٣) ساطع الحصرى، البلاد العربية والدولة العثمانية، دار العلم للملايين، بيروت، بدون تاريخ، ص 241.

(٢٤) أسعد أفندى، تشريفات قديمة، جاغرى يايئلرى، استانبول 1979، ص 24.

(٢٥) الجبرتي، الشيخ عبدالرحمن، عجائب الآثار في التراجم والآثار، القاهرة مطبعة بولاق، 1297، ج1، ص 21.

(26) Enver Behnan Şaplyo, Osmanlı Sultanları, Istanbul, 1961, s.127.

وعندما تولي ياووز سليم (1470 - 1520) (م) العرش لم يواصل الفتوحات فى القارة الأوروبية بل وجه أنظاره نحو القارة الأسيوية، وسعى وراء توسيع حدود دولته فى البلاد الاسلامية لخلق تكتل اسلامى يجابه به التكتل المسيحى الصليبى الذى كان يسعى لالتهام العالم الاسلامى، ولينقل مركز الثقل الاسلامى الى الترك لكى يتولوا الدفاع عن العالم الاسلامى(٢٧).

أحرز السلطان سليم نصراً حاسماً في «چالديران» سنة 1514 فتح أمامه أبواب تبريز عاصمة الدولة الصفوية التى كانت تنازعهم السلطة في العالم الاسلامى(٢٨). واستولى فيها على العرش ..

وبعد مضى سنتين توجه السلطان سليم إلى الجنوب لمحاربة المماليك وانتصر على قنصوه الغورى «قانصو جاورى» فى «مرج دابق» بالقرب من حلب 24 أغسطس سنة 1516 الموافق 25 رجب 922 هـ، وبعد ذلك استولى على سوريا بأكملها، وعين بها ولاة من طرفه، وقابل العلماء، فأحسن وفادتهم، وفرق الانعامات على المساجد وأمر بترميم الجامع الأموى بدمشق، ولما صلى الجمعة به أضاف الخطيب عندما دعا له هذه العبارة «خادم الحرمين الشريفين» فاستحسن السلطان هذه العبارة وظلت مستخدمة في الخطبة الى انهيار الدولة العثمانية (٢٩).

وفى السنة التالية قرر الاستيلاء على مصر أيضا، فاجتاز صحراء سيناء ووصل الى شواطئ النيل، ودخل العثمانيون القاهرة بعد حروب طاحنة مع المماليك فى 8 محرم سنة923 هـ = 31 يناير سنة 1517م، ووقع طومان باى الذي تولى السلطة بعد قانصوه الغورى، فى أيدى العثمانيين بخيانة بعض من معه وشنق بأمر من السلطان سليم فى21 ربيع الاول

---

(٢٧) المصدرنفسه، ص 144.

(٢٨) ساطع الحصرى، نفس المصدر، ص 40.

(٢٩) محمد فريد؛ نفس المصدر، ص 193.

سنة 923 هـ 13 ابريل سنة 1517 بباب زويله، ودفن في القبر الذى كان قد أعده الغوري لنفسه، وقد حزن سليم الاول على شنقه خاصة بعد أن رأى مشهد الشنق، وكيف انقطع الحبل مرتين متتاليتين في إحدى مسرحيات خيال الظل التى أقيمت له أثناء مقامه في منيل الروضة (٣٠).

ويقول الأستاذ محمد فريد بك ... وبعد أن مكث السلطان سليم بالقاهرة نحو شهر في منيل الروضة أخذ في زيارة جوامع المدينة وكل ما بها من آثار ووزع على أعيانها العطايا والخلع السنية، وحضر الاحتفال بفتح الخليج الناصرى عند بلوغ النيل الدرجة الكافية لرى الاراضى المصرية، ثم حضر احتفال خروج قافلة الحجاج التى ترسل معها الكسوة الشريفة الى الأراضى الحجازية، وأرسل الصرة كالمعتاد الى الحرمين الشريفين بقصد توزيعها على الفقراء وزادها إلى ثمانية وعشرين الف دوكا(٣١).

وقد تنازل محمد المتوكل على الله آخر الخلفاء العباسيين عن حقه في الخلافة الاسلامية إلى السلطان سليم العثمانى، وسلم الاثار النبوية الشريفة وهى البيرق والسيف والبردة وسلمه أيضاً مفاتيح الحرمين الشريفين (٣٢).

وبعد أن دعم موقفه في القاهرة تحرك بالسفن من بولاق إلى دمياط ثم إلى رشيد والاسكندرية، وقد كان حريصاً على تدعيم صلاته بالأهالى والأعيان في كل المناطق التى زارها ... ويذكر أوليا چلبى فى كتابه «سياحتنامه» أن سليم استولى على مخلفات الرسول وأماناته المقدسة ضمن خزائن قانصوة الغورى فى الاسكندرية (٣٣).

(٣٠) ابن اياس، محمد بن احمد، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق، محمد مصطفى: ج 5. القاهرة 1380/ 1960م ص 192.

(٣١) محمد فريد بك، نفس المصدر 194.

(32) Osmanli Sultanları tarihi. S. 148.

(33) Mehmed zilli oğlu Evliya çelebi. Evliya çelebi, Seyahatnamesi. Zuhuri Danışman. Z. Danişman yayi nevi. Istanbul, 1971. Cet 14. S. 144-145.

وجاء بالخطط التوفيقية بخصوص ما أجراه السلطان الغازى من ترتيبات بمصر ما يلي:

«لما أخذ مصر ورأى غالب حكامها من المماليك الذين ورثوها عن ساداتهم رأى أن بعد الولاية عن مركز الدولة ربما أوجب خروج حكامها عن الطاعة وتطلب الاستقلال، فجعل حكومة مصر منقسمة الى ثلاثة أقسام، وجعل في كل قسم رئيسا وجعلهم جميعاً منقادين لكلمة واحدة هى كلمة وزير الديوان الكبير، وجعله مركبا من الباشا الوالى من قبله ومن بكوات الأوجاقات «المعسكرات» السبع، وجعل للباشا مزية توصيل أوامر السلطان إلى المجلس، وحفظ البلاد، وتوصيل الخراج إلى القسطنطنية، «استانبول» ومنع كل من الأعضاء العلو على صاحبه، وجعل لأعضاء المجلس مزية نقض أوامر الباشا بأسباب تبدو لهم، وعزله أن رأوا ذلك والتصديق على جميع الأوامر التى تصدر منه فى الأمور الداخلية، وجعل حكام المديريات الأربع والعشرين من المماليك وخصهم بمزية جمع الخراج فى البلاد، وقمع العربان، وصدهم عنها، والمحافظة على ما فى داخلها، وكل ذلك بأوامر تصدر لهم من المجلس وجردهم من التصرف من أنفسهم، ولقب أحدهم المقيم بالقاهرة بشيخ البلد، ثم رتب الخراج وقسمه أقساماً ثلاثة، وجعل من القسم الأول ماهية عشرين ألف عسكرى بالقطر من المشاة، واثنى عشر ألفاً من الخيالة. والقسم الثانى يرسل إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة، والقسم الثالث يرسل الى خزينة الباب العالى .. ومن هذا الترتيب تمكنت الدولة العلية من ابقاء الديار المصرية تحت تصرفها نحو مائتى سنة، ثم أهملت بعد ذلك القوانين التى وضعها السلطان سليم ... (٣٤).

وهكذا كان فتح العثمانيين لسوريا والحجاز ومصر قد تم بسهولة خلال عامين، انتصارهم فى مرج دابق ضمن لهم حكم سوريا والحجاز، وانتصارهم فى الريدانية أدخل مصر أيضا تحت حكمهم، وقضى على دولة

---

(٣٤) علي باشا مبارك، الخطط الجديدة التوفيقية لمصر القاهرة، ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، المطبعة الاميرية، بولاق 1350 ج 7،

المماليك القضاء المبرم (٣٥). ومن الملاحظ على الفتح العثماني لبلاد الشام والحجاز ومصر، أن الشعب لم يقاوم العثمانيين ولم يدافع في الوقت نفسه عن المماليك، بسبب ظلمهم السابق، بل كانوا يرحبون بمقدم العثمانيين بسبب ما عرف ونشر عنهم من الجهاد في سبيل نشر الاسلام وأنهم سيعاملون السكان المحليين، بما فيهم الفلاحين، باللين، في محاولة منهم لكسب الأهالي والتفريق بينهم وبين المماليك (٣٦) وإن كان قد أبقى الكثير منهم كموظفين في مناصب الكشوفات، وكذل في امارة الحج والدفتردارية.

واستمر شيخ قبيلة الهوارة في امارة الصعيد، وأبقى على أصحاب الاقطاعات والأوقاف يتمتعون بامتيازاتهم، وأرسل السلطان سليم عدداً من الفنيين وأصحاب الحرف والصنايع إلى استانبول للمساهمة في نشاطاتها وتجميلها(٣٧)، كما فعل سابقاً عندما فتح تبريز عاصمة الصفويين رغبة منه في اظهار حاضرة العالم الاسلامي بالمظهر اللائق..

وقد أبقى العثمانيون كذلك على كثير من مظاهر الادارة المملوكية في بلاد الشام لفترة مؤقتة، وعينوا مناصريهم كـ «جان بردى الغزالى» واليا على دمشق والأمير محمد بن قورقوماز الشركسى على البقاع، وأبدى سليم اهتماما بسلامة قافلة الحج الشامى (٣٨).

الفتح العثمانى للعراق:

كان طبيعياً، بعد أن احتلت الدولة بلاد الشام ومصر أن تتطلع الى فتح مركز الخلافة الاخر، بغداد فتجمع بذلك بلاد المشرق العربى تحت سلطتها وتحول دون محاولات الصفويين الاستيلاء علي العراق، وكان العثمانيون فى أعقاب انتصاراتهم فى چالديران 1514، قد فرضوا نفوذهم على الموصل وديار بكر وماردين وعينوا حاكماً من قبلهم عليها ..

---

(٣٥) ساطع الحصرى، نفس المصدر، ص 40.

(36) Inalcik, "the Rise of the Ottoman Empire, in, The Camb. Hist. of Islam. vol. I, p. 319.

(٣٧) ابن اياس. نفس المصدر. ص 195.

(٣٨) د. عبدالكريم رافق. نفس المصدر، ص 67.

عين العثمانيون الصدر الأعظم ابراهيم باشا قائداً على الجيش المتجه لفتح العراق، وغادر استانبول فى 2 ربيع الاخر سنة 940 هـ تشرين الأول سنة 1533م، واحتل تبريز فى محرم سنة 941 هـ13 تموز سنة 1534، ولحق السلطان سليمان القانونى بالصدر الأعظم في تبريز، ثم اتجها معاً نحو بغداد، ووصلها الصدر الاعظم فى 24 جمادى الثانية سنة 941 هـ 31/ كانون الاول 1534م وبعده بيومين دخلها السلطان سليمان، وسط مظاهر الحفاوة الشعبية (٣٩). وأصدر السلطان أوامر مشددة الي جنده بعدم التعرض للاهالى، وحاز على رضاهم أيضا بزيارته الاماكن المقدسة فى بغداد ورصده المال لها، سواء السنية منها أو الشيعية وقام بجهد خاص لاكتشاف قبر أبى حنيفة، وأمر ببناء قبة عنده. وكذلك قبر عبدالقادر الجيلانى مؤسس الطريقة القادرية، كما قام بزيارة الأماكن المقدسة لديهم فى النجف وكربلاء (٤٠).

وهرع زعماء القبائل والأعيان الى بغداد لتقديم ولائهم للسلطان. وكان من بينهم أمير البصرة، راشد بن مغامس، الذي كان قد استقبل بها، فأبقاهم السلطان كما هم. وهكذا خضعت البصرة للعثمانيين، وترتب على ذلك مسؤوليات دفاعية جديدة، خاصة ضد البرتغاليين فى منطقة الخليج(٤١).

وقد قسمت العراق إلى أربع ولايات: بغداد وفيها ثمانية عشر سنجقاً، الموصل وفيها ستة سناجق، البصرة بدون سناجق، وشهر زور وفيها عدد من السناجق بلغت أحياناً العشرين، بما فيها القلاع. وعين القانونى، سليمان باشا والى ديار بكر والياً على بغداد ..

وفى 2 نيسان سنة 1535 قرر العودة الى استانبول، ووصلها فى8 يناير سنة 1536 بعد أن أمضى فى الطريق ستة أشهر توقف خلالها

---

(٣٩) المصدر نفسه، ص 68.

(40) Resimli Mufassal Osmanli Tarihi, cilt 3, 1958, S. 880.

(٤١) عبد الكريم رافق، نفس المصدر ص 68.

فى آذربيجان وأصلح من شؤونها الداخلية (٤٢) كما توقف فى مدينة تبريز التى وصلها في الرابع من محرم سنة 942 هـ/ 5 تموز سنة 1535 وأقام بها 15 يوما قضاها فى تعيين الولاة على المدائن المفتتحة حديثاً وترتيب الشؤون الداخلية أيضا (٤٣).

دخول الجزائر وتونس تحت الحكم العثماني:

أما دخول الجزائر تحت الحكم العثمانى فقد تم بدون حرب، بل بمحض إرادة حاميها خير الدين المعروف بـ «بارباروس» وكان قد تكون هناك نوع من الحكومة البحرية تملك اسطولا قويا يشتغل بالقرصنة ضد قراصنة أروبا.

وصار خير الدين يتغلب على أساطيل الأسبان ويسيطر على غرب البحر المتوسط ومع هذا فقد رأى أن يقدم خدماته وأساطيله للدولة، وبهذا انضمت الجزائر، إلى الدولة (1516م).

ثم قام خير الدين ومن جاء بعده بحركات حربية أدت إلى إدخال تونس وطرابلس أيضاً إلى حوزة الدولة العثمانية، وما أن حلت سنة 1556حتى أصبح شمال أفريقيا كله تابعاً للدولة العثمانية بما فيه وهران وتلمسان (٤٤).

واحتل العثمانيون فى عام 1550 القطيف فى منطقة الخليج، ثم مدوا نفوذهم إلى الأحساء التى فتوحوها سنة 1552 (٤٥).

أما سليمان باشا والى مصر فكان قد فتح مدائن عدن ومسقط وكل اقليم اليمن وجعله ولاية عثمانية سنة 1538م (٤٦).

وهكذا فقد استولت الدولة العثمانية على معظم البلاد العربية، فيما عدا المغرب الأقصى من جهة وقلب الجزيرة العربية من جهة أخرى - خلال

(42) Namik Kemal, Osmanli Tarihi, cilt 3, 1974, S. 198.

(٤٣) محمد فريد بك، نفس المصدر، ص 223.

(٤٤) ساطع الحصرى، نفس المصدر، ص 41.

(٤٥) عبدالكريم رافق، نفس المصدر، ص 68.

(٤٦) محمد فريد بك، نفس المصدر، ص 240.

القرن السادس عشر، وفي مدة لا تتجاوز الأربعين عاماً [٤٧]، وبقيت هذه البلاد تحت الحكم العثماني - بالرغم من بعض الثورات التى حدثت في تواريخ مختلفة - حتى القرن التاسع عشر.

لقد كان جل اهتمام الدولة العثمانية هو توجيه نشاط دولتهم نحو الحرب والجهاد لفتح الاقاليم البيزنطية، وادخالها في حوزة الاسلام. واقدامهم على «الجهاد» بهذه الصورة صار يجذب إليهم عدداً غير قليل من المتطوعين من مختلف الامارات التركية الاسلامية التى قامت على انقاض الدولة السلجوقية. وكل فتح من فتوحاتهم في «بلاد الكفر» حسب تعبير ذلك الزمان - كان يرفع من مكانتهم في أنظار المسلمين ويقوى تيار المتطوعين لخدمتهم ..

وقد كان سلاطين آل عثمان يحرصون على نشر أخبار انتصاراتهم في مختلف البلاد الاسلامية، فقد كانوا يرسلون وفوداً خاصة لابلاغ الأمر الى ملوك المسلمين، ومن جملتهم سلاطين المماليك في مصر.

وكانت هذه المخابرات والاتصالات والمكاتبات مع الدول المشار إليها تجرى باللغة العربية، حتى عهد السلطان سليم. وقد حفظت لنا التواريخ العثمانية طائفة من هذه المكاتبات [٤٨].

---

(٤٧) سوريا، الاردن، لبنان، فلسطين ومصر1517، الكويت 1522، العراق 1534، اليمن 1538، شمال أفريقيا، وهران وتلمسان 1556.

(٤٨) فريدون بك، منشآت فريدون جـ ويحتوى على المكاتبات التالية:

أ - كتاب من السلطان مراد الثاني الى «عزيز مصر» الملك الاشرف برسباى يبشره بفتح قلعة «كوكر جينلك» في نهر الدانوب تاريخه 831 هـ = 1427م.

ب - هناك تسع رسائل متبادلة بالعربية بين مراد الثاني وبرسباى.

ج - رسالة من مراد الثاني الى «عزيز مصر» عند فتح سلانيك باليونان رجب سنة 832 هـ.

د - رسالة من السلطان محمد الفاتح الى «شريف مكة المكرمة» بمناسبة فتح استانبول، يبشر بالفتح، ويطلب الدعاء ويرسل هدايا من الغنائم ..

هـ - رسالة من «شريف مكة المكرمة» الى السلطان محمد الفاتح رداً على الرسالة السابقة ومعبراً عن بهجة المسلمين بفتح القسطنطينية.

والمدقق لهذه المكاتبات يتبين «النزعة الدينية الشديدة» التى كانت تلازم أعمال الدولة العثمانية وفتوحاتها، كما تعطى فكرة صريحة عن مبلغ اهتمام سلاطينها باذاعة أخبار انتصاراتهم على الكفار «وفتوحاتهم فى «بلاد الكفر» على مختلف الأقطار الاسلامية بوجه عام والبلاد العربية بوجه خاص(٤٩).

بعض من مظاهر الادارة فى الولايات العربية:

كان السلطان العثمانى الذى تلقب بـ «خونكار» (Hunkar)أحياناً وأحياناً بـ «پادشاه» و «همايون» برأس الادارة العثمانية المركزية، وكان الابن الأكبر يخلف أباه، واعتاد السلطان العثمانى تعيين أبنائه حكاماً على الولايات مما أكسبهم خبرة ادارية أفادتهم في الحكم .. وظل ذلك الوضع الى أن صدر فرمان سنة 1617م الذي يعطى السلطة لأكبر الأعضاء الذكور سنا وقلل هذا كثيراً من نصيب الابن فى تولى السلطة بعد أبيه (٥٠).

وكان الصدر الأعظم أو الوزير الأعظم حتى فتح القسطنطينية سنة 1453م، يعين من المسلمين الأحرار، ثم أصبح يعين من نتاج الدوشيرمة(٥١)

---

(٤٩) ساطع الحصرى، نفس المصدر، ص 28.

(٥٠) د. عبدالكريم رافق، نفس المصدر، ص 43.

(٥١) الدوشيرمة "Devşirme". تعبير يطلق على أبناء المسيحيين الذين كانوا يجمعون من البلدان المسيحية عند فتحها، وينشئوا على التعاليم الاسلامية، واللغة والعادات والتقاليد التركية، ثم يتولون الخدمة في القصر الهمايوني والقيام بأعمال البستنة والامور الادارية فى معسكرات الانكشارية، وأخذوا يحلون محل الاسرى فى سائر أعمال الدولة رويدا رويدا. ثم صدر «قانون الدوشيرمه» في عهد السلطان مراد الثانى(1421-1451م) الذى أباح جمع الاطفال في سن السابعة والثامنة لتنشئتهم فى معسكرات خاصة، وأصبح يطلق عليهم «عجمى أو غلان» أولاد الاعاجم، وقد انحصر ذلك على الارناؤوط والبلغار والأرمن والبوسنويين. وكان لا يؤخذ قط أحد من أبناء المسلمين أو حتى من أولاد أهل الذمة الذين يختلفون. ثم بدأ بتصاعد عمر من يؤخذون حتى وصل الى سن العشرين مالم يكن قد تزوج. وان التركيز على أولاد القساوسة والعائلات المسيحية الكبيرة. وكان يؤخذ من كل والد صاحب ولدين أشدهما وأحسنهما مظهراً، واذا كان ولداً واحداً يترك لخدمة والديه، ولم يدخل اليهود قط فى الحسبان لاشتغالهم بالتجارة.

وعلى العموم لقد ظل يعمل بهذا القانون حتى منتصف القرن الثانى عشر الهجرى وقد تخرج فى معسكرات الدوشيرمه العديد من رجالات الدولة العثمانية الذين شغلوا أرقى مناصبها سواء فى ميدان الجيش أو الخدمات المدنية. انظر

I. H. uzunçarşılı. Osmanlı Devleti teşkilatindan Kapukulu ocakları. cilt I. 6. 16.

(Devisirme) وضمن السلطان بذلك ولاءه وطاعته، وبازدياد مسئولياته، فى أعقاب انقطاع السلطان الى القصر، أصبح للصدر الأعظم مقر خاص به منذ سنة 1645م عرف بالباب العالى (sublime porte) قبل السلطان محمد الرابع الذى جعله مقراً رسمياً لوزيره الأعظم درويش محمد باشا(٥٢) حيث صرف شئون الدولة، التى كانت من قبل تتم فى قصر السلطان .. وبالتدريج أطلق اسم المكان على ساكنه. وقد نافسه على السلطة فى فترة من الفترات الـ «قيزلر آغاسى»(٥٣) نظراً لانقطاع السلطان الى حياة القصر ..

وهكذا أصبحت السلطة ثنائية فى استانبول وانعكس أثر ذلك على الولايات.

ويمثل السلطة العثمانية فى مركز كل ولاية حاكم يلقب عادة بالباشا(٥٤) وكانت رتبته فى البداية بلربكى أى بك

---

(٥٢) د. عبدالكريم رافق، بلاد الشام ومصر من الفتح العثمانى إلى حملة نابليون بونابرت (1798- 1516)، الطبعة الثانية، دمشق 1968، ص64.

(٥٣) قيزلر آغاسى:

أخذ المراكز المهمة في داخل القصر السلطاني، وقد ورثه العثمانيون عن العباسيين والمماليك وكانت مهمته الاشراف على الحرم السلطاني، وفي العادة كان من المستخدمين السود. وكان مكانه فى التشريفات بعد الصدر الاعظم وشيخ الاسلام مباشرة. وفي عهد السلطان عبدالحميد تولي الاشراف علي المخابرات والتحكم فيمن يدخل قصر بلدىز سراى حيث يقيم السلطان. انظر:

Mehmet zeki pakalın, O.T.D ve terimleri sözlüğü, cilt 2.

(٥٤) الباشا: paşa

لقب كان يمنح لكبار الموظفين في الدولة العثمانية، سواء من المدنيين أو العسكريين ويقول هامر، انها تدل علي الشخص الذى ينيبه السلطان فى ادارة أمر ما، علي اعتبار أن السلطان يعتبر موظفى الدولة بمثابة قدمه الراسخة فى أنحاد البلاد. وكان السلطان يحب تشبيه موظفيه ببعض أعضاء جسده، فالموظفون الكبار عينيه ورجال الشرطة أذنيه ورجال المالية يديه والجنود قدميه .. وكان هذا اللقب يمنح لبعض العلماء والفنيين تعظيماً لهم وتقديراً لدورهم .. وفى بعض فترات التاريخ العثمانى أوقف هذا اللقب على الوزراء والصدر الاعظم فقط..

البكــوات(٥٥) وكانت له شارتان تعلقان على رايته، وحين منح لقب وزير إلى كثير من أصحاب الحظوة وعينوا على الولايات، علق على رايه كل منهم ثلاثة أطواخ (٥٦).

وتنقسم بعض الولايات الى أقسام إدارية أصغر، تعرف بالسنجق، وحاكمها أمير اللواء، وتضم عدة سناجق لتشكل ولاية يرأسها بك البكوات..

ومن المؤسسات العثمانية الرئيسية «الدفترخانه» التى تعنى بالشئون المالية. والجدير بالذكر أن أراضى الدولة التى عرفت عادة باسم الأراضى الأميرية أو الميرية كان يوزع قسم منها على شكل اقطاعات بينما يجبى ضرائب القسم الآخر بواسطة الملتزمين (٥٧).

وكانت الاقطاعات على ثلاثة أنواع، التيمار والزعامت، ثم اقطاع خاص. وقد أعطيت التيمارات للجند السباهية (٥٨) ليعيشوا منها، ويجندوا

---

(٥٥) بكلر بكى: بك البكوات: « Beyler Beyi» أى أمير الامراء. وهو لقب ادارى وعسكري ورثه العثمانيون عن الدولة السلجوقية. والامارة من الوظائف المهمة في التشكيلات الادارية والعسكرية فى الدولة العثمانية. وقد استخدم هذا اللقب منذ عهد مراد الاول (1360- 1389) وان كان المستشرق هامر يذكر أن أول من تلقب بهذا اللقب هو تيمورطاش (هامر جلد 1ص 137). وهو يوازى الوالي فى العصر الحديث.

(٥٦) طوغ = طوخ: اشارة كانت تصنع من شعر ذيل الخيل ثم تزين أطرافها بالذهب وتدل على الاصالة والنجابة، وقد عرفها الهنود والصينيون كما عرفها الترك. وتستخدم للدلالة علي الرتبة العسكرية فى تشكيلات الجيش العثمانى.

(٥٧) د. عبدالكريم رافق، نفس المصدر، ص 54.

(٥٨) السباهية = سباهى = Sipahi.

اصطلاح عسكرى يطلق علي جنود الخيالة الذين يتولون الاشتراك في الحرب هم ومن معهم من الجنود نظير أراضى الثيمار التى تعطى لهم من قبل الدولة، ويتولون الدفاع والمحافظة على الحدود ويشتركون مع المشاة فى صد غزوات الاعداء، كما يقومون بالهجوم إذا طلب منهم ذلك، يرى بعض المؤرخين أنهم وجدوا فى الجيش العثمانى منذ عهد أورخان، ويرى البعض الاخر أنهم ظهروا فى عهد مراد الاول.

والسباهى ملزم باعداد وتدريب جند حسب دخل تيماره، ومن يزيد دخل تيماره عن ثلاثة آلاف أقچه، كان يرتدى عمامة تميزه عن غيره من السباهية.

ومن حق أمير الامراء التفتيش عليهم أثناء الحرب، ومن لم يشترك ينزع منه الثيمار أو تجبى حاصلاته لصالح الدولة.

وقد استفادت منهم الدولة طالما كانوا منضبطين، وقد حلوا محل الانكشارية بعد الغاء معسكراتهم فى الاناضول والروميلى، ثم انضموا الى النظام الجديد.

والخيالة السباهية يطلقون ذقونهم ويتركون شواربهم هشة شعثة، مهرة في ركوب الخيل واستخدام السيف ورمى الرماح والاقراس. انظر محمد ياك ألين.

آخرين من وارداتها، ومنحت الزعامت لضباط السباهية، وكبار الموظفين، بينما منح الاقطاع الخاص إلى أفراد الأسرة الحاكمة والمقربين إليهم. كما الحق ببعض المناصب الادارية لينفق أصحابها من وارداته. ويتمتع صاحب الاقطاع به مدي الحياة، ولا يورث، بل يعود إلى الدولة فى حالة وفاة صاحبه. ويرأس الدفتر أمين الدفترخانه (٥٩) التى تعنى بشؤون الاقطاع، ويساعده موظفان، واحد يعنى بأمور التيمار ويسمى دفتر دار التيمار، وآخر يعنى بأمور الزعامت ويسمى كاخيا الدفتر(٦٠)، وبانحطاط الاقطاعات وأصحابها وخاصة الجنود السباهية، انحطت الدائرة التى تعنى بالشئون المالية. أى حساب واردات ومصروفات الدولة، وتسمى الدفتردارية، ويرأسها الدفتر دار، وفى البدء كان هناك دفتر داران فى الدولة العثمانية: واحد في الأناضول واخر فى الروميلى وحتى نهاية حكم السلطان سليمان القانوني وجد هناك دفتر دار واحد لولايات بلاد الشام والعراق مركزه حلب، ولقب بدفتر دار عرب وعجم، ثم أقيم دفتر دار خاص بكل ولاية نظرا لتشعب الأمور المالية بها، ويعطى حق جمع الضرائب الى المقاطعجية (٦١).أو الملتزم،

---

(٥٩) الدفترخانه:

اصطلاح مالى يدل على المكان الذى تحفظ فيه السجلات المالية الخاصة بالدخول والمصاريف وتسجل وتتم فيه كل المعاملات الخاصة بالاراضى، وتحفظ فيها السجلات الخاصة بالزعامت والتيمار والاقطاعات الخاصة، وهي تقابل بيت المال قديما أو وزارة المالية حديثاً. وكان يرأس ادارتها «دفترامينى» وتغير هذا الاسم بعد التنظيمات سنة 1839م الى «دفتر خاقانى ناظرى» أى ناظر الدفتر الخاقانى.

ثم أمين الدفتر الخاقانى ثم مدير عام الطابو.

(٦٠) كاخيا اوكتخدا الدفتر.

لقب يمنح للموظفين المكلفين بأعمال الزعامت فى الولايات، وأول سجل رسمى يسجل «دفتر كتخداس» هو قانوننامه محمد الفاتح، وقد سجل فى هذا القانون درجاتهم وكان كتخدا دفتر الروميلي أعلاهم منزلة، ومن مهام وظائفهم هو المحافظة على سجلات مالية الولاية.

(٦١) **مقاطعجي**: اصطلاح مالى يطلق على الموظف المكلف بأمور المقاطعة. وأول سجل رسمى يمر به هذا المصطلح هو قانوننامه محمد الفاتح، كان تعيينه وعزله منوط بالدفتر دار. وعقب الاصلاحات التى تمت بعد اعلان التنظيمات سنة 1839 الغى هذا النظام وأنيط بمهامة الى موظفى الجمارك والمالية.

ويرأس الملتزمين موظف يسمى المحصل، وهو مسئول عن جمع الضرائب مع الوالى فى الولاية، كما هو الحال فى ولاية الشام مثلاً أو منفصلاً عنه كما في ولاية حلب (٦٢).

عندما ازداد الاعتماد على الانكشارية(٦٣) تمركز آغاها في استانبول،

---

(٦٢) د. عبدالكريم رافق، نفس المصدر، ص 47.

(٦٣) الانكشارية: لغوياً: يكى چرى: تلفظ الكاف نونا وتكتب الكلمتان معا هكذا «يكچرى = ينى چرى = ينى تشرى ويطلق عليهم الاربيون» « Janiser» أما عسكريا فهو اسم يطلق على فيالق المشاة النظاميين التى كونها الترك العثمانيون في القرن الرابع عشر الميلادى. وأصبحوا أكبر قوة عندهم مكنتهم من الفتوح الواسعة التى قاموا بها ...

ويطلق عليهم أحياناً اسم «قابى قولى» عبيد الذات السلطانية أو الرقيق السلطانى نظراً لارتباطهم بالسلطان شخصياً.

وكانت هذه التشكيلات العسكرية موجودة عند السلاجقة والمماليك، ولكن العثمانيون أدخلوا عليها الكثير من التنظيم والانضباط خاصة فى عهد السلطان مراد الاول (1360- 1389م) وكان تدريبهم وتعليمهم العسكرى يركز علي الطاعة وتحمل الجوع والعطش والتعب، وترقيتهم مبنية على الشجاعة والطاعة ولذلك أثبتت الانكشارية وجودها فى كل فتوحات الدولة العثمانية سواد في آسيا أو أوروبا.

أما لباس الرأس عندهم فهو قلنسوة من الصوف الابيض تتدلي من خلفها قطعة من القماش رمزا للبركة التى منحها اياهم مرشدهم حاجي بكداش كما يعتقدون. وعلى لباس الرأس شارة عبارة عن معلقة من الخشب. أما ألقاب الضباط فكانت مرتبطة بمختلف مرافق المطبخ كالجورباجى باشى (رئيس طهاة الحساء) وأشجى باشى (رئيس الطهاة) وأهم الاشياء فى الكتيبة هو القدر الكبير (القازان) يجتمعون عنده لا لتناول الطعام فقط بل للتشاور أيضا، وقد كان قلب القدر دلالة على العصيان.

وكانت الفرقة منهم تسمى أو جاق (المعسكر – الموقد) وتنقسم الى وحدات حربية تسمي كل منها «أورطه» فرقة وهى ثابتة العدد مختلفة القوة، تتراوح وفقا للظروف من - 500 - 3000) جندى، وهذه الفرقة تقيم فى ثكنات تسمى «اوضنه» = غرفة .. أما فى ميدان القتال فكانت الفرق تقيم فى سكنات عبارة عن خيام واسعة مستديرة نقشت عليها شاراتهم المميزة لهم.

وكان يرأس الفرقة قائد رتبته «يكچرى آغاسى» آغا الانكشارية، وهو يتولى فوق عمله الخاص أمر الشرطة وحفظ النظام فى المدينة.

وقد تنوعت أسلحتهم الحربية فى دفاعهم وهجومهم تبعاً للزمن. ولكن كثرة مشاكلهم وعصيانهم فى فترات ضعف الدولة ومعارضتهم لكل تطوير فى الجيش بحجة أن هذا بدعة وكل بدعة ضلالة – عندما أرادت الدولة أن تأخذ بالنظام الجديد مما دفع بالسلطان محمود الثانى الى القضاء عليهم فى 9 ذى القعدة سنة 1241 هـ/ 10 يونية سنة 1826م فى «آت ميدانى»، ميدان الخيل بالاستانة فى مذبحة شبيهة بمذبحة المماليك بالقلعة فى مصر» أنظر:

دائرة المعارف الاسلامية، ومحمد باق آلبن، عثمانلى تاريخ ريلمري سوزليكى» ..

وكان مسئولاً عن تعيين آغا الحامية الانكشارية فى مركز كل ولاية. وكانت هذه الحامية تقيم فى القلعة عادة، وتعهد اليها بحراسة اسوار وأبواب المدينة وفى بعض الأحيان الاشتراك فى حملات الوالى المحلية، أو حملات السلطان على الجبهات الرئيسية..

وقد قسمت الانكشارية فى الدولة العثمانية الى فرقة، تسمى احداها «أورطه» ولما كانت كل فرقة تقيم عادة فى غرفة «أوضه» فقد استخدمت هذه الكلمة كبديل عن «أورطه» ويختلف عدد أفراد الاورطه حسب المكان والزمان والحالة السياسية، ويتراوح فى مختلف هذه الحالات بين خمسين وخمسمائة، وألحقت الطريقة البكداشية بالاورطة التاسعة والتسعين ....

والى جانب السباهية والانكشارية وجد الجند الخاص أو المرتزقة، واستخدمهم حكام الولايات، بصورة خاصة، وكانت تدفع نفقاتهم عادة من واردات الولاية، وقد ازداد اعتماد الولاة عليهم بازدياد الفوضى فى صفوف السباهية والانكشارية ...

واختلف أنواع الجند المرتزقة باختلاف الزمان والمكان. وأقدمهم السكبان(٦٤). وقد أطلق هذا التعبير على الجنود الذين استأجرهم العثمانيون أو السلاطين فى القرن الخامس عشر وسلحوهم بالبنادق، واشتهروا فى القرن السادس عشر كرديف للجيش العثمانى، واعتبروا مع الانكشارية. أقوى عناصره، وكانوا يتقاضون الرواتب فى أيام الحرب فقط، أما فى أوقات السلم فقد كانوا يهيمون فى الاناضول يبيعون خدماتهم لمن يطلبها ...

---

(٦٤) السكبان:

فرقة من فرق الانكشارية، كانوا في بداية نشأتهم فى عهد محمد الفاتح مكلفين برعاية وتربية وتدريب كلاب الصيد، ثم انخرطوا فى صفوف الانكشارية وأصبحوا من عمدة المشاة فى الجيش العثمانى وكانت أورطتهم موزعة الى بلوك. وعلى رأس كل بلوك ضابط ورئيسهم يسمي «سكبان باشى».

ولم تكن أنواع الجند المرتزقة فى مصر كما كان الحال فى بلاد الشام وذلك لطبيعة تكوين مختلف القوات فى مصر، فالطوائف العسكرية السبع فى مصر كانت كافية نسبياً للمحافظة على الامن[٦٥]...

التقسيمات الادارية للولايات العربية:

ان أشمل الوثائق عن التقسيمات الادارية فى الدولة العثمانية هى رسالة تركية عنوانها «قوانين آل عثمان فيما يتضمنه دفتر الديوان» وقد ألفها «عين على أفندى» الذى كان أميناً للدفتر الخاقانى، ولذلك كان مطلعا على جميع سجلات الدولة المتعلقة بالامور المالية والادارية...

ويتبين مما جاء فى الرسالة أن الدولة العثمانية كانت تنقسم فى ذلك التاريخ الى 32 أيالة منها 14 كانت عربية ...

ومن استقراء هذه الرسالة يتضح أن هذه التقسيمات لم تجر على أساس تمييز البلاد عن غيرها إداريا، بل سنجد أن بعض المدن العربية كانت تتبع ولايات غير عربية أحياناً، كمدينة نصيبين التى تقع فى سوريا حالياً كانت مركز لواء يتبع ايالة ديار بكر، وسنجار التابع للعراق حالياً كان تابعاً لديار بكر كذلك..

وفيما يلى اسماء هذه الايالات والألوية التابعة لها مع مخصصات أمرائها وعدد التيمارات والزعامات الموجودة فى كل منها ...

1- **ايالة الشام:**

تنقسم إلى 11 لواء، تضم الأيالة 112 مقاطعة من درجة «زعامت» و 868 مقاطعة من درجة «تيمار» وعدد الجند المفروض على أصحاب المقاطعات 2600... جندى.

2- **ايالة طرابلس الشام:**

تنقسم إلى 5 ألوية، وتضم 63 زعامت و 571 تيماراً والجند المفروض 1400 جندى ...

---

(٦٥) د. عبدالكريم رافق. نفس المصدر. ص 50.

3- **ايالة حلب:**

تنقسم إلى 7 ألوية، وتضم 104 مقاطعة من درجة زعامت و 799 مقاطعة من درجة تيمار ... والعساكر المفروضة على أصحاب المقاطعات 2500 جندى ...

4- **أيالة رقة أو الرها:**

تنقسم إلى 6 الوية وتضم 31 زعامت و 530 تيماراً، ومجموع العساكر المفروضة عليها 1600 جندى ...

5- **أيالة الموصل:**

تنقسم إلى 6 ألوية و 271 تيماراً وزعامت ...

6- **أيالة بغداد:**

تنقسم إلى 18 لواء. ويتقاضى والى «باشا» الايالة الذى يكون بدرجة ميرميران = «بكلر بكى» راتباً معيناً «ساليانه» وأما أمراء سائر الألوية فيتصرفون بمقاطعات من درجة «خاص» ..

أما الأيالات التالية فلم تقسم إلى مقاطعات من درجة «خاص» أو «زعامت» أو «تيمار» وكانت ضرائبها وتكاليفها المختلفة تجبى باسم خزينة الدولة مباشرة أو عن طريق الالتزام، وكان يخصص لأمرائها وروءسائها «ألسنوية» أو «الحولية» .. الـ «ساليانه».

7- **أيالة البصرة:**

تبلغ السليانة المخصصة لها1000000 (مليون آقچة).

8- **أيالة الحسا: أو الأحساء**

كان يرسل اليها «ميرميران» يتقاضى سليانه قدرها 880 ألف آقجة ..

9- **أيالة اليمن:**

تضم 9 ألوية، ويقول مؤلف الرسالة أن هذه الآيالة كانت تقع تحت سيطرة الأئمة من وقت إلى آخر ولم يحدد قيمة السليانه المخصصة لها ...

10- **أيالة مصر:**

تضم 13 لواء وكانت سليانتها تبلغ 482 كيسه مصرية ...

11-أيالة حبش أو الحبشة:

وكانت جدة ملحقة بهذه الايالة التى تبلغ سليانتها180000، 1آقجة ..

12- أيالة تونس:

13- أيالة طرابلس الغرب:

14- أيالة جزائر الغرب:

ولم تضف الرسالة أى معلومات عن هذه الايالات الثلاث..

15- إمارة مكة المكرمة:

وقد كانت مستقلة عن التشكيلات الادارية المذكورة، وأنما كانت تختص بالشرفاء. ومما تجب ملاحظته أن العشائر كانت تترك هى الأخرى خارج نطاق النظم الادارية والمالية المعتادة. وكان يعهد بشؤونها إلى أمراء وشيوخ يعينون وفقا للتقاليد المعروفة بين العشائر. ولذلك كان هناك بجانب الـ «ميرميران» والـ «ميرلوا» موظفون يعرفون باسم «مير عشيرت» أى أمير العشيرة ...

إلاَّ أننا فى بداية القرن العشرين، وحسب ما هو مستخرج من (سالنامة دولت علية عثمانية) الكتاب السنوى للدولة العلية العثمانية الصادر فى سنة 1322هـ/ سنة 1904م نرى أن الدولة العثمانية كانت مقسمة الى ولايات، والولاية إلى ألوية، والألوية إلى أقضية، والأقضية إلى نواح، وكان على رأس الادارة فى كل لواء متصرف، وفى كل قضاء «قائمقام»، وفى كل ناحية «مدير ناحية» وكانت البلاد العربية تقسم إلى تسع ولايات وأربع متصرفيات مستقلة، وأيالتين ممتازتين ..

وكان ترتيبها فى الحولية المذكورة كما يلى:

1- ولاية الحجاز:

تضم متصرفتين، وخمسة أقضية وست نواح .. وكان يعهد بمنصب ولاية الحجاز إلى أحد كبار رجال الجيش، ليجمع بين يديه سلطة الولاية مع قيادة الجيش...

وكان متصرف لواء المدينة يُسمى «محافظ المدينة المنورة» وأما متصرف لواء جدة، فكان يسمى «قائمقام الوالى» وكان يتبع لواء المدينة أربعة أقضية هى: ينبع البحر، الوجه، سوار قبة، وعقبة، ويتبع لواء جدة قضاء واحداً هو: معمورة الحميد...

إمارة مكة المكرمة:

كان فى الحجاز منصب سام، يسمى «إمارة مكة المكرمة وكان أميرها ينصب من بين الشرفاء، بفرمان خاص، ويتولى الاشرافُ على شئون الحجاج، والنظر فى قضايا العشائر ...

وكان أمير مكة المكرمة يتمتع – في التشريفات – باسمى مقام، وترسل اليه عطايا السلطان كل عام مع أمين الصرة الشريفة وسط تشريفات واحتفالات يحضرها السلطان بنفسه (٦٦).

2- **ولاية اليمن:**

كانت تضم أربعة ألوية، هى: صنعاء، جديدة، عسير، تعز ..

3- **ولاية البصرة:**

كانت تضم أربعة ألوية: البصرة، منتفك، نجد، عمارة.

4- **ولاية بغداد:**

كانت تضم ثلاثة ألوية هى: بغداد، كربلاء، ديوانية..

5- **ولاية الموصل:**

كانت تضم ثلاثة ألوية، هى: الموصل، كركوك، السليمانية.

6 - **ولاية حلب:**

كانت تضم ثلاثة ألوية، هى: حلب، أروفه، مرعش.

7 - **ولاية سوريا:**

وكانت تضم أربعة ألوية هى: الشام الشريف، حماه، حوران، كرك.

---

(٦٦) اسعد افندى، تشريفات قديمة. نفس المصدر، ص26 ، 27.

8 -**ولاية بيروت:**

وكانت تضم 5 ألوية، هى بيروت، عكا، طرابلس،اللاذقية.

9 - **ولاية طرابلس الغرب:**

كانت تضم خمسة ألوية، هى: طرابلس الغرب، الجبل الغربى، حمص، فزان، غات.

10- **متصرفية القدس الشريف:**

كانت متصرفية مستقلة، تتخابر مع وزارة الداخلية مباشرة دون أن تتبع ولاية من الولايات. وكانت تضم أربعة أقضية. هى: يافا، غزة، بئر السبع، خليل الرحمن.

11- **متصرفية بنغازي:**

كانت متصرفية مستقلة، تتبعها ثلاثة أقضية، هى: درنه، مرج، جالة، أو جالو ..

12- **متصرفية الزور:**

كانت متصرفية مستقلة، تضم أربعة أقضية، هى: رأس العين، عشاره، البوكمال، عربان ..

13- **متصرفية جبل لبنان:**

كانت متصرفية ممتازة، تدار وفق نظام خاص، وكانت تضم ثمانية أقضية (لا تذكرهم الحواية).

14- **أيالة مصر**:

تذكر الحولية الرسمية أسماء الخديوى، والقاضى، ومأمور المصالح التلغرافية، وتبين راتب كل واحد منهم وأنواع الاوسمة العثمانية الممنوحة لهم، ولكنها لا تزيد على ذلك أية معلومات أخرى ... وذكرت أن رتبة الخديوى، هى رتبة الصدارة العظمى...

15- **أيالة تونس:**

وتكتفى الحولية الرسمية بذكر اسم هذه الايالة دون اعطاء أية معلومات أخرى ...

الادارة العسكرية حتى أوائل القرن التاسع عشر:

كانت الممالك العثمانية تقسم من الوجهة العسكرية الى سبع دوائر كبيرة، فى كل واحدة منها جيش كامل من المشاة والخيالة والمدفعية ..

وكانت الجيوش تسمى طبقا لتسلسل هذه الدوائر، الجيش الاول، الجيش الثانى ...

وقد كان مركز قيادة الجيش الأول فى استانبول، وقد كان هذا الجيش يسمى أيضاً «الخاصة الهمايونية»، ومركز الجيش الثانى فى أدرنه، والثالث فى مناستر، والرابع فى أرزنجان، والخامس فى دمشق، والسادس فى بغداد، أما الجيش السابع فقد كان اليمن ...

يتبين مما سبق أن مركز قيادة ثلاثة من هذه الجيوش السبعة كانت فى البلدان العربية..

وفضلاً عن ذلك، كان هناك ثلاث دوائر عسكرية فرعية، تقدم بعض الفيالق، دون أن تكون جيشاً كاملاً، هذه الدوائر كانت فى طرابلس الغرب وكريت والحجاز ...

ويتبين من ذلك أيضاً أن إثنتين من هذه الدوائر الفرعية الثلاث أيضاً كانت فى البلاد العربية ...

كانت الخدمة العسكرية اجبارية للمسلمين من التبعية العثمانية، ولمدة عشرين عاما، تبدأ من سن العشرين، وتستمر حتى الأربعين، وكان الافراد خلال السنوات الست الاولى من مكلفيتهم العسكرية يدخلون فى عداد «العساكر النظامية» فيقومون بالخدمة الفعلية، ولكن فى السنوات الثمانى التي تلى ذلك يعتبرون من صنف «العساكر الرديفة» ويدعون إلى الخدمة، عند مسيس الحاجة، وأما فى السنوات الست الباقية، فيعتبرون من «العساكر المستحفظة» فلا يدعون الى الخدمة الفعلية إلاّ عند الحاجة القصوى ...

وكان كل جيش من الجيوش التى ذكرت آنفاً يضم العساكر النظامية مع ضباطهم من جهة، والضباط الذين تحتاج إليهم العساكر الرديفة والمستحفظة – عند الاقتضاء – من جهة أخرى...

ولما كانت المكلفية العسكرية منحصرة فى المسلمين، فقد كان غير المسلمين «معفين من الخدمة العسكرية» ولكن فى مقابل ذلك كانوا مكلفين بضريبة خاصة، تسمى البدل العسكرى. يدفعونها عند وصولهم السن العسكرية ...

ومع هذا فان الأهالى المسلمين في بعض الولايات أيضاً كانوا يعفون من الخدمة العسكرية، كأهالى ولايات: استانبول وكريت، وجزر البحر الابيض، وطرابلس الغرب، واليمن والحجاز ...

ويتضح مما سبق، أن المسلمين من أهالى البلاد العربية، باستثناء الولايات الثلاث التى ذكرت كانوا يؤدون الخدمة العسكرية مثل سائر تبعة الدولة ....

وقد كانت كل فرقة في الجيش العثمانى تضم لواءين من المشاة فى كل منهما طابور قناصة ...

وكل فرقة تنقسم الى لواءين، وكل لواء الى آلايين، وكل آلاى يتألف من أربعة طوابير ...

أماالجيوش التى كانت فى البلاد العربية فبيانها كالتالى:

الجيش الخامس: « بشنجى أوردى»

دائرة هذا الجيش كانت تضم ولايات الشام وبيروت وحلب وأضنه، ومتصرفتى دير الزور والقدس المستقلتين...

وان هذا الجيش موزع بين مدن دمشق، عكا، حلب، القدس، طرابلس الشام، أورفه، أضنه، مرعش ونابلس ...

الجيش السادس: آلتنجى أوردى:

دائرة هذا الجيش كانت تضم ولايات بغداد، والموصل، والبصرة .. وكانت وحداته موزعة على المدن التالية: بغداد، الناصرية، السليمانية، خانقين، كركوك، رواندوز، الموصل.

أما الخيالة والمدفعية فقد كانت محتشدة فى بغداد وكركوك والديوانية..

الجيش السابع: يدنجي أوردى:

وقد كان خاصاً بولاية اليمن، وكل وحداته، كانت تتألف من عساكر نظامية، وكانت فرقة الحجاز عبارة عن ثلاث آلايات مشاة ونصف آلاى خيالة، وبطارية مدفعية، أما فرقة طرابلس الغرب فكانت عبارة عن لواءين مشاة، وآلايين خيالة، وطابور واحد قناصة ...

وهكذا؛ فإن الدولة العثمانية لم تكن تنظر إلى الولايات العربية نظرة تعال أو استعمار، بل هى التى تحاول التقرب من شعوبها وعلمائها تستصدرهم الفتاوى، وتجل الاماكن المقدسة، صارفة الجهد والمال لرعايتها وصيانتها، مستفيدة من الخبرات والكفاءات الفنية والعلمية، مجلة للغة العربية ومراكزها العلمية، فقد كان جل علمائها يتلقون علومهم العقلية والنقلية فى مراكز الدراسة بالولايات العربية..

واذا كان العثمانيون قد احتفظوا لانفسهم بالمناصب العسكرية والادارية في بعض الفترات فإنهم قد أسلموا قيادتهم الدينية والعلمية والثقافية للعنصر العربى على طول الخط، باذلة كل الجهد لخلق تكتل اسلامى يستطيع أن يجابه التكتل الصليبى آنذاك ..

قوافل الحج فى العصر العثمانى

أ

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤتمر قدسية الحرمين الشريفين



الذى نظمه

المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين العالمية

من ٢٣-٢٥ ربيع الأول سنة ١٤٠٨ هـ - ١٥-١٧ نوفمبر سنة ١٩٨٧م
بمبنى الشبان المسلمين • ١٢ شارع رمسيس القاهرة

قوافل الحج في الدولة العثمانية(*)

لقد كانت السمة الدينية من أهم السمات التي اتسمت بها تشريعات الدولة العثمانية ومعظم تصرفاتها، فقد كان للهيئة الإسلامية وضع معترف به، ومركز مرموق، وكان يطلق علي رئيسها لقب المفتي أو مفتي إستانبول، ثم تغير هذا اللقب إلى «شيخ الإسلام» الذي كان يشرف علي الهيئات القضائية والهيئات ذات الطابع والنشاط الديني، وكان السلاطين أنفسهم حريصين علي تدعيم سلطته، ويعملون علي استغلالها كلما حزبهم أمر، أو أقدموا علي أمر خطير، فقد كان شيخ الإسلام يصدر فتوي تجيز الحرب، دفاعاً، أو هجوما، وعقد الصلح، وغير ذلك من الأحداث الجسام، وكانت الدولة العثمانية بكل منظماتها تهتم اهتماماً بالغاً بنشر التعبئة الروحية بين أفراد القوات المسلحة، وإثارة عاطفتهم الدينية وصولاً إلى تسخين الجنود روحيا، ورفع معنوياتهم قبل خوض المعارك(١).

ولقد اعتمد العثمانيون المذهب الحنفي مذهبا رسمياً للدولة، ولعب المفتون في إستانبول، وفي مراكز الولايات، دوراً هاماً في مختلف المجالات، وكانت الأولوية في بدء الدولة العثمانية للقاضي عسكر أي قاضي الجنود الذي كان يرافق الجيش المحارب، ثم أصبح المفتي رئيساً للعلماء في عهد السلطان سليمان القانوني (١٤٩٥ - ١٥٦٦م - ٩٠١ - ٩٧٤هـ) وكان تلقبه بشيخ الإسلام مبنيا علي الدور الذي لعبه في التوفيق بين القوانين

(*) ألقي هذا البحث في مؤتمر قدسية الحرمين الشريفين ضمن الندوة التى نظمها المركز العام لجمعية الشبان المسلمين العالمية من ٢٣ - ٢٥ ربيع الأول سنة ١٤٠٨هـ ١٥ - ١٧ نوفمبر سنة ١٩٨٧م بمبنى الشبان المسلمين بالقاهرة. وأختير ضمن أحسن البحوث وطبع معها في طبعة أخري خاصة قامت بطبعها وحدة بحوث اللغات الإسلامية المنبثقة عن مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية. الطبعة الأولي سنة ١٩٨٨م، إلي جانب طبعة فى الكتاب الذي احتوي على كل ابحاث الندوة والصادر سنة ١٩٨٩م.

(١) أ.د/ عبدالعزيز الشناوي، الدولة العثماية دولة إسلامية مفتري عليها، جـ١ القاهرة ١٩٨٠م، ص ٥٤.

التي أصدرها سليمان القانوني وبين الشريعة، وكان يحق لمفتي إستانبول إصدار فتوي بعزل السلطان نفسه، كما أنه هو الذي يعين المفتين في مراكز الولايات.

كانت الأولوية بين القضاة للقاضي الحنفي، والذي كان يعين أيضاً في مراكز الولايات العربية من قبل قاضي عسكر الأناضول في إستانبول، وكان قاضي دمشق من أبرز قضاة بلاد الشام، واعتبر في مستوي قاضي مصر، علي اعتبار أن المدينتين كانتا عاصمتين سابقتين للخلافة، وقد تلقب بقاضي القضاة، وأقام في المحكمة الرئيسية، وله نواب يصرِّفون شئون القضاء في المحاكم الفرعية.

في هذا المناخ، نبغ عدد من العلماء العثمانيين، واحتلوا منصب شيخ الإسلام، أمثال شيخ الإسلام ابن كمال صاحب المكانة المرموقة منذ أيام سليم الأول، وأبوالسعود أفندي صاحب التفسير وسلطان المفسرين(١)، واحتلت اللغة العربية المكانة الأولي في نفوس الأتراك، وكان يدرس بها كل العلوم الدينية والتطبيقية(٢)، بل كان العالم التركي يؤلف كتبه باللغة العربية أولاً، وإذا ما أراد لها الانتشار بين بني جلدته ترجمها بعد ذلك إلي التركية(٣)، بل تولي أمر الخلافة الإسلامية من السلاطين العثمانيين اثنان وثلاثون سلطاناً خليفة، جمعوا في أيديهم السلطتين الزمنية والروحية ودعي لهم علي منابر العالم الإسلامي السنين الطوال، ٤٠٦ سنة(٤).

---

(١) مستقيم زاده سليمان سعد الدين، دوحة المشايخ مع ذيل، جاغري يايبنلرى إستانبول ١٩٧٨م. ص ٢٣.

(2) Ismail Hakki uzunçarşılı, Osmanlı Devletinin ilmiye Teşkilati, Ankara, 1963, s, 39.

(3) prof. A. Adivar. Osmanlı. Türklerinde ilim, Ist. 1973, 13. Mehmet zekipakalın Osmanli Tarih Deyimleri ve Terimleri sözlüğü. Istanbul, 1983. s. 281.

(٤) أ.د محمد فؤاد كوبرلي، قيام الدولة العثمانية. ترجمة أ.د. أحمد السعيد سليمان. القاهرة سنة ١٩٦٧.

وقد كان من مظاهر اهتمام الدولة العثمانية بالدين والعالم الإسلامي هو اهتمامها بمنصب نقيب الأشراف، الذي ورثته عن المماليك والسلاجقة، فقد كان هناك نقيب الأشراف في مركز الولاية، ويعين من قبل نقيب الأشراف في إستانبول. ومن مظاهر العناية الإسلامية بالطابع الديني أيضاً العناية الفائقة التي أبداها السلاطين بإنشاء وتجديد العديد من المساجد الكبري، ورصد الاعتمادات المالية الضخمة لذلك.

كما كان الاهتمام الكبير بالحجاز من السمات التي حافظ عليها كل السلاطين العثمانيين، فقد كانت تبعية الحجاز ومايحويه من أهم الأماكن الإسلامية المقدسة للدولة العثمانية، مما أضفي عليها مركزاً دينياً مرموقاً، في جميع أرجاء العالم الإسلامي. وقد أعفت الدولة العثمانية منطقة الحجاز من أداء الضرئب، بل أقر له سليم الأول ثلث ماكان يجبي من مصر[١]. كما أوقف خراج اليونان عند فتحه علي الحرمين الشريفين. ولم يكن الاهتمام وقفاً علي الأماكن، بل تعدّاها إلي المواطن، فقد أعفي سكان الحجاز من التجنيد[٢]، وأبقت الدولة علي الحكم الذاتي المتمثل في نظام الشرافة، وكل ماكانت تفعله، أن ترسل فرماناً تحدد فيه إمكانات واختصاصات وواجبات الشريف الجديد عند تعيينه[٣]، وتوصيه ببعض الوصايا التي كانت تنصب في أغلبها علي حماية الحجاج في أموالهم وأرواحهم، وأن يقسم بالعدل الصرة الهمايونية بين الأهالي، وكذلك المؤن القادمة من مصر، وأن يسعي لبسط الأمن علي الطرق، وكان أمير مكة المكرمة يتمتع - في التشريفات - بأسمي مقام في صف الصدر الأعظم في الآستانة والخديوي في مصر[٤] وترتب له العطايا من قبل السلطان[٥]. كما قامت الدولة العثمانية بالأخذ

---

(١) د. عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، دمشق ١٩٧٤، ص٦٣ - ٦٧.

(٢) د. عبد العزيز الشناوى، مرجع سبق ذكره، ص٦٠.

(3) Islam Askilo pedisi cilt 2 Istanbul, 1964.

(٤) ساطع الحصرى، البلاد العربية والدولة العثمانية، دارالعلم، بيروت (بدون تاريخ) ص٢٤١.

(٥) أسعد أفندى، تشريفات قديمة، چاغرى يايتلرى، إستانبول ١٩٧٩، ص٢٤.

بنظام الفتوة الذى يعد الطابع الإسلامى للفروسية العربية، والذى ورثته عند قيامها فى الأناضول، وقد خالطهم ابن بطوطة، ووقف على نظامهم، وتعرّف على زواياهم وأسلوبهم فى الحياة، وتحدث عنهم فى «تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» وقد كانوا جميعا معتنقين للمذهب السنى، واستفادت منهم الدولة فى حروبها مع الدويلات والثغور المتاخمة.

ولكن الذى أولته الدولة العثمانية جل اهتمامها، هو قوافل الحج والإشراف المباشر والفعلى على الحج، واعتبرت هذا العمل واجبا يقع على عاتقها، باعتباره الركن الخامس من أركان الإسلام، وأن عليها تيسير الحج أمام الراغبين فيه، فأنشأت قوافل الحج، وشجعت على إقامة الخانات، وأقامت المخافر، وكانت تشرف على قوافل الحج الرئيسية التى كانت تخرج من كافة أنحاء الدولة فى مواعيد محددة كل عام، وتضع لها قوة تحرسها، يقودها أحد كبار العسكريين، الذى كان يسمى سردار الحج. وكان على رأس كل قافلة أمير للحج، وكثيراً ماكان أمير الحج يتولى قيادة الجيش المرافق للقافلة، وخاصة قافلة الحج الشامى(١).

وكانت أهم قوافل الحج فى العهد العثمانى:

(١) **قافلة الحج الشامى:** وتضم حجاج بلاد الشام والجزيرة وكردستان وأذربيجان والقوقاز والقرم والأناضول والبلقان، وحجاج إستانبول نفسها، وكان عددها يتراوح مابين ثلاثين وخمسين ألفاً.

وقد كان السلطان العثمانى يشرف بنفسه على ترتيب وإعداد هذه القافلة وخروجها من مدينة إستانبول. وتقطع الطريق التجارى حتى تصل إلى دمشق، ومنها إلى أراضى المؤابيين القدماء، ومن بلاد معن عبر صحراء مزريب إلى مدائن صالح حتى تصل القافلة إلى المدينة المنورة.

---

(١) وثيقة رقم أ ٢٧٣٨ الأرشيف التركى، ٤٧٧/٢/١ أرشيف المركز الوطنى السعودى - دارة الملك عبدالعزيز بالرياض.

وكان السلطان العثماني يصدر أوامره إلى الولاة لتسهيل مهمة مرور القافلة، وأن يتولى مهام حراستها حتى تصل إلى حدود الولاية المجاورة، فيتولى الوالي الجديد استقبالها وتأمين مسيرتها عبر ولايته، حتى تصل سالمة إلى نهاية ولايته وهكذا.

وقد كانت القافلة وعلى رأسها أمير الحج تعبر هذه الولايات وسط حفاوة واهتمام بالغ، ويتسلم أمير الحج بصك شرعي أموال الأوقاف والهدايا المرسلة إلى أهالي الحرمين الشريفين، وإلى الحرمين الشريفين ذاتهما، من سجاد ونجف ومصابيح وشمعدانات ومواد غذائية وماشابه ذلك.

(ب) قافلة الحج المصري: وتضم حجيج مصر وشمال أفريقيا، وكانت من أهم القوافل خلال العصر العثماني، حيث كانت تضم المحمل المصري وكسوة الكعبة المشرفة الجديدة. وكانت تتحرك من القاهرة خلال الأسبوع الأخير من شوال من كل عام، وسط احتفالات عظيمة تتم تحت إشراف الوالي نفسه. وتقطع المسافة في ٣٧ يوماً، سالكة طريق السويس وسيناء والعقبة ثم تلتقي في بعض الطرق مع قافلة الحج الشامي، وفي بعض السنوات كانت تستقل السفن من السويس إلى جدة، أو من الموانى المصرية المواجهة لجدة.

(جـ) قافلة الحج العراقي: وتضم حجاج العراق وفارس، وتسلك الطريق الذي يعبر جزيرة العرب نفسها. وكان كثير من حجاج فارس والخليج العربي واليمن يفضلون طريق البحر والسفن البحرية.

(د) قافلة الحج اليمني: وتضم حجيج اليمن والهند وماليزيا وأندونيسيا، وينضم إليهم حجاج الجبشة والصومال والأفارقة الذين يصلون إلى مصوع وسواكن وموانئ اليمن.

كانت القوافل تضم عناصر مختلفة، ففيها الأمراء، والأثرياء، والتجار ومعهم تجاراتهم، والفقراء والمعدمون(١)، وكان كلٌّ حسب قدرته يرافق القافلة، وفيها الهودج وفيها الجمال والخيول، وفيها الرجالة من البدو والفقراء.

وقد كان الولاة يقومون باستئجار الجمال والخيول لحمل مهمات القافلة، ويتعاقدون على ذلك قبل موسم الحج بوقت كافٍ، ويتفقون على ذلك مع مشايخ الأعراب والبدو الذين يعيشون فى المناطق التى تسلكها القوافل.

وأهم الطرق التى كانت تسلكها القوافل بين الحرمين الشريفين بيانها كما يلى:

١) **الطريق السلطانى:** أى الطريق الرئيسى، وكان على حجاج القافلة التى تسلك هذا الطريق أن يتجمعوا عند وادى فاطمة بالقرب من مكة المكرمة للاتجاه إلى المدينة المنورة. ويتزود الحجاج فيها بما يلزمهم، ثم يتجهون إلى بئر عسفان، وتسلك طريقها حتى تصل إلى رابغ التى تفترق عندها الطرق، وإن كان أكثرها استعمالا هو الطريق السلطانى.

كان الجمّالة هم الذين يحددون أماكن التوقف، وكانوا يفضلون تلك التى بها آبار للتزود بالمياه. وتعودت القوافل أن تدخل المدينة فى اليوم السادس من خروجها من رابغ. وهذا الطريق السلطانى هو المعتاد بالنسبة لقوافل الحج وقوافل المحامل، وبالرغم من قلة مياهه إلاَّ أن مطالعه ومنازله الوعرة كانت شبه معدومة، ولكن كانت تبعد عنه بعض الشئ، سلاسل جبلية مكنت بعض عربان البدو من مهاجمة هذه القوافل، بل كان يصل الأمر إلى سيطرتهم على هذه الطرق من حين لآخر، ويمكنهم ذلك من السطو على أموال القوافل المترددة عليها، وربما وصل الأمر فى بعض الأحيان إلى القتل والسلب معا، مما دفع قوافل الحجاج المسلمين ومواكب التجار إلى أن يسلكوا الطرق المسماة بالطرق الفرعية لعمرانها وعدم خطورتها.

---

(1) Dr.. Saleh M. Al - Amr. The Hitaz under Ottoman Rule. 1869 - 1910. Riyad Uni. Publications. 1978. p 75.

٢) ***الطريق الفرعى:*** هو الطريق المؤدى من رابغ إلى المدينة المنورة عن طريق «بريدة». والذين يودون السفر عن طريق الطريق الفرعى يتجمعون عند «المرحلة»، التى تسمى آنذاك «بئر رضوان» وهى تبعد مسيرة ثنتى عشرة ساعة عن رابغ، ويتزودون بالمياه والمؤن، ثم يسلكون الطريق مارين بقرية «أبى ضياعة» و «ريان» و «أم العيال» و «مضيق» و «صمد»، ثم تمر القوافل من المنطقة المنخفضة التى تسمى الغدير التى تتجمع فيها مياه الأمطار فتحولها إلى مايشبه البحيرة.

وتسكن قبيلة بنى عوف المشهورة بنجدتها ونخوتها المناطق المجاورة لمناطق هذا الطريق، ورجالات هذه القبيلة يقومون بكف الأذى عن المسافرين من هذا الطريق، وتنال هذه القبيلة كقبيلة بنى حرب العون والتأييد من الدولة العثمانية، وعلى هذا الأساس فإن أكثر القوافل ومواكب المحمل الشريف كانت تفضل المرور من الطريق «الفرعى» هذا وسلوك دروبه.

الطريق الفرعى الثانى المؤدى إلى المدينة المنورة هو طريق غابر، وبالرغم من أن المسافة عبر هذا الطريق كانت تقطع فى خمسة أيام من مكة إلى المدينة، إلاَّ أنه جبلى، كثير المطالع والمنازل، مما جعله صعب المنال بالنسبة للجمال التى غالبا ماتكون محملة بأشياء ثقيلة، وتجعل قطع الطريق مرهقا، كما أن كثرة الجبال تجعله مرتعا لقطاع الطرق والأشقياء، مما يدفع الجمالة إلى الابتعاد عنه وعدم سلوكه، إلاَّ أن قصره بالنسبة للطريق السلطانى والطريق الفرعى تجعل منه معبرا مطروقا من قبل المشاة، أو من يمتطون صهوة الخيول، أو من قبل فرسان الخيالة والهجانة التابعين لقوة الدولة العثمانية، والمنوط بها حفظ الأمن وحماية مكة المكرمة والمدينة المنورة، وتورد بعض كتب التاريخ أن النبى محمداً ﷺ قد سلك هذا الطريق عند هجرته الميمونة إلى المدينة المنورة[١].

---

(١) أيوب صبرى باشا، مرآة جزيرة العرب، ترجمة وتقديم وتعليق أ.د. أحمد فؤاد متولى، أ.د. الصفصافى أحمد المرسى ج٢، دار الرياض للنشر والتوزيع ١٤٠٢هـ - ١٩٨٣، ص٢٠١.

تخرج القوافل من رابغ إلى «بئر مبيرك» ثم إلى «رصفه» ومنها إلى «غابر» حيث المياه الجارية عند حافة الجبل فى أكثر الأحيان.

وهناك أيضا الطريق الشرقى الذى يربط المدينة المنورة ومكة المكرمة، وهو طريق كبير ومتسع إلى حد ما، وكثيرا ماتسلكه القوافل المترددة بين المدينتين المقدستين، وهو الطريق المفضل عند قوافل المحمل، والقوافل التى كانت تحمل الصرة، وخاصة فى المواسم التى كانت تشتد فيها الحرارة، وتزداد فيها حملات الخارجين على القانون، وتسلطهم على الطرق الأخرى.

وعرف بهذا الاسم لوقوعه على الطرف الشرقى من بلاد الحجاز، وتصل القوافل التى تقطع هذا الطريق إلى مرحلة بئر الليمون بعد مسيرة أربع عشرة ساعة، ثم بئر برود الذى تفضل القوافل الاستراحة عنده، والتزود من مياهه العذبة، وبعد المرور من بضع آبار ومراحل أخرى تصل القوافل إلى «بركة زبيدة»، وهى البركة التى أمرت السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد بتشييدها لتتجمع فيها مياه السيول فى هذه المنطقة، ولكى تنتفع القوافل والمارة من هذه المياه لخلو المنطقة من الآبار التى يمكن أن تفى بالحاجة.

ومن مميزات الطريق الشرقى أنه لايمر فى معظمه بطرق جبلية بل فى مناطق صحراوية منبسطة.

ومن الطرق الفرعية التى تسلكها القوافل بين المدينة المنورة ومكة المكرمة أيضا طريق ينبع البحر. فينبع البحر تعد مرفأ المدينة المنورة. والقوافل المتجهة إلى البلدة الطيبة تصل أولا إلى «بئر سعيد» ثم قرية «صفراء»، وعند هذه القرية يلتقى طريق ينبع البحر مع الطريق السلطانى، ومن ينبع حتى طيبة الطيبة خمس مراحل سيرا بقوافل الجمال. والمعروف أن المرحلة هى مسيرة يوم واحد بالجمال، أى مسيرة سبعة وعشرين ميلا، وتمر القوافل التى تسلك هذا الطريق بقرية بدر المباركة. ويقرأون الفاتحة

على أرواح شهداء بدر الكبرى، وهذا الطريق سهل ومستوٍ مما يشجع القوافل على عبوره.

أما أشهر الطرق المؤدية إلى مكة المكرمة، وكانت تسلكها قوافل الحج القادمة من بلدان العالم الإسلامي فكانت سبعة طرق، وبيانها كالتالي:

١) طريق الشام:

هو الطريق الذى كانت تسلكه قوافل الحج القادمة من الشام وكذلك قافلة محمل الشام. وكانت قافلة الشام تتحرك فى أغلب المواسم فى الخامس عشر من شوال تحت رئاسة أمير الحج، والتى كان يتولاها فى العادة والى سوريا. وقبل التحرك يتم احتفال كبير ينظمه قائد الجيش الخامس، وبعد القيام بالتشريفات المعهودة فى مثل هذه الأمور تخرج القافلة من الشام من «قبة الحاج»، التى كانت تعد نقطة البدء للقافلة، ومنها إلى الكسوة حيث ينضم إليهم الحجاج الذين تجمعوا فى «مذيريب»، ثم تتجه مجتمعة إلى مرحلة خان ذى النون، وفيها تقدم وجبة ساخنة إلى الحجاج والقوة المرافقة لهم من وقف «ابن الحصن».

ومن المناطق التى تمر بها القافلة عبر هذا الطريق منتزه مذيريب فى حوران، وبجوار عين مذيريب أمر السلطان سليم الأول ببناء قلعة - مازالت أطلالها باقية حتى الآن - لحماية قافلة الحج، ثم الزرقاء فبلقا، ثم قطران حيث القلعة التى شيدها سليمان القانونى بجوار البركة التى أمر بإعادة تطهيرها بعد أن كانت قد تساوت مع الأرض. ومن قطران تتباع القافلة سيرها حتى الكرك، ثم عنيزة، فقلعة معان. وهذه المنطقة تسجل كتب التاريخ أنها كانت مقر إقامة بنى أمية، وأمر السلطان سليمان القانونى بإقامة قلعة وحفر بئر فيها، ومن معان إلى ظهر العقبة، نحو «ذات الحج»، وفى ذات الحج أو حجر هذه أمر القانونى بإقامة قلعة لحماية القوافل من غارات البدو والأعراب. وتشتهر بتمورها وثمارها الجيدة، ومنها إلى «قاع البسيط» فتبوك ثم أخيضر التى تقع فى منتصف المسافة بين مكة والشام، وقد كلف

السلطان سليمان القانونى عند جلوسه على العرش سنة ٩٢٦هـ - ١٥٢٠م واليه على الشام مصطفى باشا ببناء قلعة أخيضر، وبعدها تصل القوافل إلى بركة المعظم، ثم جبل الطاق الذى عقرت فيه ناقة النبى صالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، ثم مبرك الناقة، ثم قرى صالح؛ ثم ديار ثمود، وهى تلك المنازل التى نحتت فى الجبال، وفيها مسجد النبى صالح، ومنها إلى العلا التى تبعد عن المدينة المنورة بست مراحل، وهى من ملحقات المدينة المنورة، وأمر السلطان القانونى بتجديد قلعتها وحصنها لحمايتها من غارات الأعراب، ومنها إلى شعب النعام ومنزل فحلتين، ثم وادى القرى الذى تكثر فيه المياه والغابات، وأبيار على ﷺ، وفيه يحرم الحجيج جميعا. ومنها تمر القوافل بقبور الشهداء، ثم الجديدة وقاع البرو وبلاد طارق وعقبة السويق، وفيها يسكن أعراب زبيد الذين خصصت لهم الدولة العثمانية صرة خاصة بهم لتكف أذاهم عن قوافل الحج والعمرة. ومنها إلى عسفان حيث الآبار النبوية المأثورة، وبعدها تدخل القوافل إلى مكة المكرمة فى أوائل ذى الحجة من كل عام، بعد أن تكون قد قطعت المسافة من المدينة فى مائة وست ساعات.

٢) طريق مصر:

وقد جرت العادة منذ القدم أن يصحب أمير الحج المصرى المحمل وسط احتفال كبير من القاهرة متجها إلى بركة الحاج، وهناك يلتقى بجموع قافلة الحج المصرية، حيث يتجهون سويا إلى هدف البويب، ثم يتجه الموكب بعد ذلك إلى الحمرا، حيث أقامت السلطات المعنية آنذاك عدة أبنية وفسقية ماء ليتزود منها الحجاج، ومنها إلى بركة عجرود التى تقع تجاه السويس وتسمى أيضا «عيون موسى»، وكان بها خان كبير منذ زمن قانصوه الغورى، ثم تتحرك القافلة إلى منصرف، وفيها بعض المنخفضات التى يظن أن ملوكا سابقين قد حفروها فى العصور الغابرة للربط بين البحرين الأبيض والأحمر، وهى التى حفرت مكانها قنال السويس، ومنها إلى قبيبات.

ثم أول التيه حيث على الجانب الأيمن جبل الطور والجانب الأيسر جبل العريش، وفى وادى النعمان قام والى مصر على باشا بتوسيع الحصن والفسقية لخدمة الحجاج، ويقوم الحراس بملء حوض الفسقية قبل وصول الحجاج، وبعدها تتابع القافلة سيرها حتى مغارة شعيب وعيون القصب وشرم ومويلحة، وفيها دار قايتباى، ثم بطن كبريت فأزلم فالوجه فجبل الزيت حتى ينبع، وتستمر القوافل من العقبة حتى رابغ، ثم تواصل سيرها في الطريق المعروف حتى مكة.

٣) طريق عدن:

تخرج القافلة وسط احتفال مشهود من لحج إلى يكرد، ثم تعز، ثم وادى الحسنا، ثم تنزل القوافل إلى «حيس». وكان المحمل اليمنى يخرج من عدن عندما كانت تحت الإدارة العثمانية، ومنذ سنة ٩٦٣هـ بدأ الوزير مصطفى باشا والى اليمن فى تنظيم موكب المحمل الشريف باسم محمل صنعاء اليمن على إثر صدور فرمان له بهذا الصدد.

يتحرك الموكب من حيس إلى زبيد فرفع، ومنها إلى بيت العقبة الصغير، ومنها إلى قطيع، ثم المنصورية، ثم يتابع الموكب سيره فى الطريق المعهود.

أما حجاج شحر فإنهم يتجهون إلى حضر موت برا، إلى صنعاء، ثم ينضمون هناك إلى قافلة صنعاء، ويتجهون سويًا إلى مكة المكرمة، ومن شحر إلى حضر موت خمسة منازل، ومنها إلى صنعاء أربعة منازل. وعلى حجاج ظفار الذين يودون الاتجاه إلى صنعاء برًا أن يقطعوا خمس عشرة مرحلة سيرا، ثم ينضمون إلى جموع الحجيج التى احتشدت هناك لمواصلة المسيرة سويا.

٤) طريق عمان:

يمثل طريق عمان الطريق الرابع بين الطرق التى تسلكها قوافل الحج الإسلامية. ويتجه حجاج عمان بعد أن يخرجوا من حصن المدينة إلى

«تروى»، ثم إلى «عجلة»، ومنها إلى «عصوه»، ثم بئر السلاح، وبعد ذلك تشد الرحال نحو مكة، والطريق من الحصن حتى مكة عشرون مرحلة، ولكن لصحراويته وندرة مياهه فإن حجاج عمان يفضلون التوجه والعودة بطريق البحر.

٥) طريق الحسا:

وهو الطريق الذى كانت تسلكه جموع حجاج نجد والجزيرة مارين بالدرعية فشعرا ثم مرقب، ومن هناك مرورا ببعض المراحل، حتى ذات عرق حيث مكان إحرام سكان نجد فساحة الكعبة المشرفة.

٦) طريق البصرة.

تتحرك القافلة من البصرة إلى الدرهمية، ثم إلى صفوان، ثم إلى منزل «جهر»، وتحط رحالها للتزود بالمياه والمؤن، ثم تتجه إلى حصن النبى موسى الموجود فى «أضافا»، وبعدها تتحرك القافلة مارة بالعديد من المواقع والمنازل، حتى تصل أيضا إلى «ذات عرق»، التى تعد ميقات حجاج نجد والبصرة، حيث يحرمون فيها ثم يتجهون إلى بستان بنى عامر، فمكة المكرمة حيث بيت الله الحرام.

٧) طريق بغداد:

يتجمع حجاج فارس وأذربيجان وكردستان وغيرها من هذه المناطق فى بغداد، وتتحرك القافلة من بغداد حتى تنزل بهضبة (صرصران)، فينضم إلى الموكب جموع أخرى من الحجاج متجهين نحو هضبة (قراشر)، ومنها إلى شط الفرات، ثم إلى الكوفة، فمشهد على، المسمى (سد بيداء النجف)، ومنه إلى «متعب»، ومن هناك إلى «فرع» مرورا بكثير من المراحل، حتى يلتقى بقافلة واسط فى المكان المسمى «ثعلب»، ثم تتابع القافلة سيرها.

ويزدان الطريق من بغداد إلى مكة المكرمة بالأبنية وأسبلة المياه والخانات وغيرها من الأبنية رفيعة المستوى، وخاصة تلك التى أمرت ببنائها

السيدة «زبيدة» زوجة هارون الرشيد العباسى. والسلطان ملكشاد السلجوقى[١]. وقد حافظ عليها وعنى بها السلاطين العثمانيون جميعا.

ولحماية طرق هذه القوافل كانت الدولة العثمانية تقيم الحصون والقلاع والمخافر على طول الطرق، وتوفر لها القوات التى تقوم بالحراسة وكسر شوكة قطاع الطرق والبدو والخارجين عليها، وأقامت فى المدينة المنورة قلعة كبيرة وفرت لها القوات اللازمة لحفظ الأمن فى المنطقة، كما كان محافظ المدينة يختار من بين كبار الضباط الذين يستطيعون القيام بالمهام المنطة بهم على أحسن وجه، وكان يجمع فى يديه بين السلطة المدنية والعسكرية، وأحيانا كان يلقب المحافظ بشيخ الحرم النبوى[٢]، كما أنشأت الدولة العثمانية قلعة فى مكان مناسب من مضيق الجديدة بناء على طلب من الأهالى لحفظ الأمن، وإنهم طلبوا آلايين من الخيّالة الشاهانية النظامية للحفاظ على القلاع المذكورة، وإن جنود البيادة أى المشاة هم الذين كانوا يقومون بحفظ الضبط والربط فى المدينة، وهم الذين يتسلمون أبواب القلعة، وإن الدولة العثمانية هى التى كانت تتحمل مصاريف هذه القوات[٣]، وإنها أى القوات كانت تتدخل لحسم أى نزاع داخل المدينة، كما كانت تقوم بالدفاع عنها ضد أى تهديد من البدو أو الفرق الدينية الخارجة.

وبعد افتتاح خط سكة حديد الحجاز سنة ١٩٠٨م = ١٣٢٦هـ حاولت الحكومة العثمانية أن توقف الإعانات التى كانت تقدمها إلى عشائر البدو، ولكن هذا دفع بالعشائر القريبة من المدنية أن تثور ضد الأتراك فى المدينة، فتراجعت الحكومة واستمرت فى دفع هذه الإعانات حتى تحمى خط السكة الحديد أكثر من حمايتها للقوافل[٤]. كما كان الجيش السابع الميدانى

---

(١) أيوب صبرى باشا، مرآة جزيرة العرب، مرجع سبق ذكره ص٢٢٣.

(2) Cengiz Orhunlu, Habeş Eyaleti, Istanbul 1974, Giris.

(٣) وثيقة رقم ٥٩ من دفاتر المهمة، أرشيف رئاسة الوزارة فى تركيا.

(٤) د. صالح العمر. الحجاز تحت الإدارة العثمانية ١٨١٩ - ١٩١٠ - مرجع سابق ذكره ص٣٧.

خاصاً بولاية اليمن، وكانت وحداته كلها تتألف من عساكر نظامية، وكانت فرقة الحجاز المرتبطة بهذا الجيش عبارة عن ثلاثة آلايات مشاة ونصف آلاى خيالة وبطارية مدفعية [١]. وقد حرصت الدولة على وضع محطات حراسة بجوار آبار المياه على طرق القوافل، وخاصة قافلتى الحج الشامى والمصرى[٢].

ولوقف التهديدات الخارجية لقوافل الحج والأماكن المقدسة قامت الدولة العثمانية بعمل حزام أمن حول الحجاز، يمتد هذا الحزام من سواكن وموانئ اليمن وخليج البصرة وجدة والسويس، ولقد وضعت الدولة فى حسبانها أيضاً حماية طرق التجارة الشرقية الوافدة من الهند، وماكانت تحققه من أرباح مادية طائلة، ولذلك عملت على تأمين السيطرة على البحر الأحمر، والسعى الجاد فى بسط الضبط والربط فيما بين الهند والبحر الأبيض المتوسط. وكان لابد من تحييد الصفويين فى إيران، والذين كانوا يحاولون خلق تكتل يحول دون اتصال العثمانين بالشرق، وعليهم أن يؤمنوا الاتصال البحرى مع الشرق وبلادهم كالهند وتركستان. وقد كان البرتغاليون الذين يسعون إلى السيطرة على تجارة الشرق هم أقوى المنافسين للدولة العثمانية[٣]. ولذلك وضع العثمانيون سواحل اليمن والحجاز تحت الإدارة الفعلية للبحرية العثمانية [٤]، ووضعوا تنظيماً محكماً للأسطول العثمانى فى هذه المياه، بعد أن ورثوا البحرية المملوكية فى هذه المناطق.

---

(١) د. الصفصافى أحمد المرسى، الدولة العثمانية والولايات العربية، الدارة عدد ٤ السنة الثامنة رجب سنة ١٤٠٣هـ.

(٢) نبيل رضوان، الدولة العثمانية وعرب الجزيرة العربية ط١. ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م. ص٢٦.

(3) prof. I. H. Uzunçarşılı, Mekke-i Mükerreme Emirleri, Ankara, 1977, s. 6 - 19.

(٤) سلاحشور. فتحنامة ديار عرب، نشر د. صلاح الدين طافل، تاريخ وثيقة لرى عدد ١٧ إستانبول ١٩٥٨، ص٤٥١.

وكانت الدولة العثمانية فيما بعد تسعى لتطوير وتنظيم موانئ جدة والحديدة وينبوع، وإقامة الأرصفة والمرافئ، وإقامة الفنارات، وجعلت هناك أسطولا مقيما من السفن العثمانية للعمل بشكل منتظم بين السويس وعدن، وكانت هناك تقارير تقدم من حين لآخر إلى السلاطين العثمانيين، تطالب بضرورة إصلاح وتنظيم وحماية الموانئ الممتدة من العقبة حتى باب المندب، كما كانت هناك سفن بريدية «بوسته» تعمل بانتظام بين إستانبول والحديدة، لنقل البريد والجنود بين موانئ البحر الأحمر والحجاز[١].

ومن الأمور التي كانت تتصدى لها الدولة العثمانية بحسم هي محاولات الشيعة في إيران التدخل في شئون المناطق المقدسة في كل من الحجاز والعراق. فمن الثابت بالوثائق المتعددة أن شاه إيران قد حاول استغلال النزاع الذي نشب بين الأمير محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبدالوهاب من جانب، والدولة العثمانية من جانب آخر، والتدخل بحجة القضاء على الوهابيين لتعدياتهم على الأماكن المقدسة في المدينة والنجف وكربلاء، ولكن الدولة العثمانية كانت من اليقظة والبعد السياسي ماجعلها تفطن إلى أهداف حكام إيران الحقيقية وتحول دون تمكينها من ذلك، وكانت تصدر أوامرها المشددة إلى والي بغداد والبصرة للتصدي لمثل هذه المحاولات، وتمدهم بالمعدات والقوات التي تمكنهم من التصدي لهذه المحاولات الشيعية المشبوهة. بل تطورت الأمور إلى تسيير الجيوش إلى هذه المناطق، للحد من التغلغل الشيعي في الحجاز، والذين كان من الواضح أنهم يودون السيطرة على الحرمين الشريفين والأماكن الدينية في النجف وكربلاء، وبالتالي السيطرة على طرق قوافل الحج للسيطرة عليها خلال مواسم الحج، وفتحها أمام التدفق الشيعي المشبوه.

---

(١) حجاز سياحتنامه سي، ص٢٥١ ، ٢٥٢.

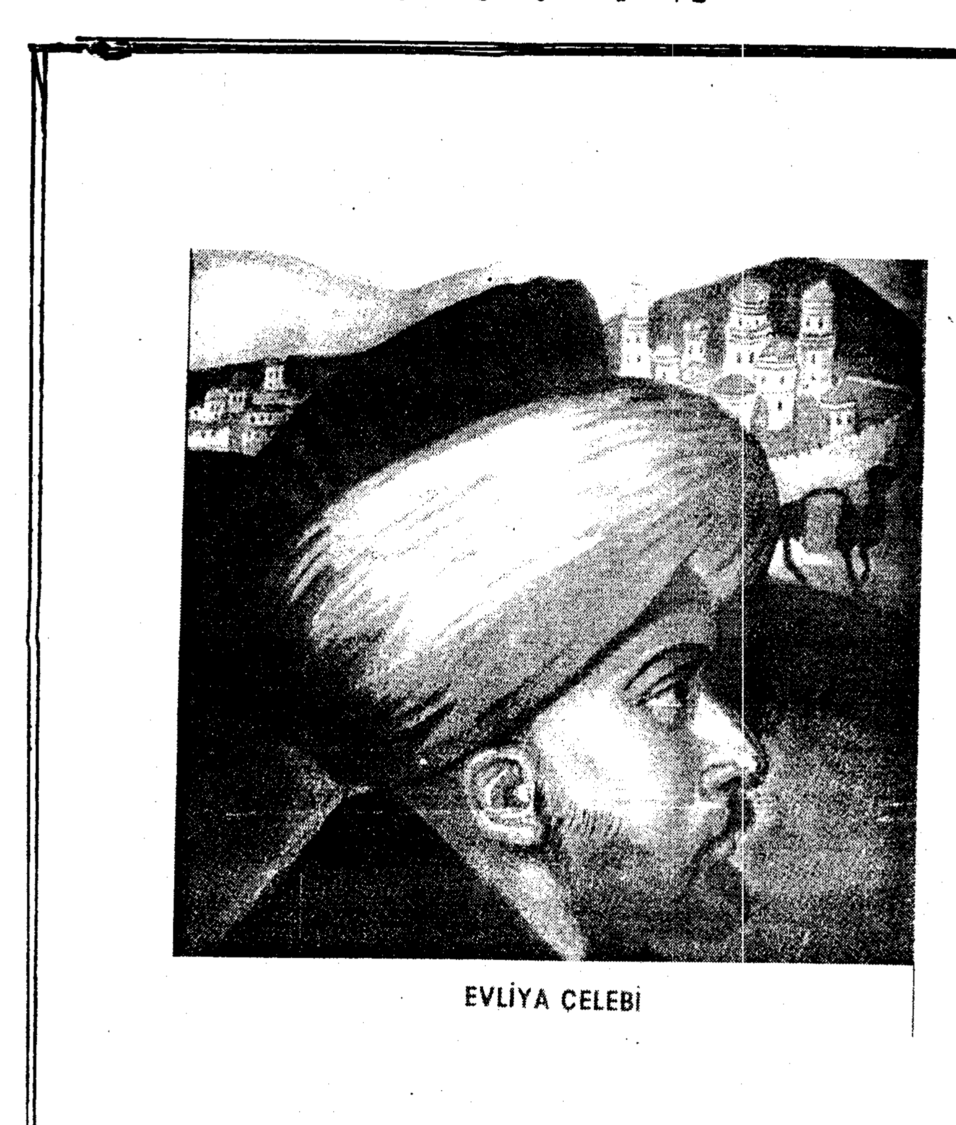
وللحيلولة دون ذلك استحدثت الدولة العثمانية قوة عسكرية اصطلح على تسميتها آنذاك بـ «صرة آلايى»، وهى القوات التى كانت تقوم بالإعداد للاحتفال لخروج الصرة والمحمل وموكب الحج من أمام القصر السلطانى، ثم يناط بها الحفاظ على الصرة والمحمل وقافلة الحج، حتى تصل وتعود فى أمن وسلام. وكانت هذه القوات دائماً فى رفقة هذه المواكب. وكانت تسير برا حتى سنة ١٢٨١هـ = ١٨٦٤م مستخدمة الجمال والبغال والخيول. وبعد هذا التاريخ شرعت الدولة بإرسالها عن طريق السفن الحربية إلى بيروت أو السويس ومنها إلى جدة أو ينبوع، ثم تكمل رحلتها برفقة قوات الحجاز إلى أماكن الشعائر الدينية. وبعد افتتاح خط السكة الحديد الحجازى كانت ترسل هذه القوات أيضاً برفقة هذه المؤن والهبات والأوقاف، ولا تفارقها إلاّ بعد أن تصل إلى هدفها. وكانت هذه القوافل إذا ماخرجت براً تتحرك من إستانبول فى الثانى عشر من رجب، ولكن بعد ماتقرر إرسالها عن طريق البحر أصبحت تخرج فى الخامس عشر من شعبان من كل عام. كما كان أمين الصرة الهمايونية يُختار فى معظم الأحيان من بين كبار العسكريين المشهود لهم بالتميز العسكرى والتدين وحسن السير والسلوك والتقى والورع وطهارة اليد والعدل، حتى يشرف بنفسه على القوات المرافقة للمحمل، وقافلة الحج[1]، كما يقوم بتسليم الفرمان الخاص بتوزيع أموال الصرة الهمايونية على الحرمين الشريفين وأوجه التصرف والصرف منها إلى شريف مكة ومشايخ الحرمين الشريفين، بحضور رجالات الدولة والعلماء وقادة القوات الموجودة فى كل من مكة والمدينة وجدة والطائف، وأمراء قوافل الحج، وكان يشرف بنفسه ممثلاً للسلطان العثمانى على أداء المناسك وحفظ الأمن والأمان خلال موسم الحج كله، إلى أن تغادر القوافل كلها المدينتين المباركتين عائدة إلى بلادها، فيعود أمين الصرة بعد أن يكون قد أشرف أيضا على توزيع الأوقاف والمخصصات على أهالى الحرمين، فيقدم تقريراً

مفصلاً إلى الصدر الأعظم وشيخ الإسلام فى الآستانة وبعدها يمثل بين يدى السلطان ليقدم تقريره عما أنجزه فى موسم الحج ومرئياته ومقترحاته للموسم القادم.

وجدير بالذكر أن هذا كله كان فى العهد الذى كانت الدولة العثمانية قوية؛ لكن بعد ظهور العلمانيين واليهود فيها وسيطرتهم على مقاليدها مّرت قوافل الحج بفترة عصيبة وقد كان ظهور الملك عبدالعزيز أكبر عوامل أمن المناطق التى دخلت فى حوزته، وقد قيض الله سبحانه وتعالى الملك عبدالعزيز رحمه الله وآل سعود فقاموا بتيسير الطرق وتأمينها وطبقوا حدود الله فأصبح الحجاج يرون أمنا منقطع النظير لا يكاد التاريخ يشهد مثله إلا فى عصور الإسلام الزاهرة وهو أمن شهد به العالم الإسلامى كله .. وأصبح الحج رحلة أمن وسلامة وسكينة، وقد توافرت فيه كل وسائل الراحة المادية والمعنوية، وحتى الماء البارد والطعام بكل أصنافه يتوافر للحجيج حتى فى منى وعرفات. كما أن المكوس على الحجيج قد رفعت فى عصرهم ... ونشطت مهمات الخطوط وعمرت الطرق بالاستراحات ويسرت شبكة طرق بين الأماكن المقدسة لا مثيل لها، كما جرت عدة توسعات فى الحرمين من أكبر التوسيعات فى تاريخ الحرمين الشريفين.

هكذا أولى السلف الصالح عبر عصورنا الإسلامية أهمية قصوى بالحرمين الشريفين، ونسأل الله عز وجل أن يوالى الخلف هذا الاهتمام، وأن يقوموا بواجبهم فى وجه الفتن الجديدة الخمينية التى تريد بكل الوسائل إفساد الحج وصرف الناس عنه وتحويله من البلد الحرام إلى وضع يتبارز فيه الحجيج بالصور والشعارات والخطب السياسية، ويحملون معهم صور التمزق بدلا من الطاعة والعبادة والخضوع للأمر الإلهى ﴿ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ﴾.

- آولياچلبى
- آولياچلبى وكتابه سياحتنامه
- وأم الدنيا مصر كما وردت فى كتابه



EVLİYA ÇELEBİ

أولياچلبي(*).

هو «إدريس محمد ظلي»، رحالة ومؤرخ تركي مسلم.

ولد في مدينة «إسلام بول» (استانبول)، في (١٠ من المحرم ١٠٢٠هـ = ٢٥ من مارس ١٦١١م)، وأطلق عليه والده «أوليا چلبي» تيمنا باسم صديق حميم له صار فيما بعد أستاذاً لأوليا.

وقد اكتسب «أوليا چلبي» شهرة واسعة بين الرحالة الأتراك خاصة، والمسلمين عامة بكتابه المشهور سسياحتنامه»، أي: كتاب السياحة.

وينتمي «أولياچلبي» إلي أسرة عريقة، تقلد كثير من أفرادها مناصب رفيعة في الدولة العثمانية؛ فكان جده لأبيه «دميرجي أوغلي قره أحمد بك» حامل اللواء للسلطان ««محمد الفاتح»، وشارك معه في غزو القسطنطينية، وكان والدة «درويش محمد أغا» رئيساً لجواهرجية القصر العامر، وقد عاش عمراً يناهز (١١٧ سنة)، وشارك في كل فتوحات السلطان «سليمان القانوني» اعتباراً من فتح بلجراد سنة (٩٢٨هـ = ١٥٢١م)، وكانت أم «أوليا چلبي» أختاً للصدر الأعظم «ملك أحمد باشا»، الذي تولى الصدارة العظمى (رئاسة الوزراء حالياً) في (شعبان ١٠٦٠هـ = يوليو ١٦٥٠م).

وتدرج «أولياچلبي» في سلم الدراسة في مدارس «إسلام بول»، وتتلمذ على بعض علمائها وفقهائها المرموقين في العلم والدين، كما تعلم من والده فن الخط والكتابة على الأحجار الكريمة.

وبوساطة خاله «ملك أحمد باشا» وقف بين يدي السلطان «مراد الرابع»، الذي أمر بإلحاقه بالقصر، والعمل فيه، وهناك درس الخط والموسيقى والنحو والقوافي على كبار علماء القصر، كما درس التجويد على «أوليا محمد أفندي».

---

* نشرت هذه المادة في دائرة سفير للمعارف الإسلامية العددان ٢٩ - ٣٠.

وكان «أوليا چلبى» يتصف بالظرف، واللطافة، وحلاوة الكلام، إلى جانب شغفه بالعلم، وقوة ملاحظته، وأدبه الجم؛ مما أهله لأن يُصبح من المقربين إلى السلطان «مراد الرابع».

وكان «أوليا چلبى» فى بداية حياته العملية موظفاً فى القصر، وفي حسابات الجيش، وقد هيئت له هذه الوظيفة فرصة السفر والترحال كثيراً فى رفقة الجيش العثمانى، وقد نمت فيه هذه الأسفار حب الرحلات والسياحة، وأتاحت له فرصة الطواف بالبلدان، وتسجيل كل ما تقع عليه عيناه من آثار، وأنهار، ومدن، وقرى، وقلاع، وحصون، وعادات وتقاليد، وقد حرص على لقاء علماء عصره، والأخذ عنهم، ومناقشتهم حيثما نزل خلال رحلاته الطويلة.

وكتاب «سياحتنامه» الذى اشتهر به «أولياچلبى» مكون من عشرة مجلدات، وقد أفرد الحديث فى الجزء العاشر منه لمجالس العلماء فى «مصر»، وعادات المصريين وتقاليدهم، وميزات بلادهم، وبين كيف أن المصريين هم الذين صرفوا «سليم الأول» عند فتحه لمصر سنة (٩٢٣هـ = ١٥١٧م) عن اتخاذ «القاهرة» عاصمة للدولة العثمانية، وأن علماء مصر هم الذين اقنعوه بأن تظل عاصمة الدولة العثمانية فى أقصى شمال الإمبراطورية؛ لأن الخطر الداهم للعالم الإسلامى يأتى دائماً من الشمال، من أوربا، وأن الرماح الإسلامية يجب أن تظل متجهة نحو الشمال؛ لذا سافر معه العديد من العلماء، والفنانين، والحرفيين المهرة؛ كى يسهموا فى تعريب عاصمة الإمبراطورية العثمانية وتجميلها، وذكر أن «سليم الأول» هو الذى أصدر فرماناً (أمراً ملكياً) بأن تكون اللغة العربية هى اللغة الأولى للدولة، وتدرس بها كل العلوم فى «إسلام بول» ذاتها.

وظل «أوليا چلبى» بمصر عشر سنوات بعد أداء فريضة الحج، أكمل خلالها كتابه فى المجلدين التاسع والعاشر من سياحته، وآخر تاريخ ذكره فى «مصر» هو (١٢ من جمادى الأولى ١٠٨٧هـ = ٢٣ من يوليو ١٦٧٦م)؛

حيث اتجه إلى «الصالحية» بالقرب من «بلبيس»؛ ليكون فى استقبال «عبدالرحمن باشا» الذى عيِّن والياً جديداً على «مصر»، ثم عاد بعد ذلك إلى «إسلام بول».

ويَعتبر كثير من المستشرقين «أوليا چلبى» من أعظم الرحالة والجغرافيين الأتراك والمسلمين قاطبة، ويعتبره الباحثون المسلمون باحثاً عن الحقيقة أينما وُجِدَت، وكان «أوليا چلبى» يجيد اللغات العربية والفارسية والتركية إلى جانب إلمامه بعدة لغات أخرى؛ وقد ساعده ذلك على القراءة المتعمقة والبحث الطويل؛ إذ قرأ جميع الرحلات التى سبقت كتابتها فى اللغات العربية والفارسية والتركية.

وتوفى «أوليا چلبى» فى «إسلام بول» حوالى سنة (١٠٩٠هـ = ١٦٧٩م).

أهم مراجع المدخل:

* بورصه لى محمد طاهر بك – عثمانلي مؤلفلري – مجلد – استانبول.
* محمد ثريا – سجلى عثمانى – المجلد الرابع – استانبول.
* إسماعيل حقى اوزون جارشيلى – عثمانلى تاريخى – أنقرة – ١٩٤٧م.
* كبريلى زاده محمد فؤاد – تورك أدبياتنده – ايلك متصرفلر – استانبول – ١٩١٨م.
* محمد المحبى – خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر – مصر – ١٢٨٤هـ.

أولياچلبی
Evliya Çelebi
وكتابه «سياحتنامه»(*).

أوليا چلبی (١٠٢٠- ١٠٩٢هـ= (١٦١١- ١٦٨٢م)

رحالة وكاتب تركي، ولد في أستانبول بحي أون قباني (Unkapani) ١٠٢٠هـ سنة ١٦١١م وتوفى بها ١٠٩٢ هـ سنة ١٦٨٢م والده هو درويش محمد ظلي - نشأت عائلته أولاً في كوتاهية، ثم رحلت إلى أستانبول بعد أن أتم تعليمه الإبتدائي «الأولى» استمر لمدة تتراوح مابين سبع أو ثمان سنوات في المدرسة[١]. كان والده من رجالات القصر الذين يتمتعون بخطوة ومكانة مرموقة، فهو رئيس صاغة القصر، ويمتلك موهبة فنية مشهود له بها كما كان خطاطاً يجيد فنون الخط، كل هذه المواهب جعلته محاطاً بكثير من رجالات الدولة، ومكنت الابن من أن يعيش في وسط يجمع بين رجالات الفن والأدب من ناحية، ورجالات السياسة والعسكرية والثراء من ناحية أخرى، لذلك تعلم أولياچلبی من والده فن الخط والتذهيب والنقش، ثم درس الموسيقى وأصبح حافظاً[٢]. فألحق بمدارس القصر المسماة (بالأندرون؟)[٣]. وكتب الشعر، ثم إلتحق بالخدمة الخاصة للسلطان مراد الرابع (١٠٤٥هـ - ١٦٣٥م) بوساطة خاله ملك أحمد باشا[٤]. وقد شغف بالسياحة والرحلات وهو لم يزل شاباً، وذلك بعد أن وقع تحت تأثير ماكان يسمعه من قصص وروايات عن البلدان البعيدة من والده، ومن رجالات الفكر والعسكرية الذين كانوا يجتمعون في منزلهم في كثير من المناسبات. ودفعه هذا الشغف أن يطوف أولاً باستانبول ويدرسها، شبراً ويتعرف على كل معالمها ومآثرها ويعيش لياليها، ويتمتع بملاهيها، وملاعبها.

(*) نُشر هذا المقال في مجلة كلية اللغات والترجمة - جامعة الأزهر - العدد العاشر سنة ١٩٨٥م. فيما بين ص ٢١١ - ٢٢٧. الكاتب.

وطبقاً للعنعنات التركية يربط أوليا چلبي شغفه وبدءه للسياحة والرحلات برؤيا. وكانت هذه الرؤيا في ليلة عاشوراء سنة (١٠٤٠هـ - ١٦٣٠م) وحسب روايته هو أنه في هذه الليلة المباركة رأى النبيﷺ وسط حشد كبير في صلاة مع (أخي چلبي) ويمثل أوليا چلبي أمام يدي النبيﷺ وتحت تأثير هذا الموقف يتلعثم، وبدلاً من طلب الشفاعة يطلب السياحة حيث قال «السياحة يارسول الله بدلاً من أن يقول «الشفاعة يارسول الله[٥].

وما أن رأى سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) منه ذلك حتى طمأنه بالشفاعة والسياحة معاً.

يذهب أوليا چلبي إلى مشايخة وأساتذته ويقص عليهم رؤياه، ويطلب منهم تفسير هذه الرؤيا. فيذهب إلى الشيخ المولوي عبدالله ده ده في حي قاسم باشا فيطلب منه أن يفسر له هذه الرؤيا فيوصيه الشيخ قائلاً (ابدأ بتحرير تاريخ استانبولنا العزيزة) فيشمر عن ساعده ويتحفنا بالمجلد الأول من سياحتنامه سنة ١٠٤٠ هـ سنة ١٦٣٠م وفي سنة ١٠٥٠هـ = سنة ١٦٤٠م مابين أبريل ومايو يرحل الى بورصه مع صديق له يسمى «أوقچي زاده أحمد»، وبعد عودته من هذه الرحلة التي لم يستأذن والده فيها، ينصحه والده أن يسجل ملاحظاته أولاً بأول في كتاب للرحلات، ويأذن له بالترحال، فيتوجه نحو «إزميت» في ١٠٥١هـ حزيران سنة ١٦٤١م وبعد أن يمضي شهرين في استانبول يتوجه إلى طرابزون في صحبة كتنچي عمر باشا الذي عين والياً عليها، وكانت رحلته الثالثة هذه عن طريق البحر الأسود في ١٠٥٠هـ ٢٨ ديسمبر سنة ١٦٤٠م ومنها توجه إلى آناپا Anapa وأنضم إلى الجيش المتوجه للاستيلاء على قلعة آزاق Azak، ولما انتهت هذه الحملة بالفشل توجه نحو (بهادر گيراي خان) بالقرم لقضاء الشتاء. وقد أمضى شتاء هذه السنة في (باغچه سراي (Bahce saray) ثم عاد إلى استانبول بعد أن شارك في استرداد قلعة الآزاق. ومكث أربع سنين في

استانبول. وفى سنة ١٠٥٥هـ = سنة ١٦٤٥ شارك فى فتح خانيا "Hanya" مع يوسف باشا الذى كان يقود حملة كريت Girit ثم عاد إلى استانبول وفى العام التالى مباشرة خرج إلى الأناضول كمؤذن وصاحب للدفتردار «اده محمد باشا» الذى عين أميراً للأمراء على أرضروم. وقد مكنته هذه الرحلة من التجول والطواف بكل مدن وبقاع الأناضول. ثم عاد الى أرضروم والتحق بالحملة التى قادها الدفتردار زاده ضد أمير الشوشيك (susik) فتمكن بذلك من مشاهدة بعض مناطق آذربيجان مثل كورجستان (Gurcistan) كلف أوليا چلبى ببعض المهام وحمل بعض الرسائل إلى خان روان "Revan" فتمكن من الطواف ومشاهدة مناطق غومشخانة Gumushane وطورطوم Tortum بعد أن شارك فى حملة كورجستان عاد إلى أرضروم، وأمضى الشتاء بها، ثم عاد مع الدفتردار زاده محمد باشا الى استانبول وقد كلّفه محمد باشا بمهام كثيرة، ووساطات لجمع كلمة أمراء الأناضول للمشاركة فى القضاء على عصيان (واردار على باشا) الذى كان يهدد كيان الدولة آنذاك. ويحكى هو نفسه أنه بسبب العواصف الثلجية التى هبت خلال إحدى هذه الرحلات ضل طريقة، فوجد نفسه وسط الجلاليين؛ أمثال حيدر أوغلى وقاطرجى أوغلى، وقد ساعدته هذه الصدف على التعرف عن قرب على ثورة الجلاليين[٦]. والكتابة عنها هى وثورة (واردار على باشا) وقد أعطى معلومات قيمة جداً عن هاتين الثورتين.

يعود رحالتنا إلى استانبول ١٠٥٨هـ/ سنة ١٦٤٨. ولكنه يتوجه مع أمير أمراء الشام مرتضى باشا إلى الشام فى ١٠٦٠هـ و ١٨ سبتمبر سنة ١٦٤٨م ويظل بها حتى ١٠٥٨هـ، ١٤ تموز سنة ١٦٥٠م وخلال هذه الفترة يكلّفه مرتضى باشا بالتوجه الى حاكم غزة، ويحمله الرسائل إلى الشهابيين فى لبنان مما أتاح له رؤية الكثير من بلدان ومناطق سوريا وفلسطين. وبعد أن يطوف بالكثير من مدن وسط شرق الأناضول (لجمع الأموال لسيواس)

يعود الى استانبول، تسير الأمور لصالح أوليا چلبى، فيُعَيَّن خاله ملك أحمد باشا صدراً أعظماً وبالتالى يصير أوليا چلبى أمين الجيش المتوجه لتأديب الجلاليين. ويعاصر ويرى كيف أن إدارة خاله فاسده. فيرى عن قرب مايدبر فى القصر من خطط وخدع ومكائد. ويصاخب ببعض منها وهو فى رفقة ملك أحمد باشا، وفى بعض منها وهو وحده. وقد كان يقوم بأمور المالية، وبناءا علي رغبة خاله هذا كان عليه أن يدفع إلى السوق بنقود مزيفة للقضاء على الأزمة الاقتصادية، وكيف أن هذه السياسة قد أدت إلى عواقب وخيمة وإلى ثورة الحرفيين. ولما تم عزل الصدر الأعظم، وتعينه أميراً للامراء على «أوزى» Ozi أتيحت الفرصة لأوليا چلبى ليقوم بأول رحلة له فى بلاد الروميلى، وأستمرت هذه الرحلة من ١٠٦٢هـ = ٢٣ أغسطس سنة ١٦٥١م إلى نهاية ١٦٠٤هـ حزيران سنة ١٦٥٣م. وكانت هذه الرحلة فى بعض منها فى رفقة ملك أحمد باشا وفى بعض منها وحده. وقد كان يقوم بحمل الرسائل المهمة بين رسجوق Ruscuk واستانبول. وذهب إلى سلسترا وطاف بقرى ومراكز بلاد الأوز. وكتب عما رأه من غرائب وعجائب فى قرى «بابا داغى» وزار صوفيا. ولما تم عزل الباشا عاد معه إلى استانبول، وقضى بها فترة أنسته ملاهيها وملاعبها متاعب الرحلات الطوال التى قام بها.

عُيِّنَ ملك أحمد باشا والياً على «وان» فتوجه فى معيته قريبه أوليا چلبى. وظل فى جنوب الأناضول من ١٠٦٦هـ = ٩ مارس سنة ١٦٥٥ إلى ١٠٦٧هـ = ٢٤ حزيران سنة ١٦٥٦، وأتيحت له الفرص لزيارة كل مدن جنوب الأناضول وايران. واختلط بالآيدينين، وجمع عنهم الكثير من الوثائق والمعلومات. ولما تم نقل ملك أحمد باشا واليا للمرة الثانية على بلاد الأوز، توجه أوليا چلبى معه إلى سلسترا ودخل فى خدمة محمد كيراى الرابع خان القرم، وشاهد هزيمة القازاق الذين هاجموا بلاد الأوز، وكان هو الذى حمل أنباء هذه الهزيمة إلى استانبول. وبعد عودته إلى مقر الولاية كان يكلِّفه خاله بنقل الرسائل بينه وبين زوجته (قايا سلطان).(Kaya Sultan). سافر إلى

البوسنة مع ملك أحمد باشا (الذى عين واليا عليها، ولكنه بقى فى استانبول شهراً للعاج بعد أن جرحه واحد من رجال كوبريلى محمد باشا (٨٣ - ١٠٧٢هـ = ١٥٧٥ - ١٦٦١م)[٧] فى بلاد بالأناضول. فطاف بكل سواحل الأناضول. ثم توجه إلى أدرنه مروراً بـ كوبريلى محمد باشا (١٨٣ - ١٠٧٢هـ = ١٥٧٥ - ١٦٦١م)[٨]. فى«چناق قلعة» وبعدها انضم إلى الحملة التى قادها «كوسه على باشا» على «واراد» "Varad" واعتباراً من ١٠٧١= ٢٦ مايو سنة ١٦٦٠م طاف ببلاد الأورناؤوط والأويغار وبوهميا، وظل بها حتى ١٠٧٣هـ = مارس ١٦٦٢م وبعد أن أمضى الشتاء فى بلجراد عاد إلى استانبول. و خرج منها إلى النمسا مع الجيش المتجه إليها تحت قيادة فاضل أحمد باشا ١٠٤٥ - ١٠٨٧= (١٦٣٥- ١٦٧٦م [٩]) ويقص علينا أوليا چلبى الغرائب والعجائب التى شاهدها ولمسها بنفسه فى بلاد النمسا وهولندا والسويد حيث زارها بعد بوهميا. وهذه الحكايات بالرغم مما فيها من مبالغات إلا أنها فى غاية الأهمية لدراسة تاريخ وعادات وتقاليد ومعالم تلك البلاد خلال هذه العصور. وتصل مبالغات الرحالة أوليا إلى أن يقص علينا أنه التقى فى فينا بالامبراطور (ليوبولد الأول) (Leopold) ومونتوسوكلى(Montecucolli) وأنه زار بلاد الأسبان والدنمارك وأنه وصل حتى دونكاركيه بجواز السفر الذى تسلمه من الامبراطور. وبالرغم من أن هذا الكلام فى حاجة الى تحقيق إلا أنه يعطى الكثير عن تاريخ وعادات وتقاليد تلك البلاد وعلى مدى سعة اطلاع الرحالة أوليا چلبى. وبعد أن عاد من هذه البلاد كلف بمهام التفتيش على قلاع المجر، فلذلك واتته الفرصة لكى يطوف بكل قراها وقصباتها، ويحكى لنا فى كتابه «سياحتنامه» أنه وصل إلى بلاد القرم بعد أن تجول فى أردل (Erdel) والبغدان والأفلاق» وينتقل من القرم إلى قفقاسيا عن طريق البر. ويسجل أنه تجول فى بلاد«داغستان» وشواطئ بحر الخزر وبين قبائل الفولجا، وأنه انضم إلى قافلة أحد السفراء الروس من ترك Terek حتى الآزاق، وعلم بها أن الجيش

العثمانى قد تحرك نحو كريت. فتوجه چلبى نحو (باغچه سراى) وشارك عادل كيراى فى بعض حروبه، ثم عاد بطريق البر إلى استانبول. ومضى فى هذه الرحلة مابين ١٠٧٤هـ = تموز سنة ١٦٦٣م حتى ١٠٧٨هـ = ١١ مايو سنة ١٦٦٧م. وبعد أن استراح بعض الوقت توجه إلى زيارة بعض مدن الروميلى كسلانيك «وأدرنه». وساح بكل بلاد اليونان والموره» «وتساليا». وعاصر بل وشاهد استيلاء العثمانيين على قانديا (Krndiye) وشارك فى اخماد العصيان الذى شب فى بلاد اليونان ضد العثمانيين والذى عرف فى كتب التاريخ بعصيان ماينا» "Mayna" وبعد أن طاف بسواحل بحر الأدرياتيك مروراً ببلاى الأرناؤوط عاد إلى استانبول. وكانت هذه الرحلة فيما بين ١٠٧٩هـ= ٢٦ يناير سنة ١٦٦٨م إلى ١٠٨١هـ= ٣١ أغسطس سنة ١٦٧٠م.

أصاب أوليا چلبى الذى زار الكثير من البلدان ورأى آلاف المدن نوع من الحزن والكآبة لعدم قيامه بالحج، وزيارة الأماكن المقدسة، فحزم أمره وأعد عدته للقيام بالرحلة الرابعة عشر والأخيرة فى حياته ألا وهى رحلة الحجاز ومصر. فاستراح عدة أشهر وأعد غلمانه، ورافق قافلة الحة التركى، والتى كانت تضم حجاج كل دول البلقان واستانبول. وشاهدووصف لنا مراسم توديع القافلة، وتسليم الجمل الذى يحمل المحمل، وكيف أن السلطان بنفسه - وفى معيته الصدر الأعظم وشيخ الاسلام - قد حضر هذه المراسم. وقد كانت فرقة الموسيقى السلطانية تعزف أمام قصر السلطان قبل موعد قيام القافلة بزمن طويل، وكان معنى ذلك ايذان واعلان للجميع باقتراب موعد قيام القافلة، فيقدم الأمراء والأثرياء وأهل الخير هداياهم لتكون فى عهدة أمير القافلة حيث يوصلها إلى سكان مكة والمدينة ومجاورى الحرمين الشريفين.

وفى وصف دقيق وممتع يصف لنا الكاتب رحلته منذ أن قامت من استانبول حتى انتهى من أداء شعائر الحج. ويقدم لنا شعور المسلم المؤمن

فى مواجهة الصعاب، وكيف أن القافلة كانت تتحمَّل مالايطاق من برد وجوع وعطش وهى تعبر الصحراء القاحلة(١٠). كان كل ذلك من أجل الايفاء بركن من أركان الاسلام، وكثيراً ماكان يتحفنا ببعض من أشعاره الجياشة وتضرعاته وتوسلاته فى الحرم النبوى وأمام استار الكعبة الشريفة.

يقدم أوليا چلبى أوصاف الحرمين الشريفين ومافيهما من تحف وعدد المآذن والأبواب والأعمدة والشبابيك وأطوال كل منها. وتعريف كامل بسكان البقيع من أصحاب رسول الله ﷺ. كما يصف لنا وصفاً دقيقاً كل ما كان يصادفه من قلاع وحصون ومساجد وتكايا، ويعرفنا بأقطاب وعلماء وفضلاء كل مدينة كان يمر بها، كما يقدم للتاريخ سجلاً دقيقاً للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والادارية والتشكيلات العسكرية والتقسيمات الادارية للشام والحجاز(١١).

أتم أوليا چلبى طواف الوداع، وأتم فريضة الحج فى موسم سنة ١٠٨٢هـ= ١٦٧١م واستقر رأية على مرافقة قافلة الحة المصرى عند عودتها لكى يقوم برحلته إلى مصر. فيلتقى بشريف مكة ويتجه إلي جدة لمقابلة الوالى العثمانى ليستأذنه فى الرحيل، ولم يفته أن يخبرنا بتجارة جدة وبنوع وأجناس الحجاج والسفن ومايحمله الحجاج المصريون فى رحلة الذهاب والإياب من مكة والمدينة وجدة التى كانت تجمع في خاناتها تجارة الشرق والغرب.

رافق أوليا قافلة الحج المصرى بعد أن شحن كتبه وهداياه مع بعض من عبيده وغلمانه فى إحدى السفن المتجهة إلى السويس بحمولتها من البن والدخان وبضائع الهند والصين وجاوه ورقيق الحبشة وأفريقيا.

ويذهب الرحالة إلى مصر عبر طريق العقبة وطور سيناء حتى وصل إلى السويس ومنها إلى القاهرة مروراً ببلبيس والصالحية. ويسجل لنا أنه تردد بين القاهرة وبلبيس عدة مرات لاستقبال عبدالرحمن باشا الذى عُيِّن والياً على مصر فى ١٠٨٧هـ= ١٢ تموز سنة ١٦٧٦م وفى اعتقادى أن كتاب

«سياحتنامه» أوليا چلبى من أدق وأوفى ماكتب عن مصر فى القرن السابع عشر، فلو استبعدنا المبالغات فى تفسير بعض الظواهر لاعتبر هذا الكتاب سجلاً وافياً لما كان فى مصر من آثار ومساجد وجوامع وتكايا وزوايا ومستشفيات وبيمارستانات وكنائس وخانات وقصور وبرك وترع وقنوات ومعسكرات وعائلات. وكذا مرجعاً لايستهان به للوضع الاجتماعى والاقتصادى والعسكرى والادارى لمصر فى هذه الحقية التاريخية الغامضة من تاريخ مصر. فقد طاف الرجل بكل مصر، حيث ذهب إلى دمياط عن طريق النيل ثم إلى الاسكندرية ورشيد ووصف لنا كل مدن ومراكز وقرى الدلتا، ثم رافق حاميه متجهة إلى السودان. فتعرف وعرَّف لنا بكل مدن الوادى حتى وصل الى أعماق السودان والحبشة وبلاد الفونج والتقى بملكها ووصف لنا ماكانت عليه هذه البلاد والقبائل من تخلف وماكان يسودها من عادات وتقاليد وأعراف(١٢).

بقى أوليا چلبى فى السودان والحبشة مدة طويلة وعاد إلى مصر عن طريق ساحل البحر الأحمر وسجل كل ملاحظاته ومشاهداته والتى كان يدعمها بالمراجع فى مجلدة العاشر والأخير فى مجموعة رحلاته.

طريقة أوليا چلبى فى التاريخ:

كان أوليا چلبى يسجل ملاحظاته ومشاهداته عن البلد أو المدينة التى يمر بها ثم يرجع إلى كتب التاريخ والرحلات التى سبقته إليها وخاصة الثقاة منهم، أمثال القزوينى والمقريزى والطبرى والذهبى وجلال زاده وصولوق زاده والأطلس الصغير. ثم يدعم هذا كله بالرجوع الى القوانين والسجلات وكتب المناقب وسجلات الولايات ودفاترها وميزانياتها. وقد كان يستخدم أساليب عصره فى القياس فما أن يمر بجامع أو قلعة حتى يحصى الأبواب والأدوار والمخازن ويقيس بالخطوة والذراع كل مايصادفه من آثار وأطلال. كما كان يعود إلى ماسجله أو رجع إليه من مراجع فى كتبه السابقة على حد قوله هو.

طبعات سياحتنامة:

أعتمدت النسخة رقم ٤٥٨٤٦٢ فى مكتبة برتو باشا أساساً فى طبع سياحتنامة. وقد أشرف نجيب عاصم وأحمد جودت على طبع المجلات الخمسة الأولى سنة ١٣١٤هـ - ١٨٩٦م. وقام أمره قره حصارلى سنة ١٣١٨هـ - ١٩٠٠م يطبع المجلد السادس، وقام كليسلى رفعت بطبع المجلدين السابع والثامن سنة ١٩٢٨م. أما المجلدين التاسع والعاشر فقد أشرف على طبعهما أحمد رفيق فيما بين سنة ١٣٥٤ - ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٥-١٩٣٨م. كما طبعت مقتطفات ومختارات من رحلة أوليا چلبى فى استانبول سنة ١٢٥٦هـ ١٨٤٠م، ١٢٦١ هـ ١٨٤٥م، ١٢٧٩هـ ١٨٦٢م والقاهرة سنة ١٢٦٤هـ ١٨٤٧م. واستطاع رشاد اكرم قوچى اختصاره وطبع خمسة مجلدات منه فقط. وقام مصطفى نهاد اوزون باختيار لوحات تتعلق بالحياة فى القرن السابع عشر من سياحتنامة أوليا چلبى وطبع هذه اللوحات فى مجلدين. واستطاع نفس المؤلف أن يجمع ماكانت الرقابة قد منعت طبعه فى حينة وشكل بذلك مجلدا ثالثاً. وفى سنة ١٣٩٠هـ، سنة ١٩٧٠م قام ظهورى وانشمان باعداد طبعة جديدة مختصرة تقع فى عشرة مجلدات.

وقد ترجمت مقتطفات ومختارات من سياحتنامة أوليا چلبى إلى الألمانية والانجليزية والفرنسية والروسية والمجرية والرومانية والبلغارية والصربية واليونانية والأرمنية وغيرها من اللغات العربية [١٣].

إن أوليا چلبى الذى قضى سنوات طويلة يطوف ويجول وهو فوق صهوة جواده قد امتلك مهارة فائقة فى ركوب الخيل وسباقة، وكان يتمتع - إلى جانب ذلك - بروح مرحة ميال إلى الفكاهة. وقد مكنته هذه السنوات وهذه الرحلات من اكتساب علوم ومعارف غزيرة الى جانب كونه كان خطاطاً ونقاشاً وموسيقياً وشاعراً. وقد كتب لوحات فنية وأشعار دينية وعلقها فوق جدران الحرم النبوى فى المدينة المنورة خلال زيارته للمسجد النبوى سنة ١٠٨٢هـ. سنة ١٦٧١م. وإذا كانت أشعاره التى أوردها فى

كتابه سياحتنامة» تتسم بشيء من الركاكة والبساطة فإن نثره يدل على أنه كان يمتلك ناصية اللغات الاسلامية الثلاث «العربية والفارسية والتركية» وأن أسلوبه التركى كان من النوع السلس المتدفق، وكان يستخدمه فى الكتابة وكأنه يتحدث أو يقص على مستمعيه مايشنف به آذانهم، وتطيب به نفوسهم ويسعد به فؤادهم حتى ولو أدى ذلك الى بعض الأخطاء اللغوية.

الحواشى والمصادر:

١) المدرسة: اصطلاح تعليمى كان يطلق على «دار الفنون» أو «دار العلوم» وأول من أنشأ مدرسة على هذا الطراز فى العهد العثمانى هو أورخان غازى. ثم نص محمد الفاتح فى قانونه على امتيازات تقدم للقضاة والمدرسين وكانت مدرسة ازنيك وبورسة وأدرنة من أهم المدارس التى أنشأها العثمانيون فى عهودهم الأولى. وبعد أن فتح محمد الفاتح استانبول أنشأ جامعته «مدرسته» الشهيرة فى استانبول والتى سميت بمدرسة «صحن ثمان» وكان للطلاب فيها أماكن للاقامة جنباً إلى جنب مع المدرسين، وتدرس فيها العلوم النقلية والعقلية معاً.

وزاد عدد المدارس «الجامعات» فى عهد القانونى وانشئت دار الشفا» أى كليات للطب، وإلى جانبها «دار الحديث» وكليهما بجوار. جامعة المشهور (السليمانية) ولم تحدث الثنائية فى التعليم فى الدولة العثمانية إلا تحت الضغوط الأوربية بعد عهد التنظيمات فأصبح هناك مايسمى بالتعليم المدرسى والتعليم المحديث. أنظر: M.Z. pakalın, O.T. Deyimle-rive Termleri, Itst 1971.

٢) الحافظ: اصطلاح عثمانى يطلق على ~~القصر أو البلاط السلطانى~~. من يقرأ القرآن فى

٣) الأندرون: اصطلاح يطلق بين الشعب على حافظ القرآن الكريم

ويعنى الأجهزة أو الإدارات أو المدارس التى تعدّ الموظفين الذين سيعملون داخل القصر وفى البلاط الهمايونى. ويمد السلطان والقصر بكل مايلزمه من العلماء والقواد والاداريين والحرفيين. وقد كانوا جميعاً يتخرجون فى هذه المدارس. وقد كان طلاب هذه المدارس يجمعون فى الحروب «الديوشيرمة» ويربون على تعاليم الاسلام وطاعة السلطان والعمل فى خدمته. وكذا من الشباب الاتراك والمسلمين النابهين. وقد كانت بحق مدارس نظامية داخلية محكمة التنظيم انظر: المصدر السابق: محمد ذكى باقلين.

٤) ملك أحمد باشا: من كبار موظفى الدولة العثمانية تولى الصدارة فيما بين ١٠٦٠هـ ٥ أغسطس سنة ١٦٥٠م إلى ١٠٦١ هـ ٢١ أغسطس سنة ١٦٥١م وبعد أن عزل منها تولى ولاية العديد من الولايات برتبة (أمير أمراء).

٥) أوليا چلبى: مقدمة الجزء الأول من «سياحتنامة».

٦) جلالى: مصطلح إدارى عثمانى يُطلق على العاصى أو الخارج عن القانون أو من يعمل ضد السلطان. وقد كان هذا فى البداية اسم لأحد العصاة الذين ظهروا بالقرب من طوقات ورفع راية العصيان ضد السلطان سليم (٩١٨ - ٩٢٧ هـ ١٥١٢ - ١٥٢٠م وادعى المهدية والتف حوله عدد كبير من قطاع الطرق، واتباع العصابات. وسبب قلاقل كبيرة للدولة تم القضاء عليهم. ولكن ظل اسمهم يطلق على كل العصاة الخارجين على الدولة: أنظر: محمد ذكى باكلين. المصدر السابق.

٧) كوبرلى باشا: مؤسس عائلة كوبرلى التى لعبت دوراً بارزاً فى تاريخ الدولة العثمانية. وقد تولى هو والكثيرين من ذريته الصدارة. وقد ولد فى سنجق براط بالأرناؤوط سنة ١٠٧٠هـ = ١٦٦٠م.

٨) فاضل أحمد باشا: وهو من عائلة كوبرلى/ أشتهر بحمايته للعلم وتولى مناصب عديدة فى الدولة العثمانية، وأجرى بها العديد من الاصلاحات. ولد سنة ١٠٤٥هـ = ١٦٣٥م وتوفى سنة ١١٨٧هـ = ١٦٧٦م.

٩) أولياچلبى سياحتنامة سى جـ ٩ ترجمة وعلق عليه وقدم له د. الصفصافى أحمد مرسى. (تحت الطبع) دار الرياض للطباعة والنشر «الرياض»(*).

١٠) المرجع السابق.

١١) أوليا چلبى: ساحتنامة سى جـ١٠. ترجمة ودراسة وتعليق «تحت الطبع» وهو المجلد الخاص برحلته إلى مصر والسودان والحبشة. ..

١٢) د. الصفصافى أحمد المرسى أوليا چلبى كما ورد فى كتب المستشرقين «بحث» تحت الطبع» الدارة.

1) Ayfar Gucj, Evliya Seyahatnamesi uni. Ktp. Tez. Nu 1473

2) Cafer Erkilic, Evliya Celbi, Ist. 1969.

3) Leman Nusret, Evliya Celebinin Hayati uni, Ktp. Tez. Nu, 173 Ist. 1939.

4) M. Cagatay Ulucay. Evliya Celebi. 1957.

5) Meskure Eren. Evliya Celebi Seyahatnamasi. birinci Cildinin Kaynaklari uzerinde Bir Arastirma, Ist. 1960.

6) Zuhuri Danisman. Evliya Celebi Seyahatnamesi, Ist. 1970.

(*) تم نشر هذا الجزء تحت مسمى الرحلة الحجازية، وقد قامت دار الآفاق العربية بنشرة سنة ١٩٩٩م = ١٤٢٠هـ.

أم الدنيا مصر كما وردت في رحلة الرحالة التركي أولياچلبي (*)

بعد أن استقر تاريخ البشرية، بدأ الإنسان ينطلق إلى البيئات الأخرى، ونحو الفضاء الخارجى عبر الكواكب، ويغوص فى أعماق البحار، والمحيطات بحثاً عن المعرفة، ورغبة فى الإمتلاك..

بدأت كل هذه الرحلات ضيقة ثم اتسعت آفاقها مع مرور الزمن؛ فالإنسان وُلد راحلاً، وإن أعجزته الرحلة، تخيل رحلات محسوسة، تخطى الجبال، وركب بساط الريح.. وسجل التاريخ رحلات ألف ليلة وليلة، وحي بن يقظان، والتوابع والزوابع، ورحلة دانتى فى الكوميديا الإلهية، ورحلة الشاعر التركى العبقرى الشيخ غالب إلى مدينة القلوب «حسن وعشق». كما نجد ذلك بين ثنايا الآساطير، ودوافع الحروب..

سجل المصريون رحلاتهم على جدران المعابد. وخاض الفينيقيون عباب المحيط، وخلَّف الإغريق الكثير من الرحلات.. وعرفت حضارتنا ومكتباتنا العامة كتب المسالك والممالك، وطرق الحج والقوافل، وكثرت رحلات المسلمين، وتنوعت بتنوع أسبابها، وحوافزها.. وكانت الرحلة عنصراً مهما، وقوياً فى حياة المجتمع الإسلامى؛ رَحَل الناس لزيارة مهبط الوحي، ورحلوا فى طلب العلم.. ورحلوا فى سبيل الإتجار، وطلباً للربح.. وكان التجار يحملون مع بضائعهم؛ أحلامهم ، وثقافتهم ومعتقداتهم ..

رحل الناس كسفراء بين الملوك والحكام.. كما رحلوا طلباً، ورغبة فى لذة السفر، والرحلة فى حد ذاتها..

عرف المسلمون كل هذه النماذج من الرحلات.. وقد شجعهم عليا قلة الحدود المضروبة.. والعراقيل المفروضة. ولقد دوَن الكثير من الرحالة

(*) ألقى هذا الموجز فى مؤتمر الترجمة عن اللغات الشرقية الذى عقد فى المجلس الأعلى للثقافة والفنون سنة ٢٠٠٠م بالقاهرة.

أسفارهم ومشاهداتهم.. فذكروا الأرض التى زاروها.. وقيدوا ما رأوا من آثار.. وسجلوا ماوعته الذاكرة من العادات، والأعراف.. وسمات الثقافات، ولطائف الأخبار.. فالرحالة يلتقط مايُشاهد من جزئيات.. ويرسم لنا منها صورة تتطابق.. وتتشابك أحياناً.. وأحياناً تتنافر، وتتباعد، أحياناً أخرى.. ففيها ذاتية المشاهد.. وموضوعية الموجود.. وهذا مايجعله يختلف عن الجغرافى الذى يسأل، ويستقصى، ويقيس، ويحاول أن يحتوى كل جزء من المنطقة التى يعرض لدراستها..

كانت رحلة أوليا چلبى من الرحلات التى قام بهاصاحبها رغبة فى السفر وطلباً للرحلة فى حدا ذاتها.. وقد دوّن الكثير مما وعته ذاكرته، ورأته عيناه، وقيّد كل ما رأى من آثار، وسجل كل ما وعته ذاكرته من عادات، وأعراف.. ورسم لناسمات الثقافة المصرية، ولطائف أخبار المصريين...

مَنّ هو هذا الأوليا؟ أين ظهر.. ونشأ وترعرع..؟ ما كنيته وشهرته؟ ماهى الظروف، والدوافع التى وقفت خلف رحلته إلى مصر..؟ وما قيمة هذه الرحلة تاريخياً، وجغرافياً، وثقافياً..؟ ومامكانتها بين الرحلات وأدب الرحلات الإسلامية؟ تساؤلات كثيرة تتابع إلى الذهن بمجرد سماع اسم هذا الرحّالة التركى المسلم« أولياچلبي».

فتجمع الأراء على أن ميلاد أولياچلبى هو العاشر من محرم ١٠٢٠هـ الموافق ٢٥ من مارس سنة ١٦١١م فى مدينة استانبول، وأطلق عليه والده هذا الإسم تيمناً. وكان والده درويش محمد ظلى يعمل جواهرجياً فى السراى العثماني.. وهذا مأأتاح للإبن نشئة مرفهة، فى أحضان السراي وبين ربورعه..

حفظ أوليا القرآن ولُقّب بـ « حافظ». وأجاد اللغات العربية والفارسية كسمة عصره. ودرس التجويد والقراءات، وتفرغ للعلم والرحلة، وأجاد على يدى والده فن الخط العربى، وصقل الأحجار الكريمة والكتابة عليها.. تولى الإنشاد، والترتيل فى جامع الآياصوفيا فى زمن السلطان مراد، وأصبح من

مصاحبية بعد أن ألحق بالسراي للدراسة فى الأندرون.. حفظ الكثير من فنون القول العربي، والفارسي والسرياني واليوناني، وفنون الموسيقى، والغناء الشعبي التركي والذكر..

عاش أولياچلبى طوال حياته فى كنف السراي، وحماية الصدر الأعظم فقد تولى خاله أو زوج خالته مَلَكَ أحمد باشا الصدارة، وكلفه قبل ذلك وبعد ذلك بالكثير من المهام...

شغف أولياچلبي بالسياحة، والرحلات وهو لم يزل شاباً، وذلك بعد أن وقع تحت تأثير ما ان يسمعه من قصص من رحلات السراي. وروايات والده عن البلدان البعيدة. ودفعه هذا الشغف أن يطوِّف بكل معالم استانبول أولاً، ويدرسها شبراًشبراً، ويتعرف على كل معالمها ومآثرها، ويعيش لياليها، ويتمتع بملاهيها، وملاعبها..

وطبقاً للعنعنات التركية، يربط أولياچلبي شغفه، وبدءه للسياحة والرحلات برؤيا رآها فى ليلة عاشوراء سنة ١٠٤٠هـ ١٦٣٠هـ. ،حسب روايته هو؛

« أنه في هذه الليلة المباركة رأى النبى (ﷺ) وسط حشد كبير فى صلاة جماعة بجامع آخي چلبي، وَيَمْثُل أوليا بين يدي النبى (ﷺ) وتحت تأثير هذا الموقف يتلعثم، وبدلاً من طلب الشفاعة، طاب السياحة حيث قال « السياحة يارسول الله» وذلك بدلاً من أن يقول « الشفاعة يارسول الله». وما أن رأى سعد إبن أبى وقاص (رضي الله عنه) منه ذلك حتى طمأنه بالشفاعة والسياحة معاً.

ينتقل أوليا فى رحلاته إلى كل الإتجاهات؛ فيزور بورصة بعد استانبول، ثم يتجه إلى الأناضول، وانتقل من أرضروم إلى بلاد أذربيجان بمرافقة الحملة التى قادها الدفتردار زاده محمد باشا ضد أمير الشوشيك، وحمل بعض الرسائل إلى خان روان، وتمكن من مشاهدة مناطق عومشخانه، وطورطوم بعد أن شارك فى حملة كورجستان، ثم ذهب إلى

الشام سنة ١٠٥٨هـ - ١٦٤٨م، ويظل بها لمدة سنتين، ومن هناك توجه لمقابلة مرتضى باشا حاكم غزة. ويحمله هذا رسائل إلى الشهابيين فى لبنان. ويعود إلى استانبول فيعيَّن خاله ملك أحمد باشا[صدر أعظم] وبالتالى يصير أميناً للجيش المتوجه لتأديب الجلاليين.

يعاصر، ويروى سوء إدارة خاله ، كما يرى عن قرب مايدبر فى السراى من خطط، وخدع، ومكائد. ولما تم عزل خاله وتعيينه أميراً للأمراء على أوزى أتيحت الفرصة لرحالتنا لزيارة بلاد الروميلى فى الجانب الأوروبى من الإمبراطورية، واستمرت هذه الرحلة حتى سنة ١٠٦٤هـ - ١٦٥٣م.

ولما عين ملك أحمد باشا والياً على وان رافقه أوليا.. وتوغل بسبب ذلك عى أعماق آسيا.. ووصل إلى خانات القرم.. وشاهد هزيمة القازاق.

سافر إلى البوسنة مع ملك أحمد باشا الذى عين والياً عليها، فأتيحت له الفرصة أن يذهب إلى أعماق أوربا، بعدأن طاف ببلاد الأرناؤوط والبلغار. والمجر، ويظل بهذه البلاد حتى سنة ١٠٧٣ هـ - ١٦٦٢م.. ثم عاد إلى استانبول ومنهاإلى النمسا مع الجيش المتجه إليها بقيادة فاضل أحمد باشا.. ويقص علينا الغرائب والعجائب التى رآها ولمسها بنفسه فى بلاد النمسا.. وهولندا.. والسويد حيث زارها بعد المجر.. ويحكى لنا عن لقاء إمبراطور النمسا، وسفره بلاد الأسبان.. والدنمارك.. وعلى الرغم من أن هذا الكلام فى حاجة إلى تحقيق إلاأنه يحمل أهمية قصوى لمايحمله من تاريخ، وعادات وتقاليد تلك البلاد... ثم ينتقل مرة أخرى إلى بلاد قفقاسيا عن طريق البر، ويسجل لنا ما شاهده فى بلاد داغستان وشواطئ بحر الخزر، وبين قبائل الفولجا.. ووصل حتى قلاع الآزاق. ويعلم هناك عن نية التحرك إلى بلاد كريت فيعود فوراً وينضم إلى الجيش المتجه إلى هنالك.. وقضى فى هذه الرحلة أربع سنوات إنتهت فى سنة ١٠٧٨ هـ - ١٦٦٧م.وطاف ببلاد المنطقة، وشارك فى إغماد العصيان الذى شب فى بلاد اليونان ، تحت إسم « عصيان ماينا ». وظل يطوف ببلاد بحر الآدرياتيك حتى سنة ١٠٧٩هـ - ١٦٦٨م. ثم عاد إلى إستانبول فى هذا التاريخ.

رحلة أوليا إلى الحجاز ومصر:

أصاب أولياجلبى الذي زار الكثير من المدن والبلدان، نوع من الحزن والكآبة لعدم قيامه بالحج وزيارة الأماكن المقدسة.. فحزم أمره، وأعد عدته للقيام بالرحلة الرابعة عشر والأخيرة فى حياته، ألا وهى رحلة الحجاز ومصر...

رافق أوليا قافلة الحج التركي والتى كانت تضم حجاج كل دول البلقان وإستانبول، والأناضول. وقدَم لنا فى وصف دقيق وممتع كل ما صادفه فى الرحلة منذ القيام من إستانبول حتى أداء طواف الودا ع، فى موسم حج سنة ١٠٨٢هـ - ١٦٧١م.

إستقر رأى الرحالة أولياچلبى على مرافقة قافلة الحج المصرى عند عودتها لكي يقوم برحلته إلى مصر.. فيلتقى بشريف مكة ويتجه إلى جده لمقابلة الوالي العثماني ليستأذنه فى الرحيل.. ولم يفته أن يحدثنا عن جده بتجارتها، وأنوا ع، وأجناس الحجاج الذين يمرون بها، ويأتون إليها بالسفن، وماتحمله السفن فى رحلة الذهاب والإياب من مكة، والمدينة، وجدة التى كانت تجمع فى خاناتها تجارة الشرق والغرب.

رافق أوليا قافلة الحج المصري بعد أن شحن كتبه، وهداياه مع بعض من عبيده، وغلمانه فى إحدى السفن المتجهة إلى السويس وهى محملة بالبن ، والدخان، وبضائع الهند، والصين، وجاوه، ورقيق الحبشة وأفريقيا.

يصل الرحَالة إلى مصر عن طريق العقبة، وطور سيناء حتى وصل إلى السويس ومنهاإلى القاهرة مروراً ببلبيس والصالحية، ويسجل أنه تردد بين القاهرة وبلبيس عدة مرات لإستقبال عبد الرحمن باشا الذى عُين والياً على مصر فى سنة ١٠٨٧هـ - ١٦٧٦م.

بقى أولياچلبى فى مصر ثمانية أعوام، ظل طوالها يطوف، ويسجل كل ما شاهده ووعته عيناه وذاكرته. وقد زار كل بقا ع مصر، حيث ذهب إلى دمياط عن طريق النيل، ثم إلى رشيد والأسكندرية، وكان يصف كل ما يراه

من مدن، ومراكز، وقرى الدلتا، ثم رافق حامية متجهة إلى السودان، فتعرف، وعرْف بكل مدن الوادى حتى وصل إلى أعماق السودان، والحبشة، وبلاد الفونج، وإلتقى بملكها، ووصف لنا ما كانت عليه هذه البلاد ، والقبائل من تخلف، وما كان يسودها من عادات، وتقاليد، وأعراف..

بقى أولياچلبى فى السودان ، والحبشة مدة ما، ثم عاد إلى مصر عن طريق ساحل البحر الأحمر، وسجل كل ملاحظاته، ومشاهداته والتى كان يدعمها بالمراجع فى مجلده العاشر والأخير من مجموعة رحلاته..

طريقة آولياچلبي فى التاْريخ :

كان آوليا يُدَون ملاحظاته، ومشاهداته عن البلد، أو المدينة التى يمر بها، أو الأثر، أو المدرسة، أو التكية التى يزورها.. ثم يرجع إلى كتب التاريخ، والرحلات التى سبقته إليها، وخاصة الثقاة منهم أمثال ؛ القزوينى، والمقريزى، والطبرى، والذهبى، وجلال زاده، وصولوق زاده، والأطلسى الصغير.. ثم يدعم هذا كله بالرجوع إلى القوانين، والسجلات، وكتب المناقب، وسجلات الولايات ودفاترها، وميزانياتها.. وقد كان يستخدم أساليب عصره فى القياس، فما أن يمر بجامع، أو قلعة، حتى يحصى الأبواب والأدوار، والمخازن، ويقيس بالخطوة، والذراع كل ما يصادفه من آثار وأطلال، كما كان يترك بعض الأماكن فارغة حتى يعود إلى السجلات ليكملها.. وهذا مايشكل صعوبة عند الترجمة.. فلم تتح له الفرصة لأستكمال هذه الفراغات..

طُبع كتاب آولياچلبى سنة ١٣٥٤هـ - ١٣٥٧هـ = ١٩٣٥م - ١٩٣٨م وخاصة المجلدين التاسع والعاشر وكان ذلك تحت إشراف المؤرخ أحمد رفيق.

طاف آولياچلبى بأم الدنيا مصر، ولم يترك فيهاشاردة، أو واردة إلاَّ وسجلها، وكتب عنها.. كتب عن التاريخ، والجوامع، والمساجد، والزوايا والتكايا، والسرايات، والقصور، والقلاع، والأسوار، والعيون، والخلجان،

والسواقى، والمتنزهات، والبرك، والمدارس، والعلماء، والأضرحة، والقرافات.. كتب عن الموالد، والإحتفالات بفيضان النيل، والمحمل، وخروج قافلة الحج، وقبلها ليلة الرؤية، ومواكب الحرفيين.. كتب عن الحرف والزراعات، والمهن والمعسكرات التى رآها فى مصر..

وفى إعتقادى أن كتاب «سياحتنامة أولياچلبى» وبمجلده العاشر، من أدق ، وأوفى ماكتب عن مصر عامة، وأم الدنيا مدينة مصر فى القرن السابع عشر الميلادي، الحادى عشر الهجري. ولو إستبعدنا المبالغات فى تفسير بعض الظواهر، لأعتبر هذا الكتاب سجلاً وافياً لماكان فى بلاد مصر كلها عامة، ومدينة أم الدنيا مصر خاصة، من آثار، ومساجد، وجوامع وتكايا، وزوايا، وبيمارستانات ، وخانات، وكنائس.. وعمائر، وأسبلة، وقصور، وبرك، وترع، وقنوات، ومعسكرات، ومدارس وعائلات علمية،.. وكذا مرجعاً لا يُستهان به للوضع الإجتماعي، والإقتصادي والعسكري، والإداري لمصر.

هذا كله ما دفعنى إلى ترجمة الرحلة بدءا برحلته إلى الحجاز، وقد تم طباعة هذا الجزء، والباقى هو رحلة مصر وهو على وشك الإنتهاء ترجمة، وتعليقاً، وتحقيقاً. وكتابة هوامش على كل ما ورد فيه من مصطلحات عسكرية، وإدارية، وفنية، وأدبية..

وعلى الله قصد السبيل..

***

الأرشيف العثمانى
وكيفية
الاستفادة منه فى اعادة كتابة
تاريخ العرب الحديث

الأرشيف العثماني وكيفية الاستفادة منه
في إعادة كتابة تاريخ العرب الحديث (*).

أولاً: الفتح العثماني للبلاد العربية:

ان علاقة الدولة العثمانية بالبلاد العربية بقيت حتى نهاية القرن الخامس عشر علاقة مجاملة ومؤازرة عن طريق المراسلة، مع تبادل الوفود والهدايا .. وكان أول احتكاك يحدث بين الدولة العثمانية ودولة المماليك المصرية قد حدث سنة 1489- 1490م عندما استولى المماليك على بعض المقاطعات الخاصة بآل ذى القدر الذين يمتون إلى آل عثمان بصلة المصاهرة، ولذلك جرد السلطان بايزيد الثانى (1447 - 1512م) حملة عسكرية لاخراج المماليك من تلك المقاطعات، ولكن جيشه لم يستطع التغلب على جيش المماليك، ثم كرر الحملة فى السنة الثانية دون جدوى (1).

وما أن تولي ياووز سليم (1470 - 1520م) على العرش حتى وجه أنظاره نحو القارة الأسيوية، وسعى وراء توسيع حدود دولته فى البلاد الإسلامية لخلق تكتل اسلامي يجابه به التكتل الصليبى الذي كان يسعى لالتهام العالم الاسلامى، ولينقل مركز الثقل الاسلامى الى العثمانيين لكى يتولوا الدفاع عن العالم الاسلامى (2).

أحرز السلطان سليم نصراً -حاسماً في چالديران (Caldiran)سنة 1514م فتح امامه أبواب تبريز عاصمة الدولة الصفوية التى كانت تنازعهم السلطة فى العالم الاسلامى(3). واستولى فيها على العرش.

(*) نُشر هذا البحث فى المجلة المغربية للتوثيق الصادرة فى تونس في العدد الأول الصادر فى اكتوبر سنة 1983، والعدد الثالث - مارس سنة 1985.

(1) Enver Behman Şpolyo, Osmanl Sultanları, Istanbul, 1961, p. 127.

(2) المصدر نفسه ص 144.

(3) ساطع الحصرى، البلاد العربية والدولة العثمانية، دار العلم للملايين، بيروت (بدون تاريخ) ص .241.

وبعد مضى سنتين توجه السلطان سليم الي الجنوب لمحاربة المماليك وانتصر على قنصوه الغورى «قانصوه جاورى» (Kansugavri) فى مرج دابق بالقرب من حلب فى 25 رجب سنة 922 هـ الموافق 24 أغسطس سنة1516 م، وبعد ذلك استولى علي سوريا باكملها، وعين بها ولاة من طرفه، وقابل العلماء وأحسن وفادتهم وفرق الانعامات على المساجد(4).

وفى السنة التالية قرر الاستيلاء على مصر أيضاً، فاجتاز صحراء سيناء، ودخل العثمانيون القاهرة بعد حرب ضروس مع المماليك فى 8 محرم سنة 923 هـ/31 يناير سنة 1517م، ووقع طومان باى فى أيدى سليم وشنق فى ربيع الأول سنة 923 هـ/ 13ابريل سنة 1517م على باب زويله.

وقد تنازل محمد المتوكل على الله آخر الخلفاء العباسيين عن حقه فى الخلافة الاسلامية الى السلطان سليم العثمانى، وسلمه الآثار النبوية الشريفة، وكذا مفاتيح الحرمين الشريفين (5).

وهذا، كان فتح العثمانيين لسوريا والحجاز ومصر قد تم بسهولة خلال عامين وقد ضمن لهم انتصارهم فى مرج دابق حكم سوريا والحجاز، وانتصارهم في الريدانية أدخل مصر أيضاً تحت حكمهم، وقضى على دولة المماليك القضاء المبرم (6).

كان طبيعياً، بعد أن دخلت الدولة العثمانية بلاد الشام ومصر، أن تتطلع الى فتح مركز الخلافة الاخر، بغداد، فتجمع بذلك بلاد المشرق العربى تحت سلطانها، وتحول دون محاولات الصفويين الاستيلاء على العراق وكان العثمانيون فى أعقاب انتصارهم فى چالديران سنة 1514م، قد فرضوا نفوذهم على الموصل، وديار بكر، وماردين، وعينوا عليها حكاماً من قبلهم.

---

(4) محمد فريد، الدولة العثمانية، تحقيق الدكتور احسان حقي، دار النفائس، بيروت، 1981.

(5) Osmanlı Sultanları, p. 148.

(6) ساطع الحصرى، نفس المصدر، ص 40.

غادر الجيش العثماني استانبول لفتح بغداد في ربيع الأخر سنة 940هـ/ تشرين الأول سنة 1533م، واحتل تبريز، ثم دخل بغداد 24جمادي الثانية 941هـ/ 31 كانون الأول1534م[7]، وأصدر السلطان أوامر مشددة إلى جنده بعدم التعرض للأهالي، وحاز رضاهم أيضاً بزيارته الأماكن المقدسة في بغداد، ورصده الأموال لها، وقدم زعماء القبائل والأعيان ولاءهم للسلطان، وكان بينهم أمير البصرة راشد بن مغامس، الذى كان قد استقل بها، فأبقاهم السلطان كما هم، وقسمت العراق الي أربع ولايات، بغداد، والموصل البصرة وشهرزور، وقدم زعماء القبائل والاعيان ولاءهم للسلطان، وكان عند عودة السلطان الى استانبول سنة م، توقف في اذربيجان وأصلح من شؤونها الداخلية [8]، ودعم حكمه في تبريز، وعين الولاة على المدائن المفتتحة حديثاً.

وكان العثمانيون قد احتلوا القطيف في منطقة الاحساء بالخليج سنة1550 م ثم مدوا نفوذهم الى باقي الاحساء التي فتحوها سنة 1552م، كما كان سليمان باشا والي مصر قد فتح مدائن عدن ومسقط وكل اليمن وجعله ولاية عثمانية منذ سنة 1538م[9]. وهكذا فقد استولت الدولة العثمانية على معظم البلاد العربية، فيما عدا المغرب الاقصى من جهة، وقلب الجزيرة العربية من جهة أخرى، خلال القرن السادس عشر الميلادي، وفي مدة لم تتجاوز الأربعين عاما[10]. وبقيت هذه البلاد تحت الحكم العثماني – بالرغم من بعض الثورات التي حدثت في تواريخ مختلفة – حتى القرن التاسع عشر.

---

(7) عبدالكريم رافق، العرب والعثمانيون، دمشق 1974، ص 68.

(8) Namık Kemal, Osmanlı Tarihi, vol. 3, 1979 p 198.

(9) محمد فريد بك، نفس المصدر ص 240.

(10) (سوريا الاردن، لبنان 1516، مصر وفلسطين 1517، الكويت 1522، العراق 1534اليمن 1538، شمال افريقيا حتي وهران وتلمسان 1556).

اما دخول العثمانيين إلى شمال أفريقيا، فقد ارتبط باحداث غرب البحر الابيض المتوسط ولعب نتيجة لذلك الاخوان عروج وخير الدين بربروس دوراً رئيسياً في ضم الجزائر بادئ الأمر إلى مركز الخلافة العثمانية ثم تونس وطرابلس الغرب بعد ذلك (11).

حـ - الادارة العثمانية فى الولايات العربية:

كان السلطان العثمانى الذى تلقب «خونكار» (Hunkar) أحياناً وأحيانًا بـ پادشـا(Padisah) أو «همايون» (Humayon) يـرأس الادارة العثمانية المركزية، وكان الابن الأكبر يخلف أباه، واعتاد السلطان العثمانى تعيين أبنائه حكاماً على الولايات ليكسبهم خبرة إدارية أفادتهم فى الحكم.

وكان الصدر الاعظم أو الوزير الأول حتى فتح استانبول سنة 1453م يعين من المسلمين الأحرار، ثم أصبح يعين من نتاج الدوشيرمه (Devsirme)وضمن السلطان بذلك ولاءه وطاعته ويمثل السلطة العثمانية فى مركز كل ولاية حاكم يلقب عادة بالباشا وفى المغرب العربى بـ الباى (Bay)السيد والدى Day الخال، وكانت رتبته فى البداية بيلر بيى أى بك البكوات (12). أو أمير الأمراء.

وتنقسم بعض الولايات إلى أقسام ادارية أصغر، تعرف بالسنجق وحاكمها أمير لواء، وتنضم عدة سناجق لتشكل ولاية أو أيالة يرأسها بك البكوات.

((11) راجع المجلة التاريخية المغربية، عدد6 ، وكذلك 11 - 12.

(12) بكلر بكى (Beyler beyi) أى أمير الامراء، وهولقب ادارى وعسكري ورثة العثمانيون عن الدولة السلجوقية والامارة من الوظائف المهمة في التشكيلات الادارية والعسكرية في الدولة العثمانية.

وقد استخدم هذا اللقب منذ عهد مراد الاول (1360 - 1389م) وان كان المستشرق هامر (HOmmer) يذكر ان اول من تلقب بهذا اللقب هو تيمور طاش (هامر، جلد ، ص) وهو يوازى - فى الادارة - الوالى في العصر الحديث.

ومن الموسسات العثمانية الرئيسية «الدفتر خانه» التي كانت تعني بالشؤون المالية، والجدير بالذكر أنها قد انتقلت إلى الولايات بكل تشكيلاتها ونظمها.

ولم يكن الوضع العسكرى يختلف عن الوضع المالى والإدارى، فقد ربطت الدولة العثمانية نفسها بالولايات العربية عسكرياً، فقد كانت من الوجهة العسكرية تنقسم الى سبع دوائر كبيرة، فى كل واحدة منها جيش كامل من المشاة والخيالة والمدفعية. وكانت الجيوش تسمى بالنسبة إلى تسلسل هذه الدوائر – بالأول والثانى .. والثالث ...الخ.

وكان مركز قيادة الجيش الأول فى استانبول وكان يسمى هذا الجيش أيضا بـ «الخاصة الهمايونية» ومركز الجيش الثانى في «أدرنه» والجيش الثالث فى «مناستر» والجيش الرابع فى «ارزنجان» والجيش الخامس في دمشق والجيش السادس فى بغداد والجيش السابع فى اليمن. وفضلا عن ذلك، كان هنا ثلاث دوائر عسكرية فرعية، تضم بعض الفيالق، دون أن تكون جيشا كاملا، هذه الدوائر كانت فى طرابلس الغرب، وكريت والحجاز. ومن ذلك يتبين أن ثلاثة من قيادة الجيوش السبعة كانت فى البلاد العربية وأن اثنين من الدوائر الفرعية الثلاث كانت أيضاً فى البلاد العربية.

ويتضح من كل ماسبق أن الولايات العربية منذ بداية القرن السادس عشر وحتى بداية القرن العشرين قد ارتبطت سياسياً وادرارياً ومالياً وعسكرياً بالدولة العثمانية بنسب متفاوتة وتواريخ متقاربة .. وما أن استقلت الولايات العربية عن النفوذ الأجنبى حتى تسمت بالدول، كل باسمه، وما أن شملتها اليقظة العربية والحضارية الجديدة حتى بدات كل دولة تبحث لنفسها عن دور، وأن يكون دورها مستنداً على أحداث التاريخ ووثائقه ومن هنا بدأ التفتيش عن التراث ومحاولة جمعه، وظهرت الأهمية القصوى للوثائق، وأصبح تنظيمها وما تحويه من معلومات من أهم القضايا فى الدراسات العلمية الحديثة، وإذا كان تنظيم المعلومات من أهم القضايا فى

البلدان المتقدمة، فإنه أدعى للأهمية فى بلادنا العربية، إذ تتجمع وثائق ومراجع هامة داخل الأرشيفات العالمية ومكتباتها، تلك الوثائق تأخذ أشكالاً عديدة منها المحفوظات الورقية التى تتكون من الرسائل الواردة، وصور الرسائل الصادرة، والعقود والمستندات المالية .. ومنها الخرائط والرسوم الهندسية التى تمثل فى مساحاتها مساحات غير عادية مما يستوجب جمع شتاتها وتنظيمها تنظيماً علميا يسهل الإفادة منها فى إعادة كتابة تاريخنا العربى.

ويأتى «أرشيف رئاسة الوزراء» فى استانبول على رأس قائمة الأرشيفات التى تحوى ذخائر عربية يجدر الاهتمام بها وجمعها حتى تنير طريق الباحث والمؤرخ العربى. وحتى يقصر الطريق على ذلك الباحث أو المؤرخ العربى ويسهل الوصول إلى هدفه رأيت أن أعرف له بارشيف رئاسة الوزراء هذا، وبالتصانيف المتبعة فى تصنيف محتوياته العلمية، مركزاً علي ما يهم البلدان العربية فيها.

ثانيا: نظرة عامة عى أرشيف رئاسة الوزراء فى استانبول - تركيا:

نبذة تاريخية عن هذا الأرشيف:

لم تصلنا حتى اليوم معلومات موثقة عن الأرشيف التركى عامة، وأرشيف رئاسة الوزارة خاصة، ولكن يمكن ايجاز الوضع طبقا لما هو متوفر لدينا من معلومات على النحو التالى:

إن الدولة العثمانية التى استمرت تحمل وصف الدولة عن جدارة واستحقاق ولمدة طويلة - داخل بلدان الشرق الأدنى والأوسط، وحوض البحر الأبيض المتوسط والبلقان، قد عرفت منذ بداية عهدها فكرة الأرشيف، حيث جمعت كل وثائق الدولة ومستنداتها بأهمية وعناية فائقة، ووضعت داخل حافظات وأكياس وصناديق محكمة للحفاظ عليها(13). وقدكانت

Ismail Hakki uzunçarşılı Osmnlı Devletinin Merkez ve Bahriye(13) Teşkilati. Ankara, 1948, pp. 76 - 78.

خزينة دفاتر المالية، و «خزينة الدفتر خانة» من أهم خزائن الدولة، وقد كانت الوثائق والقيودات الهامة تُحفظ في هذه الخزائن كما كانت الأوامر تصدر من حين لاخر، للتأكيد على الحفاظ والعناية بسجلات الدولة (14).

وكانت وثائق الهيئات والمؤسسات الهامة في الدولة مثل ديوان السلطان وباب العدل (وزارة العدل)، وباب الدفتر (وزارة المالية) توجد في أماكن مختلفة، وفي الفترات والعهود التي كانت فيها اجتماعات الديوان الهمايوني وخزينة الدفتر خانة منظمة كانت وثائقها وزوراقها تحفظ في دائرة «قبه آلتى» أي تحت القبة في قصر طوب قابي، ولما قلت أهمية اجتماعات الديوان الهمايوني، انتقلت هذه الأوراق الي القسم الزعلي من الباب الهمايوني الموجود بجوار الباب الاول للقصر، ثمنقلت تلك الخزائن إلى المخزن المسمى «سراي عتيق» (القصر العتيق) في حي السلطان أحمد، وبعد ذلك نقلت مرة أخرى إلي داذرة «طومروق» بالقرب من الباب العالي (مقر رئاسة الوزارة) وقد تم جمع قسم من الأوراق التي تخص القسر في مبنى «الخزينة الخارجية» الملاصقة لـ «قبه آلتى» أما وثائق المالية فقد تم حفظها في مخازن معسكر «إسكي جادر مهترلرى» المخيمات القديمة للموسيقى العسكرية بالسطان أحمد.

إن المواد الأرشيفية التي جمعت وحفظت طوال مئات السنين، قد تم حمايتها والعناية بها حتى منتصف القرن الثامن عشر، ونالها الاهمال فيما بعد، بسبب ما ألم بالدولة ذاتها من ظروف سيئة وفوضى شاملة.

وكان أولى المحاولات الأرشيفية بالمعنى الحديث قد تمت على يدي مصطفى رشيد باشا (1800 -1857)م أحد رجالات التنظيمات، حيث أمر بانشاء مبنى يتسع لكل مطالب ومحتويات وطموحات الأرشيف وأوراق الصدارة سنة 1262هـ/ 1857م، وقام المهندس المعماري، الايطالي فوستى (Fossati)بتنفيذ المبنى. وكان الهدف من تشييد المبنى الذى سمى بـ

(14) Başbakanlık Arşivi, Muhimme Defter, Nr 183, p. , hukum II.

«خـزينة أوراق» أى خـزينة الأوراق هـو تـأمـين وحـفظ أوراق الصـدارة التـى انتهت معاملاتها، وما زال هذا المبنى مستخدماً حتى اليوم كمخزن رقم واحد فى أرشيف رئاسة الوزراء.

وقد حظيت «خزينة الأوراق» بالاهتمام اللازم فى بادئ الأمر، وعين على رئاسته كاتب الصدارة محسن أفندي الذى كان معروفاً باللياقة والأهلية لهذه المهمة، وعين معه موظفين مدربين ومؤهلين لذلك. وبسبب هذه الأهمية التى حظى بها والعناية التى منحت لهذه المؤسسة فقد سميت «نظارات خزينة أوراق» أى نظارة خزينة الأوراق وجمعت كل المواد الأرشيفية المتناثرة هنا وهناك فى كل المبنى علي هيئة دوسيهات أو ربط(15). واستحدثت لجنة تحت اسم المجلس المؤقت» لوضع نظام العمل الذى سيتبع فى هذه المؤسسة الناشئة.

وكان على هذا المجلس أن يبين نوعية وجنس وقيمة وأهمية الاوراق والوثائق التى ستصنف. وتقرر أن تجمع أوراق ووثائق ما قبل سنة 1839م على هيئة موضوعات عامة أما ما بعد سنة 1839. فتقيد بالدفاتر وتصنف وتفهرس حسب أزمنة معينة وبشكل أكثر تفصيلاً، ووافق المجلس على عدم المساس بالأوراق الموجودة بالقصر.

وبعد مدة تغير الأسم من «نظارت خزينة أوراق» إلي «مديريت خزينة اوراق واحتلت هذه المديرية مكانها بين دوائر وأقسام الصدارة واستمر الوضع علي هذا المنوال حتى نهاية الامبراطورية (16). وخلال هذه المرحلة أعطى كل من الصدر الأعظم عالى باشا وكوچوك سعيد باشا وجواد باشا وحسين حلمى باشا الأهمية المرجوة لأعمال الأرشيف، وأمر جواد باشا باجراء تطوير جديد فى نظام الفهرسة بخزينة الأوراق. وفى عام 1870م وخلال صدارة عالى باشا ومن عهد محمود الأول إلى

---

(15) Ahmed lutfi, Tarih - i Lutfi (neşr Abdurrahman Şeref) Istanbul 1328. Inşa i Hazine-i evrak. C. VIII. p.p. 120 - 122.

(16) Salahaddın Elker. "Mustafa Reşid Paşa Ve Türk" Arşivilı̇ği. in. IV Türk Tarıh Kongresi Tebliğleri. Ankara. 1952. p.p. 183 - 184.

(1730 - 1754) نهاية عهد محمود الثانى (1785 - 1839م) تم نقل أوراق مائة واثنتى عشرة سنة من «مهترخانة» إلى المقر الجديد علاوة على ذلك، فقد تم البدء فى انشاء أرشيفات فى بعض الولايات وان جهود مدحت باشا (الذى كان واليا على ولاية «الطونة) لمن الامور اللافتة للنظر فى هذا الخصوص.

وفى عهد السلطان عبدالحميد الثانى جمعت الوثائق من مختلف المناطق بهدف تصنيفها، ووضعت فى محافل الأياصوفيا، ثم كدست فى الغرف التى كان يستخدمها القساوسة قبل الفتح العثماني لاستانبول سنة 1453م وتعتبر فترة المشروطية الثانية مرحلة جديدة فى تنظيم وتطوير أعمال الأرشيف والاستفادة منه فى الأبحاث. وقد بدا ذلك جليًا بعد تشكيل جمعية التاريخ العثمانى «تاريخ عثمانى انجمنى» 1911م، وكان من بين أهداف هذه الجمعية تصنيف وبحث ونشر وثائق الأرشيف وقد صرفوا جهداً كبيراً فى هذا المجال.

وخلال الحرب العالمية الأولي فُكِّر فى دمج أرشيف الصدارة والخارجية فى «المديرية العامة لخزينة أوراق الباب العالى» وتكونت لجنة من ممثلى الداخلية والخارجية ومجلس الدولة والصدارة، وأعدت لائحة نظامية، إلاَّ أنه لم تتحقق هذه المحاولة التى درست فيما بين 1915 - 1917 بسبب الحرب، ولم تنفذ أى اجراءات جذرية.

وقد شهد العهد الجمهورى تحقيق فكرة إنشاء أرشيف حديث بمعنى الكلمة، فعقب سقوط حكومة استانبول سنة 1923م وبهدف المحافظة على أوراق الصدارة ووثائقها ومشتملاتها، فقد استحدثت دائرة خاصة بالأرشيف تحت اسم «مميزية مخزن الأوراق» وتكون مرتبطة بمديرية القلم الخاص لرئاسة الوزراء، وضم إليها أرشيف مجلس الدولة الملغى وفى سنة1927 تم تغيير الاسم إلى «معاونة المدير» بدلاً من مميزية مخزن الأوراق، وارتبط بمستشارية رئاسة الوزراء. وأخذ شكلاً مستقلاً لدرجة ما. وإذا كان قد ألحق سنة 1929 بمديرية معملات رئاسة الوزارة، إلاَّ أنه حافظ

علي استقلاليته وارتباطه الفعلى بمقام المستشارية، وكانت شعب رئاسة الوزراء تدار كل على حدة، ومن قبل مساعد مدير، وبموجب قانون الهيئات والمؤسسات رقم 2187 والصادر فى مارس سنة 1933 فقد تم توحيد «مديرية الأوراق» فى أنقرة مع «معاونية خزينة الأوراق» ولكن طبقاً لنفس القانون، فقد ظل مساعد المدير على رأس الادارة فى «خزينة الأوراق» في استانبول، واستمرت علاقاته مع المستشارية. فى سنة 1935 تمت محاولة من أجل انشاء أرشيف الدولة واقامة المبانى الخاصة به، وكذا إعداد الخبراء والفنيين اللازمين لخدماته، وتم نشر القرار، ولكن للأسف لم يتحقق ئ من هذه التصورات، وأُعيد بحث الموضوع سنة 1969م.

وبناءا علي قانون الهيئات والمؤسسات رقم 3154 والصادر فى إبريل سنة1937م، فقد تم تحويل اسم خزينة الأوراق إلي مديرية دائرة الأرشيف وزيد عدد الموظفين، وتم تحويله إلى مديرية مستقلة عن مديرية الأوراق فى أنقرة، ثم غير إلى المديرية العامة لأرشيف رئاسة الوزراء وفقا لقانون تشكيل الهيئات رقم 4443 لسنة 1943م.

ولكن عند صدور قانون تنظيم رئاسة الوزراء رقم 6330 فى مارس 1954م أخذ الأرشيف مكانة بين الهيئات المركزية فى رئاسة الوزارة تحت اسم «المديرية العامة لأرشيف رئاسةالوزارة» وفى أواخر سنة 1976م تم تغيير الاسم إلى «دائرة أرشيف رئاسة الوزارة فى العهد الجمهورى» على أن تكون مرتبطة وخاضعة لاشراف مستشارية رئاسة الوزراء، وقد تم تكليف هذه الدائرة بتنظيم الأوراق والوثائق المتراكمة فى رئاسة الوزراء.

وأرشيف رئاسة الوزارة هذا ليس أرشيفاً تركياً فقط، بل هو بمثابة أرشيف كافة الولايات التى كانت تابعة للدولة العثمانية. وأصبحت دولاً مستقلة الآن – والتى كانت تربو على العشرين دولة قبيل انهيار الدولة العثمانية (17).

إن قانون أرشيف الدولة الجديد قد أعطى أرشيف رئاسة الوزارة مهمة تكوين فروع جديدة وتشكيل هيئات منبثقة عنه وتنظيمها والاشراف عليها.

2- **تطور أعمال التصنيف والفهرسة فى أرشيف رئاسة الوزارة**

إن خزينة الأوراق التى تأسست سنة 1846م قد اهتمت ببعض الامور المعينة اعتباراً من تأسيسها وبعد إعلان المشروطية «الدستور» الثانية، وتعيين عبدالرحمن شرف رئيساً لتحرير الوقائع، وانشاء جمعية التاريخ العثمانى، كل ذلك أعطي أعمال الأرشيف دفعة وحيوية جديدة. وقد نقلت الوثائق من «طوب قابى سراى» ومن الأماكن المشتتة الاخرى إلى مكتبة جواد باشا، فى هذه الحقبة ظهرت بعض الأنشطة الايجابية لأعمال الأرشيف، وأبحاثه، وتصانيفه، ونشر للوثائق، كما شكلت لجنة ترأسها علي أميرى للقيام بتحقيق، ودراسة الوثائق، التى نشرتها الجمعية التاريخية، وتبعتها لجنة أخري لنفس الغرض، وكان يرأسها ابن الأمين محمود كمال اينال قطعت شوطاً لا بأس به فى أعمال التصنيف والفهرسة، إلاَّ أنها توقفت وأوكلت أعمالها سنة 1925م لموظفى خزينة الأوراق المعدودين أنفسهم. وبعد اندلاع حرب الاستقلال، وانتقال العاصمة إلى أنقرة، وإهمال كل ما هو عثمانى أو اسلامى، أصاب الأرشيف بدوره الركود وخيم الصمت على نشاطاته. ولكن فى سنة 1931م، وفى أعقاب ما تردد عن بيع بعض وثائق وزارة المالية الي جهات أجنبية، وانعكاس ذلك على الصحافة والرأى العام، فقد تم تشكيل لجنة تصنيف جديدة سنة 1932م تحت رعاية ورئاسة معلم جودت. وخلال عام 1936م دعى خبير الأرشيف والمؤرخ المجرى دكتور لاجوس فكته(Lajos Fekette) من قبل الحكومة لالقاء محاضرات عن المنهج الحديث في التصنيف والأرشفة. وبعد أن قضى سنتى و 1936 - 1937م في إعداد مجموعة عمل حديثة، بدأ فى تطبيق التكنيك الجديد في الارشفة وفى العدول عن نظام فكته هذا إلى نظام جديد فى تصنيف وترتيب وثائق الديوان الهمايونى، وباب العدل، وأوراق الباب العالى، ووثائق الولايات الممتازة وأضيف إلي ذلك في السنوات الأخيرة تصنيف وثائق الوزارت الملغاة، وكذلك أوراق الخزينة الخاصة والأوقاف السلطانية وفى المقالة الثانية

---

(17) نفس المرجع ص 185 - 186.

سنعطي فكرة موجزة عن المميزات والخصوصيات والفوارق التى تفرق بين التصانيف التى تمت من قبل هذه الهيئات المتعددة.

3- المواد الأرشيفية المحفوظة فى أرشيف رئاسة الوزارة وأهميتها فى اعادة كتابة التاريخ:

إن المواد الأرشيفية والوثائقية التي يحتوى عليها أرشيف رئاسة الوزارة فى تركيا تعود كلها تقريباً إلي عهد الدولة العثمانية وكلها مكتوبة بالحروف والخط العربى، ويمكن تقسيمها إلى مجموعتين رئيسيتين:

(أ) الأوراق.

(ب) الدفاتر

وإضافة إلى ذلك فهناك مجموعات من الخرائط وألبومات للصور ورسومات لمشاريع وخطط انشائية وانمائية وكذا وثائق مكتوبة باللغة الفرنسية التى كانت تعد لغة الدبلوماسية فى القرن التاسع عشر، ويقتني هذا الارشيف أيضاً وثائق مكتوبة باللغة العربية والفارسية.

إن هذا الارشيف يحتوى دفاتر الديوان الهمايونى وباب العدل وباب المالية والخزانة، وهذه الدفاتر تعد من أهم المواد الأرشيفية فى الدولة العثمانية، كما يحتوى أيضا بين محتوياته على دفاتر الأقسام والأقلام والدوائر المرتبطة بهذه الهيئات وكذا أوراق وأقسام الصدارة حتي القرن التاسع عشر، ويمثل أريف قصر يلديز - الذى كان مقراً للسلطان عبدالحميد الثانى والذى يحمل ماهية استمرار أرشيف قصر طوب قابى - جزاءا مهماً من أجزاء أريف رئاسة الوزارة وبهذا الأرشيف أيضا كل الوثائق المتعلقة بالسلطان عبدالعزيز (1861 - 1876م) وسياحته في أوروبا ومراد الخامس (1840- 1904م) وما يتصل بعهديهما، وقد نقلت إليه أيضاً

---

(18) Atilla Çetin, Başbaknlık Arşivinde uygulanan Tasnıf Sistemi Ve Kullanılan Kotlar, Istanbul Universitesi Edebiyat Fakültesi Tarıh Dergisi, xxxl (Mrt 1977 - 1978) pp. 235 - 236.

وثائق وأوراق ومستندات الوزارات والادارات الملغاة قبيل انهيار الدولة العثمانية، وأهمها وثائق وأوراق مجلس شورى الدولة والشؤون المالية وخزينة السلطان الخاصة والأوقاف ووزارتى التجارة والغابات، وبه أيضاً المواد الأرشيفية المتعلقة بعلاقات الدولة العثمانية بالدول الأجنبية ومواقفها تجاه جميع المشكلات العالمية آنذاك.

وآخر ما نقل إلي أرشيف رئاسة الوزراء، هو تلك المواد الأرشيفية الخاصة بوزارة الصحة والمساعدات الاجتماعية وأوراق المديرية العامة لصحة السواحل والحدودوكل ما يتعلق بحماية حدود الدولة، وسواحلها من الجهة الصحية. ووثائق مراكز الحجر الصحى [19]، ومما لا شك فيه أنها تمثل أهمية بالغة للباحثين والمهتمين بالشؤون الصحية وتاريخها وأنها توقف الباحث على تشكيلات الدولة - بكل ولاياتها - إدارياً وسياسياً وتعليمياً وعسكرياً وصحياً وتجارياً، وعلى النظام البيروقراطى العثمانى، وعلي التغيرات التى طرأت على نظام العمل فى هذه المؤسسات الحكومية.

ومما سبق يتضح أن توثيق أي فرع من فروع التاريخ للحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والصحية والتعليمية والعسكرية، وتثبيت الحدود المتنازع عليه بين البلدان العربية بعضها البعض تارة وبينها وبين أي دولة اجنبية تارة اخرى، إن تأريخ وتوثيق كل هذا لفي أمس الحاجة إلى الاطلاع على كنوز الأرشيف العثمانى والإستفادة منه. ولكى تسهل تلك الافادة فلابد من الوقوف على أنواع التصانيف المتبعة ونظمها ورموزها وأقسامها المتاح الاطلاع عليها وما يخص البلدان العربية مما تحويه تلك التصانيف بين طياتها وهذا ماسيمثل الركيزة الأسياسية فى المقال الثانى إن شاء الله.

---

(19) Atilla Çetin, Başbakanlık Arşivi Kilvuzu, Istanbul, 1979. p. 5.

- 2 -

التصانيف المتبعة فى الأرشيف العثمانى وخصائصها:

ان التصانيف التى استخدمت فى أرشيف رئاسة الوزارة قد أعدت – بشكل عام – من قبل الهيئات واللجان التى شكلت لهذا الغرض خلال المشروطية الثانية والعهد الجمهورى. وقد حمل كل تصنيف اسم الشخصية التى رأست الهيئة التى أعدته وبعض هذه التصانيف عبارة عن مقابل الوثيقة نفسها، والبعض الآخر عبارة عن الوثيقة وقيدها فى الدفاتر وثالث هذه التصانيف عبارة عن الدفاتر ذاتها.

وكما أن هذه التصانيف بعيدة كل البعد عن طرق التصنيف الحديثة، فإن موادها الأرشيفية خضعت – هى الأخرى – لتصنيف غير علمى. إن معظم هذه التصانيف تم ترتيبه زمنيا"Kironolojik" والوثائق فى معظمها تخص الديوان الهمايونى أو الباب العالى، أو قسم القيد، أو بعض الدول ومع أن هذه التصانيف محتاجة إلى التعديل حسب مقتضيات العصر الحديث، إلاّ أن دخولها ضمن الأدب العلمى حتم وجود كاتلوجات وفهارس تسهل استخدامها دون المساس بأصولها وأهم هذه التصانيف:

1- **تصنيف على أميرى:**

شكلت لجنة فيما بين "1918 - 1921"تحت رئاسة على أميري أفندى 1857 - 1924 الذي كان عاملاً ببليوجرافياً ومورخاً مشهوداً له بالكفاءة. وأهم خصائص هذا التصنيف:

(أ) رتبت الوثائق طبقاً لتتابع السلاطين، وقد شمل الوثائق المتوفرة منذ ما قبل السلطان عثمان حتى عهد السلطان عبدالمجيد.

(ب) عدد وثائق هذا التصنيف 180700 وثيقة.

(ج) هناك كاتالوجات قد أُعدت حسب عصور السلاطين مكتوبة بالخط العربى «اللغة العثمانية وعددها حوالي خمسين كاتالوجاً.

(د) أعدت فهارس بالتركية الحديثة حتي نهاية عهد السلطان محمد الرابع، وهي تشكل ستة مجلدات، والعمل مستمر في إعداد الباقي.

2- **تصنيف ابن الأمين:**

ترأس المؤرخ والبيوجرافي ابن الامين محمود كمال اينال 1870-1907 أعمال اللجنة التي تشكلت وباشرت أعمالها اعتبار من سنة 1911م وخصائص هذا التصنيف:

(أ) صنفت الوثائق تصنيفاً موضوعياً، ورتبت تحت تسعة وعشرين عنواناً «رئيسيا».

(ب) رتبت الوثائق تحت كل عنوان ترتيباً زمنياً.

(ج) المواد المصنفة محصورة فيما بين القرن الرابع عشر والتاسع عشر.

(د) شمل التصنيف 47145 وثيقة.

(هـ) ضم هذا التصنيف 29 كاتالوجاً بالخط العثماني

(و) تم توزيع الوثائق الموجودة طبقا للاقسام الرئيسية لتصنيف ابن الأمين. وكاتلوجاتها بالتركية الحديثة [20].

3- **تصنيف جودت:**

تم إعداد هذا التصنيف من قبل الهيئة التي شكلت لهذا الغرض، تحت رئاسة المعلم والمورخ جودت باشا 1883 - 1936م، واستغرق العمل ما بين سنة 1932 - 1937م وأهم مميزات هذا التصنيف:

(أ) تم تصنيف الوثائق موضوعياً، ورتبت تحت سبعة عشر عنواناً أساسياً.

(ب) تم قيد 220506 وثيقة في السجلات، ويزيد هذا العدد إذا ما أضيفت الملاحق إليها.

(ج) التصنيف مكتوب باللغة التركية الحديثة في أربعة وثلاثين مجلدا، ولها كاتالوجات كبيرة الحجم وإن لم تتم فهارسها.

---

(20) Sertoğlu, Muhteva Bakımından, S. 70.

والفرق الواضح بين تصنيف ابن الأمين وتصنيف جودت هو التقليل الواضح فى عدد الموضوعات، وإن كان النظام المتبع فى كليهما واحداً (21).

4 - **تصنيف فكته** "Fekete":

الأستاذ الدكتور لاجوس فكته مورخ وخبير في الأرشيف العثماني، مجري الجنسية. دعته الحكومة التركية فيما بين سنة 1936 و 1937م لوضع أفكار وحلول لمشكلات الأرشيف العثماني. ويعد التصنيف الذى أعد بناءا على اقتراحات فكته نموذجياً إلى حد ما. وأهم خصائصه ما يلى:

(أ) تم تصنيف المواد الأرشيفية لموضوعاته وحسب تواريخه دون تجزئة لها، وهذا النظام هو المتبع في نظم الاشرفة الحديثة.

(ب) تم تقسيم المواد الأرشيفية والوثائق إلى ثلاثة أقسام رئيسية: الباب الاصفى «العالى» والباب الدفترى ومتفرقات. وقد غطى سنوات 730 - 1000 هـ = 1316 - 1690 م.

(ج) شمل التصنيف 4642 وثيقة.

(د) للتصنيف كتالوج واحد باللغة التركية العثمانية فى مجلد واحد، ولم يتم عمل فهرس له حتى الآن.

توقف العمل في هذا التصنيف، ولم يبدأ مرة أخري الا فى خزيران سنة م. وقد تم وضع الوثائق فى أدراج متساوية ومحافظ خاصة بها، والوثيقة المطلوبة تقدم حافظتها من خلال درجها (22).

5- **تصنيف الخط الهمايونى:**

الخط الهمايونى يعنى الفرمان أو الأمر الصادر من قبل السلطان فى شأن أمر ما وكان الموضوع تتم كتابته ملخصاً فى قلم «آموى» «أى المخابرة مع البلاط الهمايونى» ويقدم إلى السلطان مشفوعاً به كل الأوراق المتعلقة

(21) المصدر نفسه، وكذلك انظر:

Osman Ergin, Muallim Cevdet Hayati, Eserleri, ve Kutuphanesi, Ist. 1937. s 106.

(22) Sertoglu, Muhteva Bakımından, S. 71.

بالموضوع. ويقوم السلطان بدراسة الموضوع والتأشير على الملخص بخط يده، ولذا سمى بـ «خط همايون». وكان رئيس الكتاب يعد الخط الهمايونى الواجب كتابته على الأوراق. وكانت هذه الحالة تسمى «خط همايونى على بياض». ويجمع هذه الخطوط الهمايونية - والمعدة من قبل قلم مخابرة «آموى» بين البلاط والصدارة - تشكل أهم تصنيف فى أرشيف رئاسة الوزراء. وخصوصيات هذا التصنيف:

(أ) يشمل هذا التصنيف الخطوط الهمايونية التى تغطى 112 عاماً من عهد محمود الأول إلى عهد محمود الثانى وأقدم وثيقة تعود إلى سنة 1225 هـ 1713م.

(ب) بالرغم من أنه تصنيف حديث إلاً أنه راعى نوعية الوثيقة فقط.

(ج) لم يراع هذا التصنيف التتابع الزمنى.

(د) لغة هذا التصنيف هى اللغة التركية الحديثة.

وله واحد وثلاثون كاتلوجاً من الحجم الكبير. لم يتم فهرستها بعد.

(هـ) آخر مسلسل للوثائق المدرجة هو الرقم ولكن هناك اعتقاد بأن العدد النهائي ولفائف الفرمانات الأخرى فوق هذا العدد تم إعداد فهرس زمنى من عشرة مجلدات [23].

6- تصنيف الإرادة:

الإرادة أو الارادة السنية تعني أمر أو رأى السلطان في أى أمر من الامور التى تعرض عليه. ومنذ سنة 1832 ترك العمل بالخط الهمايونى الذي كان يصدر فى أمر من الامور، وأصبح من المعتاد أن يعلن الأمر بواسطة الصدارة فاستحدث نظام الارادة، وظل معمولاً به حتى نهاية السلطنة، وحلت الارادة محل الخط الهمايوني. وبناءا عليه، فإن الملخصات المسماة «تذكرة العرض» لم تعد تعرض على السلطان بل تقدم الى رئيس المابين: «البلاط» الذى كان يسمى «رئيس كتاب حضرة الشهريار». وكان الباشكاتب هو الذى يقرأ هذا الملخص على السلطان، ثم يكتب ما يمليه السلطان أو

(23) المصدر نفسه، ص151.

الارادة السنية في زاوية من زوايا الورقة مخاطباً الصدر الأعظم. ولهذا سميت بـ «الارادة السنية» (24).

وتصنيف الإرادة الذى يحتوى على الارادات السنية مقسم الى خمس مجموعات حسب نظامها:

(أ) **مجموعة الارادة السنية التى صدرت فيما بين سنتى 1255 - 1309- هـ/ 1839 - 1891م:**

عندما تم فصل الارادة السنية الى ارادة داخلية وارادة خارجية، وبعد تشكيل «مجلس والاى أحكام عدلية» سنة 1256هـ: 1840م تم تسجيل وقيد الارادات السنية بشكل مستقل استناداً إلى مضبطة هذا المجلس واعتباراً من هـ1270/ سنة 1853م بدأ فى تسجيل الارادة السنية التى صدرت استنادا على مضابط «مجلس مخصوص وكلاء» بشكل منفصل. وبالغاء مجلس الأعضاء سنة 1284هـ/ سنة 1867م وتشكيل «مجلس شوراى دولت» مجلس شورى الدولة، تم تسجيل الارادات الصادرة استناداً على قرارات هذا المجلس بشكل منفصل.

وهكذا فإن الأوامر أو الارادة السنية التى صدرت منذ بداية 1255هـ وحتى نهاية سنة 1309هـ قد قسمت بدورها إلى خمسة أقسام. وكانت تواريخ هذه الاقسام وعدد وثائق كل منها كما يلى:

– داخلية	1200 - 1309	101126 وثيقة
– خارجية	1255 - 1309	31136 وثيقة
– مجلس والاى	1255 - 1270	26336 وثيقة
– مجلس مخصوص	1270 - 1284	5646 وثيقة
– مجلس شوراى دولت	1286 - 1309	7214 وثيقة

وقد بلغ عدد وثائق هذه المجموعة 161458 وثيقة وكانت أهم مميزات هذه الفرمانات الصادرة منذ 1255 - 1309هـ، أنها مقسمة الى خمسة أقسام شملت المجموعة كلها كما سبقت الاشارة 161458 وثيقة، وقد أعد

(24) Atilla, Çetin, Başbakanlık Arşivi Kilavuzu, S. 14.

بالموضوع. ويقوم السلطان بدراسة الموضوع والتأشير على الملخص بخط يده، ولذا سمي بـ «خط همايون». وكان رئيس الكتاب يعد الخط الهمايونى الواجب كتابته على الأوراق. وكانت هذه الحالة تسمى «خط همايونى على بياض». ويجمع هذه الخطوط الهمايونية – والمعدة من قبل قلم مخابرة «آموى» بين البلاط والصدارة – تشكل أهم تصنيف فى أرشيف رئاسة الوزراء. وخصوصيات هذا التصنيف:

(أ) يشمل هذا التصنيف الخطوط الهمايونية التى تغطى 112 عاماً من عهد محمود الأول إلى عهد محمود الثانى وأقدم وثيقة تعود إلى سنة 1225 هـ 1713م.

(ب) بالرغم من أنه تصنيف حديث إلاّ أنه راعى نوعية الوثيقة فقط.

(ج) لم يراع هذا التصنيف التتابع الزمنى.

(د) لغة هذا التصنيف هى اللغة التركية الحديثة.

وله واحد وثلاثون كاتلوجاً من الحجم الكبير. لم يتم فهرستها بعد.

(هـ) آخر مسلسل للوثائق المدرجة هو الرقم ولكن هناك اعتقاد بأن العدد النهائي ولفائف الفرمانات الأخرى فوق هذا العدد تم إعداد فهرس زمنى من عشرة مجلدات [23].

6- تصنيف الإرادة:

الإرادة أو الارادة السنية تعني أمر أو رأى السلطان في أى أمر من الامور التى تعرض عليه. ومنذ سنة 1832 ترك العمل بالخط الهمايونى الذي كان يصدر فى أمر من الامور، وأصبح من المعتاد أن يعلن الأمر بواسطة الصدارة فاستحدث نظام الارادة، وظل معمولاً به حتى نهاية السلطنة، وحلت الارادة محل الخط الهمايوني. وبناءا عليه، فإن الملخصات المسماة «تذكرة العرض» لم تعد تعرض على السلطان بل تقدم الى رئيس المابين: «البلاط» الذى كان يسمى «رئيس كتاب حضرة الشهريار». وكان الباشكاتب هو الذى يقرأ هذا الملخص على السلطان، ثم يكتب ما يمليه السلطان أو

(23) المصدر نفسه، ص151.

الارادة السنية في زاوية من زوايا الورقة مخاطباً الصدر الأعظم، ولهذا سميت بـ «الارادة السنية» (24).

وتصنيف الإرادة الذى يحتوى على الارادات السنية مقسم الى خمس مجموعات حسب نظامها:

(أ) مجموعة الارادة السنية التى صدرت فيما بين سنتى 1255 - 1309- هـ/ 1839 - 1891م:

عندما تم فصل الارادة السنية الى ارادة داخلية وارادة خارجية، وبعد تشكيل «مجلس والاى أحكام عدلية» سنة 1256هـ: 1840م تم تسجيل وقيد الارادات السنية بشكل مستقل استناداً إلى مضبطة هذا المجلس واعتباراً من هـ1270/ سنة 1853م بدأ فى تسجيل الارادة السنية التى صدرت استنادا على مضابط «مجلس مخصوص وكلاء» بشكل منفصل. وبالغاء مجلس الأعضاء سنة 1284هـ/ سنة 1867م وتشكيل «مجلس شوراى دولت» مجلس شورى الدولة، تم تسجيل الارادات الصادرة استناداً على قرارات هذا المجلس بشكل منفصل.

وهكذا فإن الأوامر أو الارادة السنية التى صدرت منذ بداية 1255هـ وحتى نهاية سنة 1309هـ قد قسمت بدورها إلى خمسة أقسام. وكانت تواريخ هذه الاقسام وعدد وثائق كل منها كما يلى:

– داخلية	1200 - 1309	101126 وثيقة
– خارجية	1255 - 1309	31136 وثيقة
– مجلس والاى	1255 - 1270	26336 وثيقة
– مجلس مخصوص	1270 - 1284	5646 وثيقة
– مجلس شوراى دولت	1286 - 1309	7214 وثيقة

وقد بلغ عدد وثائق هذه المجموعة 161458 وثيقة وكانت أهم مميزات هذه الفرمانات الصادرة منذ 1255 - 1309هـ، أنها مقسمة الى خمسة أقسام شملت المجموعة كلها كما سبقت الاشارة 161458 وثيقة، وقد أعد

(24) Atilla, Çetin, Başbakanlık Arşivi Kilavuzu, S. 14.

كاتلوج لكل سنة على حدة وباللغة العثمانية، وتم تسجيلها بعد أن صنفت على شكل مجموعات مستقلة. وتم إعداد كاتالوجات باللغة التركية الحديثة خاصة بالسنوات المحصورة فيما بين 1255 /1288هـ سنة 1871م. وهذا يعنى أن هناك كاتالوجات بكلتا اللغتين العثمانية والتركية الحديثة حتى سنة 1288هـ سنة 1871م.

(ب) مجموعة الأوامر أو الفرمانات أو الارادات النسية الصادرة فيما بين 1310 - 1334 هـ/ 1892 إلى 1916م:

خلال فترة تولي أحمد جواد باشا للصدارة العظمى سنة 1310هـ، تقرر ترتيب الارادات السنية حسب وزارات الدولة واضعين فى الاعتبار مؤسسات الدولة وتشكيلاتها. واستمر العمل بهذا التنظيم حتى سنة 1334. وكانت الأقسام كالتالى:

1- التلطيفات	17- نافعة
2- الخارجية	18- صحية
3- الخصوص	19- بحرية
4- المالية	20- ضبطية
5- العدلية	21- دفتر خاقانى
6- الداخلية	22- نظام
7- العسكرية	23- طوبخانه
8- أمانة المدينة	24- علمية
9- أوقاف	25- غابات ومعادن
10- تقاعد	26- مجلس عمومى
11- مشيخات	27- بلاط سلطانى
12- رسومات	28- أوقاف سلطانية
13- تلغراف	29- تجارة ونافعة
14- امتيازات	30- معارف عمومية
15- معارف	31- عدلية ومذاهب
16- غابات	32- حربية

وأهم مميزات هذه المجموعة كما هو واضح: تقسيمها إلى اثنين وثلاثين قسماً، وإعداد كتلوج لكل وزارة وادارة على حدة. مما يسهل الرجوع إليها وكذا لكل سنة على حدة وكلها باللغة العثمانية.

(ج) مجموعة الارادات السنية المحفوظة فى الملفات:

منذ مارس سنة 1916م/ سنة 1336هـ تم صرف النظر عن النظام السابق واستخدام الحفظ فى الملفات، ولذلك تم تصنيف هذه الأوامر طبقاً لموضوعاتها، واستمر العمل بهذا النظام حتى نهاية الامبراطورية.

وأهم خصوصيات هذا النظام تصنيفه الفرمانات حسب الموضوعات والمشاكل، وقد قسمت الى ثمانية موضوعات رئيسية، وكل منها الي موضوعات فرعية. يمكن أن يصادف الباحث فرمانات تعود الى ما قبل العمل بهذا النظام حيث ألحقت الارادة المهمة بملف موضوعها.

كما أعدت كاتالوجات موضوعية حسب السنوات بالحروف العثمانية وليس لها فهارس، وانما تطلب النمرة والسنة المسجلة بالكاتالوج عند المراجعة.

(د) مجموعة الارادات السنية المتعلقة بالمشاكل والامور المهمة كمشكلة بلغاريا واليونان وكريت ومصر:

بعد اعلان التنظيمات سنة1255 هـ/ سنة 1839م غربلة الارادات السنية الصادرة بعدها، واستخرجت منها الأوامر والفرمانات المتعلقة بمشاكل الولايات كمصر وكريت واليونان وسيصام وبلغاريا ورتبت على هيئة مجموعات مستقلة، وهذه المجموعة تشمل كل الأوامر السنية الصادرة من التنظيمات وحتى نهاية الامبراطورية. ولكل مسألة كاتالوج خاص بها كبير الحجم باللغة العثمانية ما عدا مصر فلها اثنان من القطع الكبير.

(هـ) مجموعة الارادات السنية المتصلة بالمسائل المهمة:

عدا الاوامر التي تم تنظيمها وترتيبها في سياق المجموعات الأربع السابقة التى تشكل جزءا من تصنيف الارادة، فإن هناك أوامر سنية أخرى تخص فترة ما بعد التنظيمات وقد تم فرزها وفصل ما يمكن أن يعتبر مهماً.

وصنفت في مجموعتين؛ الاولى تشمل «مسائل مهمة»، أما الثانية فقد قسمت إلى: مصالح مهمة ملكية خصوصية، ومسائل مخصوص، ومسائل مهمة جناب ملوكاته [25]. ومحتويات هذين الترتيبين كما يلي مرتبة حسب سنواتها وأرقامها:

الموضوع	السنة	الرقم
تنسيق وتنظيم الممتلكات والبلدية	1255 - 1264 هـ	1 - 190
والأبنية والقانون وما يتصل بالعساكر	1257 - 1264 هـ	191 - 338

وما يهمنا نحن العرب من المسائل المهمة ما يلي:

الموضوع	السنة	الرقم
١) المسئلة الأرمنية	1258 - 1264	935 - 942
٢) المسئلة اليهودية	1256 -	1005 - 1007
٣) المسئلة اليمنية	1258 - 1264	1795 - 1824
٤) المسئلة الوهابية	1259 - 1260	1825 - 1832
٥) مسئلة كربلاء	1259 -	1831 - 1840
٦) مسئلة الموصل	1259 -	1987 - 1988
٧) مسئلة ديار بكر	1261 - 1262	1989 -
٨) مسئلة أحمد بك أمير قسطنطينة بالجزائر	1256 - 1257	1994 - 1997
٩) ما يتعلق بالاكراد والعشائر	1259 - 1264	1998 - 2035
١٠) ما يتعلق بولاية بغداد	1259 - 1264	2036 - 2072
١١) ما يتعلق بولاية حلب	1262 - 1263	2076 - 2077
١٢) ما يتعلق بولاية الشام	1260 - 1264	2078 - 2079
١٣) ما يتعلق بولاية طرابلس	1258 - 1264	2082 - 2107
١٤) ما يتعلق بولاية تونس	1258 - 1263	2108 - 2143
١٥) ما يتعلق بولاية صيدا	1257 - 1264	2144 - 2181
١٦) ما يتعلق بولاية مصر	1258 - 1264	2182 - 2241
١٧) ما يتعلق بجزر البحر الأحمر	1263 - 1264	2237 - 1241
١٨) ما يتعلق بولاية القدس	1257 - 1262	2349 - 2357
١٩) ما يتعلق بولاية جدة	1257 - 1264	2430 - 2459

(25) المصدر نفسه.

مما سبق يتضح مدى احتياج المؤرخ العربي لدراسة تلك الوثائق المتعلقة بالامور المهمة.

7- تصنيف كامل كپه جي:"Kamil Kepeci".

كامل كپه جي واحد من موظفي الأرشيف المرموقين، ترأس لجنة لعمل تصنيف نسب إليه، وأكثر الوثائق التي اعتمدت عليها هذه اللجنة هي دفاتر المالية، ودفاتر قلم الديوان الهمايوني والباب الآصفي، وأهم مميزات هذا التصنيف:

(أ) أنه تصنيف معتمد على الدفاتر، وتمثل دفاتر «الباب» أهم مواده الأرشيفية وكان آخر رقم لتلك الدفاتر هو 7500.

(ب) قسمت المواد الأرشيفية موضوعياً حسب ادارتها.

(ج) له كاتلوج واحد مطبوع بالتركية الحديثة، وكما وزعت الدفاتر حسب ادارتها فقد ذكرت أرقامها الخاصة والعامة حسب السنوات.

(د) قسمت الموضوعات إلى خمسة ومائة عنوان رئيسي (26).

8- تصنيف دفاتر المالية:

هو تصنيف للدفاتر المحولة من المالية وعددها ستة وعشرون ألف دفتر، وهذا التصنيف يحتوى - إلى جانب دفاتر المالية بكل فروعها - على دفاتر أخرى تتعلق بالآراضي والقصر والانكشارية. وقد أعد من قبل مجموعة من العاملين في الأرشيف. وأهم خصائصه:

(أ) تم هذا التصنيف على أساس الفيشات «الكروت» وقد أعد لكل دفتر ثلاث فيشات؛ 1- حسب التاريخ، 2 - حسب التسلسل،3 - حسب الموضوع. وقد وضعت تلك الفيشات في أدراج خاصة، وكتبت الفيشات باللغة العثمانية. ولكن اعتباراً من سنة 1973م تم إعداد كاتلوجات

---

(26) المصدر نفسه.

بالتركية الحديثة فى أربعة مجلدات حتى نهاية سنة 1978م واحتوت على مسلسل وصل الى رقم 6033.

(ب) تشمل هذه الدفاتر فترة زمنية تمتد من عصر الفاتح حتى القرن التاسع عشر الميلادى.

(حـ) وصلت أعداد الدفاتر المسجلة 23138 دفتراً، وإذا ما أضفنا إليها الدفاتر المكررة تصل إلى ستة وعشرين ألف دفتر، وقد وضعت فى عشرة أدراج، وكل درج يحتوي على فهرس بالموضوعات وسنينها(27).

9- تصنيف يلديز: أو «الارشيف»:

اختص هذا التصنيف بدفاتر ووثائق قصر يلديز الذي كان مقراً للاقامة الرسمية للسلطان عبدالحميد الثانى 1876 - 1909م. لما كانت سياسة السلطان عبد الحميد تعتمد فى المقام الاول على دارسة كافة الموضوعات بكل تفرعاتها بنفسه وابداء رأيه في الموضوع كتابة؛ تطلب ذلك أن يكون بالقرب منه أرشيفاً منظماً ومرتباً سهل الاستخدام.

ولقد كانت هيئة هذا الأرشيف مكونة من رئيس الكتاب «باشكاتب» وكاتب ثان وحوالى ثلاثين كاتباً يُختارون بدقة وعناية، وكانت مهمتهم الى جانب إعداد المكاتبات والردود حفظ التقارير بشكل سرى منظم.

بعد خلع السلطان عبد الحميد سنة 1909م تم تصفية قصر يلديز، ونقلت محتوياته الى وزارة الحربية، وصفيت هذه المحتويات وعزلت الكتب والخرائط والالبومات ونقلت محتوياته إلى وزارة المعارف، أما الباقي فأرسل الى «خزينة الأوراق. هذا، وقد تم حرق الكثير من التقارير ولم ينج من الحرق إلاَّ القليل.

---

(27) المصدر نفسه.

تم تصنيف هذه الأوراق من قبل هيئة برئاسة ابن الأمين محمد كمال، واستمرت أعمال التصنيف لهذه الأوراق طبقاً لمحتواها وسنواتها. وإذا كان أرشيف قصر يلديز مكوناً من ستة أقسام رئيسية فإن واحداً منها فقط هو المتاح للباحثين، ألا وهو «قسم أوراق يلديز الأساسية».

وقد تم تقسيمه هو الآخر إلى أربعين عنواناً رئيسياً شملت كافة المكاتبات والمعروضات التى قدمت إلى الدولة، ووجهة نظرها فى تلك القضايا، وكذلك المهام التى كلف بها السلطان بنفسه بعض الشخصيات سواء أكانت محلية أو أجنبية، وكذا أوراق بعض الشخصيات البارزة التى تولت بعض المناصب الادارية والسياسية في ولايات الامبراطورية.

وحجم محتويات أرشيف قصر يلديز كما يلى:

I,703	كرتونة،
626,700	وثيقة،
I5,845	دفتر،
3I8	متر طول الأرفف التى تشمل أوراق المعروضات الرسمية والخاصة (28).

10- **تصنيف الاوقاف:**

يشمل الوقفيات التى ظهرت بين الأوراق والكتب والتقارير التى نقلت من المالية سنة 1945 م وهو عبارة عن تصنيفين:

(أ) الوقفيات المحولة من المالية وتبلغ إحدى وعشرين وقفية، ولها فهرس يتحدث عن كل وقفية ومحتوياتها.

---

(28) المصدر نفسه.

Atilla Çetin "Yıldız ArşivineDair" in Istanbul uni, Ede, Fakültesi, Tarih Dergisi, Sayi xxxıı Mrt, 1979, S. %63 - 586.

(ب) الوقفيات الأخرى، وقد نظمت في عشرين كرتوناً تحتوي على سبعمائة وخمس وخمسين وقفية.

11- **تصنيف الاوراق المحولة من المالية:**

ويشمل الوثائق التى تم فرزها والمحولة من وزارة المالية سنة 1945 ولها فهرس مفصل بكل محتوياتها، وهى عبارة عن جدولين يحتويان على مائتين وتسع وعشرين وثيقة، الجدول الأول يحتوى على 198 وثيقة أما الجدول الثانى فيحتوى على 31 وثيقة.

12- **تصنيف الفرمانات المذهبة:**

هو تصنيف يشتمل على كل الفرمانات السلطانية (المذهبة وهى عبارة عن663 فرماناً صدرت فيما بين سنة 970 - 1275هـ/ 1562- 1858، وقد أعد لها فهرس مفصل حسب السنوات، والفرمانات الاخري المذهبة والتى صدرت بعد هذا التاريخ المذكور أدرجت ضمن وثائق الموضوعات المتصلة بها.

13- **تصنيف الخرائط:**

لقد تم حتى الآن إعداد تصنيفين لكل الخرائط والخطط والمشروعات والمواد الكارتوغرافية الموجودة ضمن مواد أرشيف رئاسة الوزراء. وهناك خرائط أخرى غيرها ملحقة بمواضيعها. وهذان التصنيفان هما:

(أ) تصنيف الخرائط والخطط المتعلقة بالديوان الهمايونى، وتشمل خرائط الحدود والمناطق والقلاع والمبانى وعددها130 ولها فهرس مفصل ومقيدة فى تسلسل من 1 - 130.

(ب) تصنيف الخرائط، وهو تصنيف أعد سنة 1978م من قبل هيئة ثلاثية وقد شمل 393 خريطة تاريخية وجغرافية.

14- تصنيف الوثائق والدفاتر المحولة من مصلحة الأملاك القومية:

عبارة عن مواد آرشيفية تم تحويلها من مديرية الأملاك الأميرية سنة1941 م وكلها36 منها 13 دفتراً ولذلك سميت بدفاتر الأملاك القومية. وتشمل كل ما يتعلق بسجلات الأراضى والأملاك والاعتمادات المرسلة من الامبراطورية أو من الدول الاجنبية إلى الامبراطورية.

15- تصنيف دفاتر السجل العمومي:

يتكون هذا التصنيف من أوراق وزارة الداخلية الملغاة ودفاتر السجّل العمومى المحولة إلى أرشيف رئاسة الوزراء. ويحتوى على تراجم لكل موظفى الدولة المدنيين منهم والعسكريين منذ سنة 1297هـ: سنة 1878م، وهو يعد بحق أصدق سجل لموظفى الدولة العثمانية فى القرن التاسع عشر وخصوصيات هذا التصنيف: عبارة عن 196 دفتراً من دفاتر السجلات الكبيرة الحجم، بها ترجمة لـ «92137» موظفاٍ. وله فهرس أبجدى بأسماء الموظفين كتب به معرفة تاريخ ميلاده او مكان مولده والأصعب الوصول الى ترجمته (29).

16- تصنيف دفاتر المرتبات وسجلات مستخدمى وموظفى الخزينة الخاصة:

لقد تم إعداد دفترين لسجلات الموظفين والمستخدمين العاملين فى نظارة الخزينة الخاصة، وفهرساً حسب الأسماء، وهناك دفاتر مقيد بها رواتب ومعاشات هؤلاء الموظفين والمستخدمين بلغت 570 دفتراً، ولها كروت مرتبة ترتيبا أبجدياً، وتعتبر غاية فى الأهمية لحفظ حقوق الورثة وأصحاب المطالب.

وملحق به دفتران لتراجم موظفي مجلس شورى الدولة، ولهما فهرس أبجدى وبعد سنة 1327 استمر العمل فى هذه السجلات ولكن بطريقة

---

(29) A. Çetin, Bşbkanlık Arşivi Kilavuzu, S. 40 - 46.

الملفات واضبارات وأظرف، وتشكل هذه الكروت ملء سبعة وأربعين درجاً من أدراج الفهرسة.

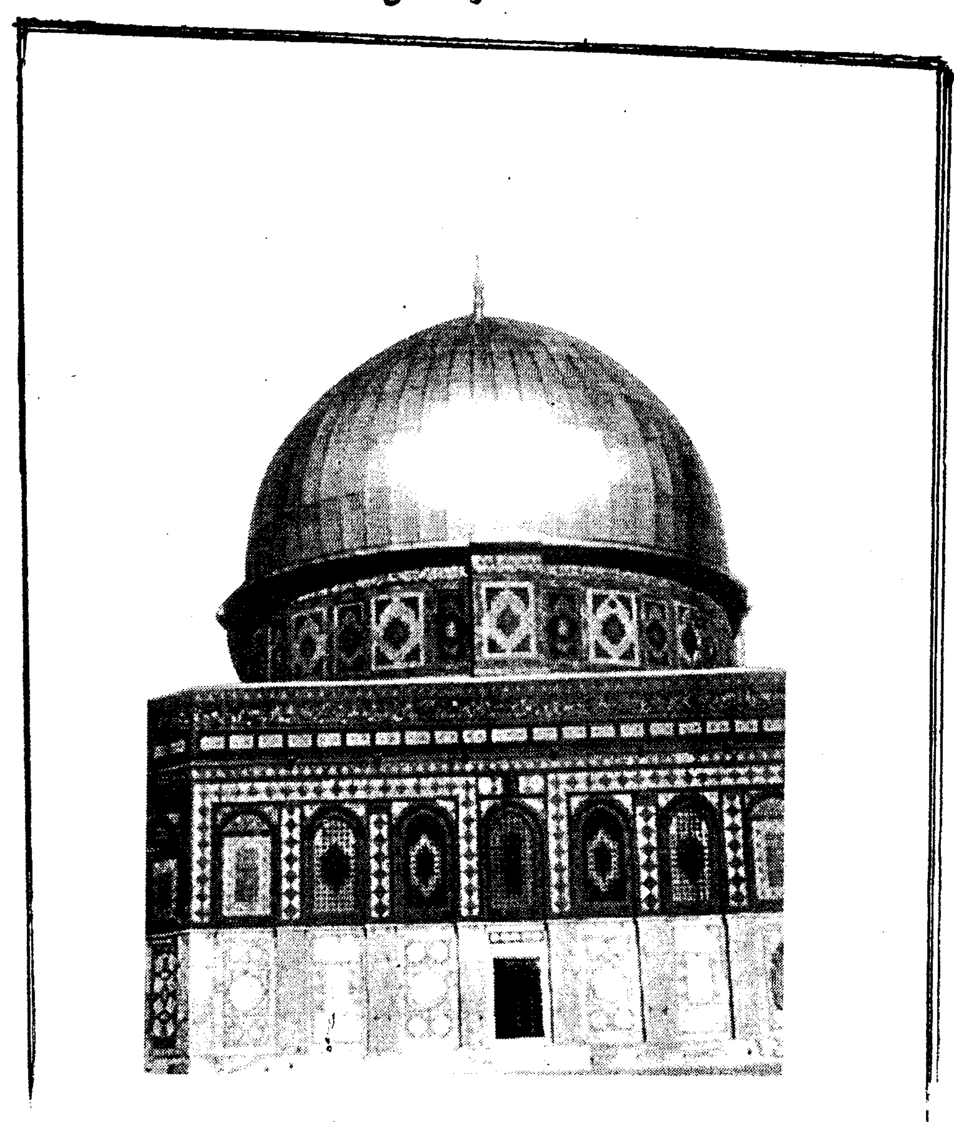
من هذا يتضح أن عدد التصانيف الرئيسية ستة عشر تصنيفاً ولا يزال العمل مستمراً لاتمام المهمة ووضع بعض التصانيف الحديثة لما لم يصنف بعد.

ومن مميزات هذه المجموعات أنها تعتبر من أحدث الوثائق التى يمكن الاطلاع عليها فى دار المحفوظات المذكورة، ويمكن الركون إليها والاعتماد عليها فى بحث وتناول الكثير من الموضوعات المتعلقة بتاريخ العرب الحديث والمعاصر ومن ناحية أخرى، فإن هذه التصانيف تقع ضمن فترة زمنية محددة أى منذ بداية عهد التنظيمات سنة 1255هـ: 1839م وحتى نهاية الحكم العثمانى للبلاد العربية.

هذا، وسوف نتناول فى المقال التالى - باذن الله - دفاتر الديوان الهمايونى ودفاتر الباب الآصفى، ودفاتر المالية وكذا دفاتر، الدفتر خانه والطابو والتحرير، ووثائق الديوان الهمايونى من معاهدات واتفاقيات، وكذا وثائق الباب الآصفى؛ من مضابط لجلسات مجلس الوكلاء، وملفات مضابط الارادة السنية، والارادات السنية ذاتها، والتذاكر الرسمية والخصوصية، ووثائق مكتب التخابر «أموى» وأرشيف الباب العالى بأقسامه الادارية والسياسية والقانونية وغيرها من الوثائق المختلفة.

وعلى الله قصد السبيل

القدس
خلا العصر العثمانى



المسجد الأقصى

القدس
خلال العصر العثماني(*)

القدس العربية ظلت كذلك حتى إبان العهد العثماني الذى استمر منذ سنة ٩٢٣هـ - ١٥١٧م حتى انهيار الدولة العثمانية نهائياً فى بدايات القرن العشرين .. فقد كانت خاضعة للسيطرة المملوكية. ولما أنهى السلطات سليم الأول حكم المماليك فى مصر سنة ٩٢٣هـ = ١٥١٧م دخلت القدس بدورها تحت إدارة الترك العثمانيين. وما أن استقرت الأمور للسلطان سليم فى كل من سوريا ومصر ومعهما الحرمين الشريفين، والقدس الشريف حتى أصدر فرماناته وأوامره بألا تُبنى كنائس، أو معابد جديدة فى المدن، والقصبات والقرى التابعة لهذه المناطق، بل يُحافظ على القائم منها فعلاً، وتُمنح الرعاية والصيانة اللازمة لتأمين قيامها بالمهام المنوطة بها .. وكان يُسمح بهدم القديم القائم منها، واعادة البناء فى نفس المكان، وبنفس الطراز المعمارى المستخدم. وقد تمثل فى ذلك بما فعله سيدنا عمر الفاروق بن الخطاب فى السنة الخامسة عشر للهجرة النبوية حيث اعترف بكل الحقوق المرعية لكل الرعايا غير المسلمين بتعهد مكتوب، وما كان من السلطان التركي إلاَّ أن فعل نفس الشئ حيث أصدر فرماناً عقب ضم القدس ٩٢٣/١٥١٧م يحفظ لكل الرعايا من المسيحيين واليهود حقوقهم الدينية، وأمَّن لهم بكل مذاهبهم، وطوائفهم حق ممارسة الشعائر بدون أية عوائق. وقد حدَّد فى هذا الفرمان الذى سطره قاضى القدس بخطه كل حقوقهم، وطرق حماية هذه الحقوق. ومنع أى تجاور عليها.

وهذا الفرمان موجود فى «خزينة أوراق» البطريركية الأرمنية فى القدس الشريف.

(*) نُشر هذا البحث فى مجلة شئون الشرق الأوسط، العدد الثالث يوليو/ تموز سنه ٢٠٠٢م.

.. إن الدولة العثمانية قد قامت على مبادئ الشرع الشريف، وكانت تُطبق هذه المبادئ على كل الأراضي التي دخلت تحت حوزتها .. ووفقاً لما اتفق عليه، فإنها لم تكن تسمح بإنشاء كنائس، أو معابد في القرى أو المدن التي يتم فتحها . ولكنها كانت تسمح باستمرار نشاط القائم منها .. واعادة بناء المتهدم، أو صيانته لكي يظل على الهيئة التي كان عليها ... وكان ديدنهم في ذلك هو القدوة الصالحة من الخلفاء .. فكما هو مسجل في صفحات التاريخ فإن عمر الفاروق ﷺ - قد تم فتح القدس عن طريق الصلح في عهده في السنة الخامسة عشر للهجرة النبوية .. وقد اعترف بحقوق كافة سكانها من غير المسلمين .. ولقد كان عمر بن الخطاب هو قدوة سليم الأول الذي فتح القدس بعد أن ضم الشام ٩٢٢هـ = ١٥١٦م ومصر ٩٢٣هـ ١٥١٧م. وأكد ذلك بفرمان حتى لا تضيع حقوق أهل الذمة .. وكان هذا الفرمان إلى جانب حمايته لحقوق أهل الذمة، فإنه كان يحميهم من أي اعتداء أو تجاوز .. ويترك لهم إلى جانب الحرية الكاملة في ممارسة شعائرهم الدينية، ترك لهم حق إدارة أنفسهم من النواحي الدينية. وقد جعل أهل المدينة هم الذين يسطرون نص الفرمان، حيث أسند إلى قاضي مدينة القدس صياغته ... وقد قام سركيز قاراقوچ الأرمني بنسخه عن الأصل الموجود في مكتبة البطريركية الأرمنية في القدس.

وفيما يلي نص الترجمة عن النص التركي حيث تعذر الحصول على النص العربي:

* *فليعمل بموجب النيشان الهمايوني ...*

إن النيشان الشريف، عالي الشأن للسلطان السامي .. حامل الطغراء الخاص بخاقان العالم .. وبالعون الرباني .. والمن السبحاني فالحكم بمايلي:

بعون الله تعالى ورسوله قد جئنا إلى القدس الشريف .. وفُتح بابها في يوم ٢٥ من شهر صفر الخير .. وقد قَدِم الراهب المسمى سركيز الذي هو بطريق الطائفة الأرمنية وفي معيته سائر الرهبان والرعايا والبرايا .. وقد سألنا العطايا وتمنى الإنعامات .. وأن تظل تحت تصرفهم ورعايتهم كما هو سابق وسائر لبطارقة طائفة

الأرمن الذين تولوا الضبط والاشراف من القديم لما هو تحت عهدتهم من الكنائس والأديرة، وأماكن الزيارة وكذا الكنائس الأخرى الواقعة فى الداخل والضواحى وكذا المعابد .. ومنذ العهد العمرى (ﷺ) وكذا معاهدة حضرة السلطان المرحوم الملك صلاح الدين والأوامر الشريفة المعطاة تجعل الضبط والتصرف على كنيسة القيامة، ومغارة بيت لحم، وبابها الواقع فى الجهة الشمالية، والكنائس الكبرى: ومار يعقوب ودير الزيتون، وحبس المسيح ونابلس بما فيهما من كنائس تخص سائر الأمم كالحبش والقبط والسريان للبطريزك الأرمنى القائم والقاطن فى كنائس مار يعقوب ... وينص النيشان الهمايونى على عدم تدخل أى فرد من الملل الآخرى .. وقد منحت هذا النيشان الهمايونى مقرونا بالسعادة .. وأمرت بما هو آت:

يُعمل بموجبه، وأن تكون السيطرة والتصرف فى الكنائس الكبرى المذكورة .. والكنائس الواقعة فى ضواحى وداخل البطريركية الأرمنية الكائنة فى مار – يعقوب، وكذا المعابد وسائر أماكن الزيارة والأديرة التى تتبع طوائف أخرى كالحبش والقبط والسريان فلهم ممارسة مراسمهم الدينية فيها ... وضبطها ورعايتها بأنفسهم .. ولا يحق لأي مَنْ كان أن يتدخل فى تنصيب أو تعيين أو عزل من يقومون بالشئون الدينية والإشراف على الرهبان والقساوسة، والمتروبوليد، والبيسكوبوس وسائر الأمور الدينية متروكة لهم ممثلة فى البطريركية الأرمنية، ومايتبعها من كنائس ومعابد وأديرة، وسائر أماكن الزيارة عندهم .. ولا يحق لأى فرد من غيرهم التدخل فى أمورهم .. ويحق لسائر الأمم أن يدخلوا إلى كنيسة القيامة والتربة الواقعة وسطها، وإلى مقبرة السيدة العذراء الأم مريم الواقعة فى ضواحى القدس الشريف، وإلى المغارة التى ولد فيها السيد المسيح «عليه السلام» فى بيت لحم، وحفظ مفتاح بابها الشمالى، والشمعدانان الموجودان فى داخل كنيسة القيامة .. والقناديل .. وكذا القناديل الموجودة فى داخل المقبرة، وعلى بابها والشموع التى تُوقد والبخور .. والحفاظ على المراسم والعبادات التى تتم داخل كنيسة القيامة وفقاً للعنعنات والمعتقدات حتى ظهور نار الشمع المقدس .. فيحق لجميع الأمم الدخول، والدوران حولها، وزيارة الباب، ورؤية الذهب والأحجار الغالية على نافذتيها .. ورؤية وزيارة المعبد الكائن بالداخل .. وزيارة كل أبار الماء ومزارات ماريوحنا الكائنة فى فناء كنيسة القيامة .. وزيارة حبس المسيح الواقع بالقرب من مار يعقوب فى الضواحى .. وزيارة الغرف والمضيفات الواقعة بالقرب من مغارة بيت لحم وأضرحتها ... كما يحق للبطريركية المذكورة لطائفة الأرمن الإشراف

ورعاية كافة الحدائق والباستين ومزارع الزيتون وبالجملة جميع الكنائس والمعابد والأديرة والمزارات التابعة لهم، وكل الأملاك والأوقاف الخاصة بهم .. وكل توابعهم ومايتبعهم .. ولا يتم التعرض لأي شخص من الطائفة الأرمنية قادماً لزيارة الكنيسة .. أو بئر المياه المسمى زمزم ولا يتعرض أي أحد لمزارعهم، أومعابدهم .. أو مزاراتهم .. ولا يمنعهم عن ذلك أي أحد .. ويعمل وفقاً لهذا النيشان السلطاني من بعد اليوم على الوجهة المشروحة ... ولا يسمح لأي شخص من ملة أخرى التدخل في شأنهم .. وعلى أولادي الأماجد، أو وزرائي الأعاظم، ومشايخي الكرام، والقضاة، والقادة، وأمراء الإمارات، وقادة السناجق، وأمير الأمراء، وضباط الانضباط والأمن، ورجال بيت المال والقسام .. ومديرو البلدية والزعماء، وأرباب التيمار والمتصرفين وسائر حرس بابي وغيرهم، والخلاصة على الجميع كائن مَنْ كان .. ألا يتعرض لأي فرد منهم كائن من كان ومهما كانت الأسباب .. ولا يتم التبديل أو التغيير في أي مما ذكر .. وإذا ماقام أحد مابالتدخل، أو التعرض، أو التبديل أو التغيير فإنه يُعد عند الله من زمرة المجرمين، والعصاة .. وليعلموا أن أوامري، ونيشاني الحامل لطغرائي أنا فاتح العالم ستكون مصدقة ... وليعمل بفحوى ماجاء بها وليكن هذا علامة شريفة معتمدة ..

كتب في سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ..

وهكذا .. هاهو السلطان سليم الأول الذى وصل إلى بيت المقدس في القدس الشريف في اليوم الخامس والعشرين من صفر سنه ٩٢٣هـ = ١٥١٧م.

وما أن مَثل بين يديه البطريرك الأرمني ومرافقوه من القساوسة والرعيَّة حتى أمَّنهم، وأحسن إليهم. وأجزل العطاء لهم ... وجدد لهم العهد العمري ومعاهدة القائد الفز صلاح الدين الأيوبي.

لقد كفل لهم حرية العبادة، والزيارة، والصيانة، والترميم، ورعاية الأوقاف والمزارع الخاصة بهم. لقد منحهم حرية الإشراف على ماتحت أيديهم من كنائس وأديرة، ومعابد منذ القدم .. وقرر لهم حق التصرف والرعاية لما هو تحت أيديهم، وما آل إليهم منذ القدم .. لم يكن هذا وقفاً على ماهو داخل القدس فقط، بل امتد إلى غيرها من الأماكن المقدسة في بيت لحم، ومار يعقوب. وجبل الزيتون .. ودير الزيتون، وحبس المسيح ومايخصها

من أوقاف أوأبار، أو حدائق وبساتين، وأن يكون لكل المسيحيين، والأقباط، والأحباش، والسريان نفس الحقوق، ونفس الرعاية .. وكان أمره واضحاً، وقاطعاً لأولاده من بعده، ووزراءه، وولاته، والقضاة، والقادة بضرورة الإلتزام بما ورد فى هذا الأمر السلطانى.

هذا مايشهد به التاريخ للقادة المسلمين .. ولم يكن هذا وقفاً على القدس وحدها لقدسيتها، ومكانتها ..بل امتدت هذه الرعاية والعناية إلى غيرها من الأماكن .. فها هو نفس السلطان .. سليم الأول يصدر نفس الفرمان تقريباً لرهبان دير سانت كترين فى سيناء المصرية. فما أن استقر به المقام فى القاهرة حتى أصدر لهم فى أواخر شهر جمادى الآخر سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة = ١٥١٧م فرمان يعطيهم نفس الحقوق التى منحها للبطريركية الأرمنية، وللحبش، والأقباط والسريان فى القدس. ولما كان هذا الفرمان يخرج عن نطاق القدس، فقد اكتفيت بايراد نصه لمن يريد التأكد، أو الترجمة .. أو الاستفادة به من زاوية أخرى.

لم يثبت التاريخ، ولو لمرة واحدة أن حاصر قائد مسلم كنيسة، أو معبداً .. أو أطلق ناراً، أو منع ماءا، أو طعاماً عمن هم فى داخل الكنيسة أو المعبد ... لم تُطارد قوات الجيش أو الشرطة أو الأمن من يلجئ إلى بيت من بيوت الله .. فأين نحن مما هو دائر الآن فى بيت لحم .. !!

إن هذه الوثيقة، وغيرها ظل معمول بها طوال فترات التاريخ .. ومازال فرمان سليم الأول محفوظاً فى دير سانت كترين فى سيناء .. كان ذلك قبل الاحتلال الاسرائيلى البغيض لسيناء، ولست أدرى مصيره الآن. فالبون شاسع بين مافعلنا .. ومافعلوا هم فى البوسنة، والهرسك .. والشيشان وفلسطين والقدس ..

وما أن اعتلى السلطان سليمان القانونى (٩٢٧ - ٩٧٤هـ) = (١٥٢٠ - ١٥٦٦م) عرش السلطنة العثمانية حتى أبدى تفوقاً ملحوظاً فى ميادين البناء والتشييد بنفس القدر من المهارة فى ميادين سنّ القوانين ... فما هى

إلا خمس وخمسين سنة حتى كانت البلاد العربية كلها حتى تلمسان المغربية ضمن حدود الدولة العثمانية.

وقد أغدق من غنائمه على الحرمين الشريفين والقدس الشريف الشئ الكثير؛ فغطى الجدران الخارجية لجامع قبة الصخرة من جديد بالبلاطات الخزفية الفاخرة، بدلاً من الموازييق الذى كان يحتاج إلى الترميم من حين لآخر، وكانت هذه التغطية الخزفية الزرقاء، فى مقابل الخليط بين الأخضر، والأصفر مما أعطى الجامع رونقاً وبهاءا ظل لقرون عديدة. وكسى القسم الأسفل من الجدران بالرخام بدلاً من الموزاييق أيضاً. وأحاط المبنى من أعلى بحزام من الخزف الأزرق الغامق الذى يتخلله كتابات بالحروف البيضاء. وأمر بتركيب زجاج ملوّن على النوافذ التى استقرت داخل تجاويف من الجبس والجص الأبيض الناصع. كما أمر سليمان القانونى بترميم كل أسوار المدينة، وأعطاها الشكل الذى مازال هو السائد حتى العهد القريب. وبهذا فقد ترك قسماً من التبة الغربية خارج الأسوار. ولقد كانت كنيسة مرقد عيسى تخلو من الأجراس حتى سنة ١٥٤٥م = ٩٥٢هـ، فأمر سليمان بأن تُعلق بها الأجراس وفى سنة ١٥٥٥م = ٩٦٣هـ، كان هناك بناء صغير فوق الضريح، فى القسم الدائري من كنيسة القيامة، فأمر باقامة مبنى آخر منتظم، ويليق بالمقام بدلاً من القديم.

وكانت الكنيسة مقسمة فيما بين المذاهب المسيحية التى لم تكن على اتفاق أو وفاق فيما بينها. وكانت هذه التقسيمات تحوُل دون اجراء الترميمات والدعامات اللازمة التى تُمكن من إقامة برج للأجراس فوق قبة المبنى، ولم يتم ذلك إلا سنة ١٧١٩م = ١١٣٢هـ وبأمر من الحكومة تم الحفاظ على الرسوم والأشكال والطرز الموجودة على ماهى عليه أثناء أعمال بناء البرج والترميمات اللازمة. وخوفاً من التشويه تم صرف النظر عن التجديدات التى كانت ستجرى فى كنيسة القيامة. وفى سنة ١٨٠٨م = ١٢٢٣هـ اندلع حريق فى الكنيسة الأرمنية مما أدى إلى تخريب القسم

الغربي من الكنيسة بالكامل. وتمت الموافقة على أن يقوم الأرمن بأنفسهم بأعمال الترميم والتجديد اللازم. وقد أصدر السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ - ١٨٣٩م). فرماناً للأرمن بهذا الصدد. وطبقاً لكتابات موجودة، فقد تم تجديد التذهيب الموجود فى جامع قبة الصخرة. وأمر السلطان بترميم الجامع من الخارج. ولولا الخلافات المذهبية بين الطوائف المسيحية لتم تجديد كنيسة مرقد عيسى، ولتم إزالة المبانى العشوائية، ولجددت الزخارف التى على جدرانها منذ أمد بعيد. ولأمكن استخدام الأجزاء المتبقية، ولأعيدت الكنيسة إلى ماكانت عليه أثناء الحروب الصليبية.

لقد شهد القرن التاسع عشر أحداثاً وقلاقل أخرجت فلسطين عامة والقدس خاصة من الهدوء والسكون الذى كان يعمها؛ فإن نابليون بونابرت (١٧٦٩ - ١٨٢١م) الذى ظل محاصراً فى مصر، قام بالهجوم على فلسطين، وكما أنه حاصر عكا، فق زج ببعض من القوات الفرنسية لمهاجمة القدس. وتقاتلت القوات التركية والفرنسية أمام يزرائيل = yizre'el، أي أمام مرج بن عامر. واضطرت القوات الفرنسية إلى التراجع. ثم تعرضت فلسطين عامة، والقدس خاصة إلى استيلاء جيوش محمد على باشا عليها سنة ١٨٣١م. ودخلت هذه المدينة تحت الحكم المصرى حتى تم حلّ المسألة المصرية. وعقب جلوس السلطان عبدالمجيد (١٢٥٥ - ١٢٨٧) = (١٨٣٩ - ١٨٦١م) على العرش، مارست الدول العظمى آنذاك ضغوطاً، وفى النهاية انضمت فرنسا إلى هذه الدول، وتم عقد معاهدة سنة ١٢٥٦هـ = ١٨٤٠م أُجْبِرت مصر بموجبها على إخلاء فلسطين، ومارست انجلترا والنمسا ضغوطاً ملموسة لإعادة القدس تحت السيطرة العثمانية. واستمر الوضع على هذا المنوال حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. ولكن خلال المرحلة الأخيرة من هذه الحرب أي فى الثامن من كانون الأول سنة ١٣٣٣ = نهاية ١٩١٧م احتلت القدس من قبل الإنجليز. وهكذا انتقلت هذه المدينة المقدسة التى كانت مركزاً لمتصرفية مستقلة خلال العصر التركى العثمانى إلى الإدارة الإنجليزية .. وظلت هكذا حتى سنة ١٣٦٨هـ = ١٩٤٨م.

السلطان عبدالحميد الثانى والقدس:

لقد شاء قدر السلطان عبدالحميد الثانى (١٢٩٣ - ١٣٢٧هـ = ١٨٧٦ - ١٩٠٩م) أن يجلس على عرش الدولة العثمانية فى وقت التناقس والتصارع على اقتسام المستعمرات والنفوذ، وعنفوان تيارات الاستشراق واخضاعها للأطماع الاستعمارية، وتضافر جهود الماسونيه، والصهيونية العالمية، والسعى المضنى لإقامة وطن لليهود، والاستقرار فى أرض الميعاد؛

ففى اليوم الذى جلس فيه على العرش، تم توزيع منشور فى لندن من طرف زعيم المعارضة الانجليزية الليبرالى مستر جلادستون، وجاء فى هذا المنشور أن الأتراك أعداء للإنسانية .. ولابد من اخراجهم بقوة السلاح من العالم المتحضر .. لابد من طردهم خارج الحدود الأوربية. وقامت المسيرة التى قادها القساوسة بترديد ماجاء فى هذا المنشور. وعم الغضب كافة شوارع أوروبا بالرغم من دعوة رئيس الوزراء الانجليزى ديزرائيل بالاعتدال والتريس.

ولم تضيع روسيا الفرصة، بل أعدّت عدتها لشن هجوم على الباب العالى، وزيادة فى الإزلال قررت الدول الأوروبية عقد مؤتمر استانبول لمناقشة اوضاع ولايات البلقان واليونان داخل مدينة استانبول ذاتها .. وبدأت روسيا فى شحذ قواتها فى بلاد الصرب ... اندلعت أعمال العنف المارونية فى بيروت مما تسبب فى مقتل ستة آلاف منهم، وتخريب العديد من المدن والقرى .. كما اندلعت أعمال شغب متعمدة فى جميع الأحياء المسيحية فى الشام، ويُقتل القنصل الفرنسى فى جدة فى أيام الحج ... ويُقتل بعض الأوروبيين أمام المعسكرات العثمانية فى المدينة .. ردود فعل عنيفة فى كل مدن اوروبا ... !؟

ليس هذا فقط، بل قدّم نائب السفير الانجليزى فى استانبول مذكّرة إلى الباب العالى جاء فيها، «إن مجموعة من اليهود يودون السكنى فى برية الشام وقد قدّموا مشروعاً للدولة بهذا الخصوص .. وقد تم تشكيل هيئة من

قبل دولتنا لدراسة المشروع .. وهل هو قابل للتنفيذ من عدمه ... فماذا تم بهذا الصدد .. ؟».

واختتمت المذكرة قائلة: « .. وفى نهاية ذلك .. وبأي حال من الأحوال، فإنى أريد رداً قاطعاً بهذا الصدد فى ظرف أسبوع .. فإن ترك هذا الأمر معلقاً يسبب لى الكثير من الإزعاج .. وكلنا نعلم مايمكن أن يترتب على ذلك» هكذا كان الصلف فى التعامل، والتستر على المخططات الصهيونية والماسونية.

السلطان عبدالحميد الثانى كان عدواً للماسونية التى دخلت إلى الدولة العثمانية منذ أمد بعيد، وعُرِف عن العديد من السلاطين، ورجالات الدولة انضمامهم إلى المحافل الماسونية .. وشغلوا فيها العديد من المراتب والدرجات الماسونية.

أما علاقة نفس السلطان عبدالحميد الثانى باليهود والصهاينة؛ فلم يعد فيها شيئ مخفى أو مستتر .. فالعداء كان سافراً .. واللعب لم يعد فى الخفاء بل أصبح على المكشوف فيما بينهم ...

بعدما اتضحت شخصية السلطان عبدالحميد الثانى، وسياسته، فلم تترك الصهيونية العالمية وسيلة إلاَّ واستخدمتها لكى تزلزل كيان الدولة العثمانية، وتعجل بوفاة الرجل المريض ... إن عبد الحميد وقف أمام الأطماع الاستعمارية، واليهودية، والصهيونية طوال ثلاث وثلاثين سنة. ولذلك لابد من القضاء عليه ... وكانت قرارات أول مؤتمر صهيونى يُعقد على مستوى العالم فى مدينة بازل بسويسرا سنة ١٨٩٧م تروج لذلك، وتسعى إليه ..

ومايهمنا بهذا الصدد هو مايلى:

« .. فمن أجل إقامة وطن قومى فى فلسطين، وتشكيل حكومة صهيونية فالشرط الأول لذل هو القضاء على الإمبراطورية التركية، وهدمها ...».

ولما كان السلطان عبدالحميد الثانى هو العقبة الكئود أمام تنفيذ ذلك؛ فلابد من تجربة سائر الوسائل معه .. النقود .. ! عرضوا عليه ملايين الجنيهات الذهبية .. فرفضها .. وكان أول من حاول معه هذه المحاولات الدنيئة هو تيودور هرزل ورئيس أطباء القصر السلطانى موشى ليفى .. فلما عرضوا عليسه مطلبهم الخسيس، وعرضهم المغرى .. كان رده عليهم كمايلى:

﴿من أجل العدل بين سائر رعية سلطنتى .. فنعم .. ولكن من أجل إقامة دولة يهودية فى فلسطين التى أخضعها أجدادى بالدماء .. فلا .. أصلاً .. وقد أصدر السلطان عبدالحميد الثانى فى هذا الصدد؛ ثلاثة فرامانات سلطانية أرى ضرورة ايرادها هنا لزيادة الإيضاح .. وتبديد الشكوك حول هذا السلطان العظيم ..

كانت تأشيرة السلطان على مذكرة مقدمة إليه، وعلى حافة المذكرة على النحو التالى:

٢١ ذى القعدة ٣٠٨

﴿ .. مع إعادة المذكرة .. فإن قبول اليهود المطرودين من كل الأماكن فى ممالكى الشهانية .. واتخاذ اجراءات ومعاملات ستنتج فى المستقبل دولة يهودية فى القدس .. فإن هذا غير جائز ... وبدلاً من التفكير فى أراضى مماكلى الشاهانية الخالية .. فلما لايفكروا فى إرسالهم إلى أمريكا .. ومالم يقبلوا هذا هم وغيرهم فضعوهم فى السفن فوراً .. وليصدر قرار قاطع، وجدى من قبل مجلس الوكلاء بشأن تفرعات وتفصيلات إرسالهم إلى أمريكا .. ويعرض علي .. لأن الذين لم يقبلهم الأوربيون المتحضرون فى بلادهم ويطردونهم منها فلماذا علينا نحن أن نقبلهم .. وخاصة أنه طالما هناك فساد أرمنى .. فإن هذا غير جائز قطعياً ... وبناءً عليه ... ولكي لايكون هناك مجال للعرض المتفرق فى هذا الباب .. ولكى يتم اصدار قرار اجمالى فى هذا الخصوص .. يُعاد الأمر الى الصدارة ..﴾.

نستنتج من هذه التأشيرة بعد نظر السلطان عبدالحميد الثانى، وكيف كان متيقظاً لما يخطط فى الخفاء من قبل الدول الأوروبية .. ولماذا لم يرسلوا

باليهود الذين طردوهم من بلادهم هم إلى أمريكا الشاسعة .. !! وإذا مادققنا النظر فى الأحداث التى تجرى اليوم لأدركنا الأبعاد التاريخية لهذه المأساة الفلسطينية .. ومن ناحية أخرى لأدركنا لماذا تكاتفوا على خلع هذا السلطان.

وهناك حاشية، أو لنقل تأشيرة أخرى ترجمتها كمايلى:

﴿ *التاريخ ٢٨ ذى القعدة ٣٠٨*

إلى اللجنة العسكرية للمعية السنية ... إن قبول هؤلاء اليهود وسكناهم فى غاية الضرر ... ومن الممكن أن يترتب عليها مستقبلاً مشكلة حكومة يهودية .. ومن هذه الناحية يجب عدم قبولهم قطعياً ... وبناءا عليه لابد من المناقشة والدراسة وعرض الأمر ... ولابد من اعطاء معلومات من التذكرة الخصوصية = «الدائرة الخاصة» إلى الصدارة لكى يُعرض هذا الأمر اليوم وسريعاً ... ﴾.

يتضح من هذه التأشيرة أيضاً؛ مدى الجدية التى كان ينظر بها السلطان عبدالحميد الثانى لعملية تدفق اليهود نحو فلسطين عامة، والقدس خاصة وأنه حوَّل الموضوع إلى اللجنة العسكرية .. وأمر بضرورة التعاون بين كافة دوائر الدولة حول هذا الموضوع .. فهذه التأشيرة الثانية التى أعقبت الأولى، وصدرت بعد سبعة أيام من كتابة التأشيرة الأولى، وتطلب دراسة المشكلة واتخاذ قرار فيها فى ظرف يوم واحد لمن الأمور الملفتة للنظر جداً جداً .. ومن المحتمل أن هذا السلطان لم ينم طوال ليلته .. وأن الأمر يُقلقه .. ويؤرقه .. ففى التاسع والعشرين من نفس الشهر «ذى القعدة» سنة ٣٠٨. يكتب تذكرة - تأشيرة أخرى إلى لجنة المعية السنية جاء فيها مايلى:

﴿ *... إن دولاً متحضرة تقوم باخراج وطرد اليهود من بلدانهم، ولا تقبل عودتهم إلى بلدانهم ... وتشحذ همم الدول الأخرى المتحضرة لكي تعترض علينا ويستخدمون ضدنا لغة شديدة اللهجة .. إنهم يستخدمون عدم قبولنا لليهود فى بلادنا كذريعة لمهاجمتنا ... فكيف يكون لهم حق الاعتراض علينا ..؟ فإذا كان لهم حق الاعتراض .. فليكن اعتراضهم على الدول المشار إليها ... وبناءا عليه فليتم اسكان اليهود المشار*

إليهم فى أى مكان وأينما يكون هذا المكان ... فإنهم سيقومون تدريجيا بالهجوم والتهجم على أرض فلسطين .. وبعدها سوف يبقون هناك بتأييد ودعم من الدول الأوروبية وحمايتهم .. وملحوظ أنهم يحاولون تكوين حكومة موسوية ... إنهم لا يشتغلون فى الفلاحة والزراعة، بل سيقومون بنفس الذى كانوا يقومون به فى البلدان التى طردوا منها ... فلسوف يسعون إلى الإضرار بالأهالى .. وطالما أنهم يهاجرون إلى أمريكا .. فمن المناسب أن تستمر هجرتهم إلى هنالك .. ويمكن مناقشة هذا الموضوع بشكل أكثر تفرعاً مع لجنة المعيَّة السنيَّة ﴾.

إننا لابد أن نُعيد قراءة هذه المذكرات الثلاث من جديد .. ففيها مايبحث على الحيرة والدهشة ... فلو نظرنا إلى الطرف الثانى بعين فاحصة ووضعنا مايقومون به الآن تحت المجهر .. فلسوف ينعقد اللسان من الدهشة والحيرة .. هل كان يعلم أبناء الوطن ما كا يُدَبَّر للوطن ..؟ هل وضعنا فى الاعتبار كل الجهود، والتنبيهات، والتلميحات التى صدرت عن القسادة بهذا الصدد نحن نعيش عملية تعتيم .. بل تضليل من كافة الدول التى تدعى أنها متحضرة .. ولن نعيد ماسبق أن كرره كثيرون غيرنا .. كيف تكاتفت قوى الاستعمار، والماسونية والصهيونية واليهود على خلع السلطان عبد الحميد الثانى .. ويكفى أن نقرأ ماصدر عنه هو شخصياً، وذكره آميرال الخيَّالة حسام الدين أرتورك فى كتاه «ايكى دورك پرده أرقنده» أى خلف الستار فى عهدين، والصادر عن مطبعة نورگوك فى الصفحتين ٤٤ – ٤٥ حيث يقول:

«لقد قصَّ على يوزباشى الخيَّاله دَبْرَلى ذينُّون مايلى:

فى السنوات التى توليت فيها حراسة السلطان عبدالحميد ففى أحد الأيام اشتكى إلىَّ السلطان المخلوع قائلاً:

﴿ .. إن أهم ماأصابنى من حزن وكدر هو عملية التبليغ بالخلع التى خطط لها الماسون ونفذ قرارها اليهود .. فلقد كان من بين الهيئة التى حضرت إلى قصر يلديز ومَنْ لن أنساهم أبداً من بين المبعوثين هو أمانويل قراصُّو .. فلقد كان وجود هذا الشخص فيه احتقار لمقام الخلافة ...

فالحقد والنفور الذى يشعر به اليهود تجاه الإسلام منذ زمن حضرة الرسول «صلعم» وصدر الاسلام ومقام الخلافة معلوم ومعروف للجميع ..

فبينما كنت على عرش السلطنة العثمانية ... ذات يوم مَثل بين يدى تيودور هرتزل مؤسس التنظيمات اليهودية العالمية مع رئيس الحاخامية من أجل الدعوى الصهيونية .. ولقد تم استقبالهم فى قصر يلديز، واستمعت إلى مقصدهم .. ولما كانا كلاهما يهوديان؛ فقد طلبا وطناً لهم .. وكانو يشيرون إلى القدس لهذا الغرض ... حتى أن ذلك الهرتزل دون خجل عرض على ذاتى العليَّة أنه من أجل القدس فإنهم مستعدون لدفع أى ملايين من الذهب .. وأنهم رهن اشارتى لتقديمها فوراً .. ألا يمنعهم الخجل من ذلك ..؟ فار الدم فى عروقى ... تدبر فى الأمر أيها اليوزباشى .. فإن اثنين من اليهود تجاسرا على عرض رشوة على مقام الخلافة ... فصحت على الفور قائلا:

– إتركا هنا فوراً .. فالوطن لا يُباع بالنقود .. وأمرت رجال السراى الذين دخلوا عندئذ أن يأخذونهما فوراً .. وهكذا منذ ذلك الحين وقد أصبح اليهود ألدَّ أعدائى .. وما أُعانيه فى سلانيك هو من صنع اليهود ﴾.

وكان يوزباشى الخيَّالة ذينُّون يكرر على مسامعى هذه الحكاية خلال نضالنا فى سنوات النضال القومي.

لقد نقل الجنرال جواد رفعت آتيلخان ماأورده حسام الدين أرتورك، ولكنه أضاف إليه وثائق أخرى. وعلى حد قوله .. يقول إننا نكرر لآلاف المرات أن عداء اليهود وحقدهم على السلطان عبدالحميد الثانى ليس فى حاجة إلى تدليل .. وأن السبب الرئيسى لدعاياتهم، وحقدهم، وكيدهم له يكمن فى الموقف الصلب الذى اتخذه بشجاعة منقطعة النظير ضد رغبتهم فى انشاء وطن لهم فى فلسطين منذ المؤتمر الأول للصهيونية العالمية. ومنذ ذلك المؤتمر، وعقب الموقف المبدئى من السلطان عبدالحميد الثانى؛ ومدافع

اليهود وسمومهم موجهة ليس ضد السلطان عبدالحميد الثانى وحده، بل ضد الترك بصفة عامة. ولن أطيل فى هذا الصدد فلسوف يكون موضوعاً مستقلاً عن السلطان عبدالحميد والأطماع اليهودية والصهيونية ..

وما أود أن أختم به .. هو أن اليهود والصهاينة والإمبريالية العالمية قد نجحوا فى خلق فجوة بين العرب والترك؛ ويمكن القول أن سوء الفهم قد ساد فى بعض الفترات العصيبة .. وكان هناك من القوى المشار إليها مَنْ يسعى لتوسيع الفجوة وتعميق الهوة بين الأمتين.

ولكن ليعلم معسكر الشر الغربي أن معنوياتنا قوية، وآمالنا وإيماننا أقوى من معنوياتنا ... ولسوف يتحقق الأمل، وينال الشعب الفلسطينى المغدورَ حقه رغم حقد الحاقد .. وقسوة المتحضر الكاذب .. ومَنْ يدرى .. فلعل تكون فلسطين هى مدفن الحلم المزعوم. والأرض المغتصبة تكون مقبرة الغاصب .. وماالنصر إلاَّ من عند الله .. ولكن لابد وأن نعرف عدونا .. ونستعد له بما يناسبه .. ونعرف من أي نوع من الميكروبات هو .. ونُحصِّن البنية الإجتماعية ضد هذه الجراسيم التى ابتدعها .. ليس المطلوب أن تعْرِفه فقط ... بل لابد أن نُعَرف به أيضاً.

فالحقد والنفور الذى يشعر به اليهود تجاه الإسلام منذ زمن حضرة الرسول «صلعم» وصدر الاسلام ومقام الخلافة معلوم ومعروف للجميع ..

فبينما كنت على عرش السلطنة العثمانية ... ذات يوم مَثل بين يدى تيودور هرتزل مؤسس التنظيمات اليهودية العالمية مع رئيس الحاخامية من أجل الدعوى الصهيونية .. ولقد تم استقبالهم فى قصر يلديز، واستمعت إلى مقصدهم .. ولما كانا كلاهما يهوديان؛ فقد طلبا وطناً لهم .. وكانو يشيرون إلى القدس لهذا الغرض ... حتى أن ذلك الهرتزل دون خجل عرض على ذاتى العليَّة أنه من أجل القدس فإنهم مستعدون لدفع أى ملايين من الذهب .. وأنهم رهن اشارتى لتقديمها فوراً .. ألا يمنعهم الخجل من ذلك ..؟ فار الدم فى عروقى ... تدبر فى الأمر أيها اليوزباشى .. فإن اثنين من اليهود تجاسرا على عرض رشوة على مقام الخلافة ... فصحت على الفور قائلا:

– إتركا هنا فوراً .. فالوطن لا يُباع بالنقود .. وأمرت رجال السراى الذين دخلوا عندئذ أن يأخذونهما فوراً .. وهكذا منذ ذلك الحين وقد أصبح اليهود ألدَّ أعدائى .. وما أُعانيه فى سلانيك هو من صنع اليهود ﴾.

وكان يوزباشى الخيَّالة ذينُّون يكرر على مسامعى هذه الحكاية خلال نضالنا فى سنوات النضال القومي.

لقد نقل الجنرال جواد رفعت آتيلخان ماأورده حسام الدين أرتورك، ولكنه أضاف إليه وثائق آخرى. وعلى حد قوله .. يقول إننا نكرر لآلاف المرات أن عداء اليهود وحقدهم على السلطان عبدالحميد الثانى ليس فى حاجة إلى تدليل .. وأن السبب الرئيسى لدعاياتهم، وحقدهم، وكيدهم له بكمن فى الموقف الصلب الذى اتخذه بشجاعة منقطعة النظير ضد رغبتهم فى انشاء وطن لهم فى فلسطين منذ المؤتمر الأول للصهيونية العالمية. ومنذ ذلك المؤتمر، وعقب الموقف المبدئى من السلطان عبدالحميد الثانى؛ ومدافع

اليهود وسمومهم موجهة ليس ضد السلطان عبدالحميد الثانى وحده، بل ضد الترك بصفة عامة. ولن أطيل فى هذا الصدد فلسوف يكون موضوعاً مستقلاً عن السلطان عبدالحميد والأطماع اليهودية والصهيونية ..

وما أود أن أختم به .. هو أن اليهود والصهاينة والإمبريالية العالمية قد نجحوا فى خلق فجوة بين العرب والترك؛ ويمكن القول أن سوء الفهم قد ساد فى بعض الفترات العصيبة .. وكان هناك من القوى المشار إليها مَنْ يسعى لتوسيع الفجوة وتعميق الهوة بين الأمتين.

ولكن ليعلم معسكر الشر الغربي أن معنوياتنا قوية، وآمالنا وإيماننا أقوى من معنوياتنا ... ولسوف يتحقق الأمل، وينال الشعب الفلسطينى المغدور حقه رغم حقد الحاقد .. وقسوة المتحضر الكاذب .. ومَنْ يدرى .. فلعل تكون فلسطين هى مدفن الحلم المزعوم. والأرض المغتصبة تكون مقبرة الغاصب .. وماالنصر إلاَّ من عند الله .. ولكن لابد وأن نعرف عدونا .. ونستعد له بما يناسبه .. ونعرف من أي نوع من الميكروبات هو .. ونُحصَّن البنية الإجتماعية ضد هذه الجراسيم التى ابتدعها .. ليس المطلوب أن تعْرِفه فقط ... بل لابد أن نُعَرف به أيضاً.

الهوامش...والمراجع

السلطان سليم الأول: [٨٧٥ - ٩٢٧هـ = ١٤٧٠ - ١٥٢٠م].

هو أول خليفة عثماني .. والده هو السلطان بايزيد الثاني .. تولى العرش في الرابع والعشرين من أبريل سنه ١٥١٢م. تابع فتوحات الدولة العثمانية. قرر التوجه إلى ضم مصر والشام إلى الدولة العثمانية فى أغسطس سنه ١٥١٦م. ودخل الشام فى ٢٧ سبتمبر سنه ١٥١٦م. و٣٠ نوفمبر سنه ١٥١٦م دخل القدس، ودخل غزه ٢ يناير سنه ١٥١٧م. وما أن وصلنا إلى نهاية شهر مارس سنه ١٥١٧م = ٩٢٣هـ حتى استقرت له الأمور فى مصر. كانت له أحلام كبيرة فى خلق اتحاد اسلامى يستطيع به أن يجابه الاتحاد الصليبى توفى ٢١/٢٢/٩ - ١٥٢٠م. انظر:

- Yavuz Bahadir; Osmanlı padışahları Ansiklopedisi, yeni Asya yayinlari Istanbul 1986. S. 188 - 223.

١) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ جـ٢ ص ٤٩٩ - ٥٠٢.

2/1 - Serkiz Karakoç, Kulliyati Kavanın, Dosya No: (T.T.K. Kutuphanesi), 2599. +

2/2 - Belgeler Gerçekleri Konuşuyor (1). Doc. Dr: Ahmet Akgündüz, Izmir 1990. S, 25 - 31.

٣) المرجع السابق.

٤) وهاهو نص الفرمان باللغة التركية العثمانية.

٢٥٩٩

﴿.. نص الفرمان الذى أصدره السلطان سليم الأول سنة ٩٢٣هـ إلى بطريرك الطائفة الأرمنية في القدس للعمل بموجبه﴾.

4) Doç. Dr. Ahmet Akgunduz, Belgeler Gerçekleri Konuşuyor, s 26 - 31.

٥ - فرمان للسلطان سليم الأول بشأن دير سنت كاترين
(طغراء باسم السلطان سليم)

نشان شريف عاليشان سلطانى وطغرائى غراي كيتى ستان خاقانى. نفذ بالعون الربانى حكمى او لدركه:

جبل طور سيناده ساكن ومتمكن اولان داراندكان فرمان قدر توان رهبان وقسيس طائفه سنك كه يرلرينه بر جانبدن صادر ووارد كلدكچه ضيافت واكرام ايمش ديرلرينه قطعاً طائفة أعراب گيرميه ويوللرينه طورميه واصلا دخل وتعرض قلمية وبلاد طوريه وشاميه ومصريه ده واقع اولان حقوق ورسوملرنده واحكار واعشارلرنده وبوستانلرنده وباغلرنده ويمشلرنده وخرمالقرنده وزيتونلقرنده وحقوقلرينه مسامحه، اولنه، وجزيرة اقريطشده وجزيرة قبريسده اولان اوقافلرينه وباغلرينه ومزرعه لرينه داخى كمسنه بى وجه تعرض ايلميه، وقورو جانبندن ودرياى مالح جانبدن ودرياى عازب جانبندن كتدوكلره اسكندريه ورشيد ودمياط وبولاق وقطيه وغزه ويافا وبيروت وصيدا وطرابلس ولاذقية وساير ناحيه مصريه وشاميه ده اولان ثغور اسلاميه دن وصول بولان صابوندن وزيت جبايدن ونذوردن وصدقاتدن آلناجق حقوق ديوانيه لرنده داخى مسامحه الونه لر، وموتالرينك داخى دفننه خارجدن كمسنه متعارض اولميه وميراثلرينه دخل اولنميه، وهر كيمنك اوزرنده حقلرى ثابت وظاهر اوررايسه بى قصور آليويرله، بى وجه دخل ايتمك استيانلرى داخى حاكم الوقت اولانلرى منع ودفع ايده لر، ديو - اللرنده اولان عهده شريفه نبويه عليه افضل التحيه ايله خلفاء راشدين وامرا وسلاطيندن داخى احكام وسجلات ومراسيم ومرعياتلرين حاليا دركاره كردون اقتدار وبارگاه عالم مدارمه گتوزوب مقرر اوله لرى بابده همت وعنايت رجاايلدوكلرى سببدن بن دخى عهده شريفه نبويه يه تعظيماً واحتراماً اول احكام ومرعياتى مقرر ومسلم دوتوب اللرنه اشبو حكم شريف جهانمطاع واجب الاتباعمى ويردم كه طائفه مزبوره بر قرار سابق امان واطمينان اوزره جبل مسفور ده منوى اولوب وجه مشروح ايله رعايت وحمايت اولنه لر.

اول بابده هيچ احد كائنا من كان بونلره بى وجه دخل وتعرض ايلميه وتعب وزحمت ويروب اوشتدرميه، والا عتاب اليم وعقاب عظيمه مستحق الور، تاكه ذكرالونان عهده شريفه احكام منيف موجبنجه رفاهيت وفراغ باليله أسوده حال اولوپ بنم دوام دعاى دولت ايدى بيوندمه اشتغال كوستره لر، شويله بيله لر، علامت شريف عالم آرايه اعتماد واعتقاد قيله لر.

تحريرا في اواخر شهر أخر الجمادى سنه ثلث وعشرين وتسعمايه، بمدينه دار الخلافه (مصر).

* نص الفرمان الذى أصدره السلطان سليم الأول فى أواخر شهر جمادى الآخر سنه ٩٢٣هـ لرهبان وقساوسة دير سانت كترين فى سيناء للعمل بموجبه .. ويمنحهم الحرية الكاملة فى ممارسة الشعائر الدينية وبعدم التدخل فى شئوونهم مهما كانت الأحوال .. انظر:

- Prof Dr. Es - SAFSAFY Ahmed El - Katory, Osmanlica - Türkce Dilbilgisi, Birinci cilt, Kahire 1999, - 1419 . S 523 - 524.

* السلطان سليمان القانونى: [٩٠١ - ٩٧٤هـ = ١٤٩٥ - ١٥٦٦م].

هو السلطان العاشر فى الدولة العثمانية. يُلقبه الأوروبيون بالعظيم، وفى العالم الاسلامى بالقانونى لكثرة ماسنَّه من قوانين لتنظيم أمور الدولة والرعيّة. والده هو سليم الأول. تولى العرش فى الثلاثين من سبتمبر سنه ١٥٢٠م. وصلت الدولة العثمانية فى عصره أقصى اتساعها. دخلت البلدان العربية كلها إلى حوزة الدولة العثمانية فى عهده ... اهتم اهتماماً كبيراً بتأمين العالم الاسلامى. والأماكن المقدسة، وأوقف عليها خيرات كثيرة. كانت وفاته؛ ٨/٧ سبتمبر = ايلول سنه ١٥٦٦م : انظر:

- Yavuz Bahadiroğlu, O. padişahlari Ansik. C. 2. Ist. 1986 - S. 222 - 271.

* السلطان محمود الثانى: [١٢٠٠ - ١٢٥٥ - هـ = ١٧٨٥-١٨٣٩م].

هو السلطان العثمانى الثلاثون فى الدولة. وهو الذى قضى على الإنكشارية فى الدولة العثمانية، والولايات العربية. والده هو السلطان عبدالحميد. تولى السلطة فى ٢٨ تموز = يوليو سنه ١٨٠٨م. نجح فى استرداد مكة والمدينة من أيدى السعوديين. قضى على الانكشارية فى مذبحة شبيهة بمذبحة القلعة للمماليك، وكانت هذه المذبحة فى ١٥ حزيران ١٨٢٦م. توفى بمرض السل سنة ١٨٣٩م. انظر:

- Yavuz Bahadiroğlu, O. padışahları Anik. C. 3. S. 600 - 623.

6 - Joan Haslip. Bilinmeyen TaraFları ile Abdulhamit, Tercume Eden: Nusret Kuruoglu, Istan: 1964. S . 45 - 101.

7 - Sultan II Abdulhamid Han, Devlet ve Memleket görüşlerim, Hazirlayan, A. Ala addin çetin, Ra - mazan yıldız. Ciğir yayinları, Istanbul, Subat 1976, S. 43.

8 - Ilhami Soysal. Türkiye ve Dünyada masonluk ve masonlar, Der yayınları, Istanbul 1978, S 170 - 186.

9 - Cevat Rifat Atılhan. Islam ve Beni Israil. II baskı. Yelken matbaasi, 1973. 211 - 237.

يهود الدولة العثمانية
والجمهورية التركية

«يهود الإمبراطورية العثمانية والجمهورية التركية»

عرض كتاب

The Jews of The Ottoman Empire

and

The Turkish Republic

المؤلف: Stanford J. Shaw

أ.د/ ستانفورد ج. شاو

أستاذ تاريخ تركيا والشرق الأدنى

جامعة كاليفورنيا، لوس أنجلوس

الطبعة الأولى: ١٩٩١م (*).

يقع الكتاب فى ثلاثمائة وخمس وأربعين صفحة من القطع الكبير، مزود بالصور، والجداول الإحصائية .. عدا المقدمة، وقائمة المختصرات، فهو مكون من خمسة مباحث؛ تكمل بعضها بعضاً ..

يبين المؤلف أن هذه الدراسة قد إستغرقت من وقته ٣٥ عاماً قضاها في البحث، والتقصى فى التاريخ العثمانى؛ متنقلاً بين المكتبات، ودور المحفوظات فى كل من بريطانيا، وتركيا، والولايات المتحدة الأمريكية، وفرنسا .. ولم تكن هذه الدراسة لتتم لولا مساعدات، وتوصيات العديد من الشخصيات المهمة على مستوى العالم .. ويخص بالشكر الحاخام حائيم ناحوم أفندى أخر حاخام أعظم للدولة العثمانية (من ١٩٠٩ - ١٩٢٠م) الذى إلتقى به عدة مرات فى القاهرة خلال المدة الممتدة من يناير إلى مارس ١٩٥٦م، حيث أصبح حاخاماً بها منذ ١٩٢٥م إلي ١٩٦٠م، ثم يعدد الحاخامات الذين إلتقى بهم، وأمدوه بيد العون والمساعدة .. كما يقدم الشكر إلى مديرى الأرشيفات العثمانية على مستوى العالم..

(*) نُشر هذا العرض في مجلة شئون الشرق الأوسط العدد الثاني ابريل سنة ٢٠٠٢م. والتي تصدر عن مركز دراسات الشرق الأوسط والدراسات المستقبلية بجامعة عين شمس - القاهرة.

ثم أعقب المقدمة بقائمة تضم أسماء الحاخامات اليهود، والذين أورد صورهم واللوحات التي تبين ملبوسات اليهود، وأزيائهم في استانبول، وبورصة، وحلب وسلانيك، والقدس، وصور المعبد اليهودى فى عاصمة الدولة العثمانية.

المبحث الأول: «Ingathering Of the Jews» أى تجمعات اليهود.. وهو يتناول تجمعات اليهود فى المنطقة التى تسمى الآن «جنوب أوروبا» وتركيا والشرق منذ سنة ١٣٠٠م حين إنبثقت الدولة العثمانية تحت قيادة عثمان الأول، وحتي إنهيار إمبراطوريتها مع نهاية الحرب العالمية الأولى، ثم يستمر مع قصة اليهود مع إمتداد الدولة العثمانية، والتى هى تركيا فى العصر الحديث، أى الجمهورية التركية .....

يثير الكاتب إشكاليات دراسة اليهودية، واليهود فى الدولة العثمانية وتركيا المعاصرة – وخاصة باللغتين العثمانية والتركية – وجهود المستشرقين والمستعربين، بل والمستغربين فى هذا الصدد .. ثم يثير التساؤلات حول المناطق التي كان يعيش فيها اليهود، والظروف والملابسات التى وفدوا فيها إلى بلدان الإمبراطورية العثمانية، وولاياتها المتعددة.

يتعرض المؤلف لأوضاع اليهود فى كل بلدان أوروبا عبر التاريخ، وموقف التكتلات المسيحية منهم، وموقفهم هم من التجمعات التي كانوا يعيشون بين ظهرانيها .. ومدى التضييق، والتعصب الذى كانوا يعيشون فيه.. والمجازر التى تعرضوا لها فى غرب أوروبا ومحاكم التفتيش التي تعرضوا لها في الأندلس علي أيدى المسيحية المتعصبة .. وكيف أنهم طردوا من أسبانيا سنة ١٣٩١م، كما أبعدوا من قبل من المجر سنة ١٣٧٥م، بالرغم من أنهم في هذه البلدان، كانوا يعيشون فى ظروف أحسن قليلاً من غيرها من البلدان الأوروبية المسيحية.

ثم ينتقل الباحث إعتباراً من الصفحة التاسعة إلي الحديث عن يهود العالم الإسلامى، وعن أوضاعهم فى أسبانيا عندما كانوا تحت الحكم

الإسلامى، وما كانوا يتمتعون به من مزايا فى العالم الإسلامي، علي إعتبار أنهم من أهل الذمة وكيف أنهم كانوا يعيشون فى حسن جوار حتي مع العرب قبل الإسلام. وبعده؛ تمتعوا بالنظرة التسامحية للإسلام تجاه الأديان السماوية الأخرى. وإستمروا فى التمتع بحرياتهم الدينية خلال العصر الأموى فى دمشق والأندلس، أو فى العصر العباسى فى بغداد، وبكافة حرياتهم الأخرى فى مقابل دفع الخراج والجزية...

يعود المؤلف إلي وضع المسلمين فى الأندلس. وما أحيق بغير المسيحيين من الهزائم، والسقوط الذى لحق بالويلات العربية فى تلك الديار خلال فترات الإنهيار. ويتعرض هنا أيضاً إلى المآسى التى لحقت باليهود، والمسلمين على حد سواء على أيدى الصليبية المتعصبة .. وكذا محاكم التفتيش التى تشكلت فى أسبانيا .. ويذكر كيف أن ١٥٠ ألف يهودى قد أجبروا على الهجرة من أسبانيا فى غضون أربعة أشهر فقط؛ من أواخر إبريل إلى الثانى من أغسطس ١٤٩٢م.

ولكن كانت المشكلة إلى أين يتجهون ...؟

يترك الأستاذ الدكتور/ ستانفورد شاو يهود أسبانيا فى الشتات بين دول أوروبا، وشرق أوروبا بالذات .. ويتجه إلى تجمعات يهودية أخرى؛ وهم يهود روما وبيزنطة ..

تبين للباحث أن الكثيرين من يهود الشرق الأوسط الذين كانوا يعيشون فى ظلال التسامح الإسلامى، قد إضطروا - أمام إنهيار الخلافة العباسية على أيدى المغول - إلى الإنتقال إلى الأراضى البيزنطية .. ويعود إلى ما هو أبعد من ذلك.. ويبين كيف كان وصول اليهود إلى بيزنطة القديمة..؟ وكيف وفدوا من الفردوس المفقود إلي السواحل البيزنطية فى الاناضول، وبحر إيجه، كما إتجهوا إلى طرابزون على ساحل البحر الأسود، وكيف توجهوا إلى بورصة، وقونية وإلى وسط وجنوب شرق الاناضول، وبعد تحطيم معبدهم الثانى سنة ٧٠ بعد الميلاد، وحتى قبل وجود بيزنطة ذاتها..

إنتقل المؤلف بعد ذلك إلى نظرة الحضارة الهلنستية إلى اليهود، وإعتبارهم من الشعوب التي لا يحبهم الله.. وبدأوا يعاملونهم كمواطنين من الدرجة الثانية، ويواصل معهم المسيرة حتى قيام الإمبراطورية البيزنطية الشرقية، وجعل القسطنطينية عاصمة لها .. إلى أن فتحها السلطان العثمانى محمد الثانى سنة ١٤٥٣م وحولها إلى إستانبول .. وكما هو وضع اليهود دائماً، فقد عاشوا أيضاً فى تجمعاتهم الخاصة بهم. ولم يختلطوا بطوائف المجتمع الاخرى.. وكان أهم ما إشتغلوا به هو القانون والطب فى روما، وخاصة فى الأيام الأولى لبيزنطة الشرقية، ولكن فيما بعد شاركوا إلي حد ما فى بعض الأنشطة الأخرى.

إستقر يهود بيزنطة فى القسطنطينية، وأدرنه، وسالونيك، وعندما إحتل اللاتين مدنية القسطنطينية ١٢٠٤م قاموا بتخريب المعبد اليهودي الذي كان موجوداً فى حى باغجة قابى «Bahce Kapi» ثم أتت النيران التى إندلعت خلال الحريق الشامل على البقية الباقية منه، بل وطالت النيران كنيسة القديسة أيا صوفيا .. ويظل المؤلف بطريقته الموثقة فى تتبع يهود بيزنطة حتى إنتقالهم إلى سيطرة، ونفوذ الإمبراطورية العثمانية الناهضة.

يوجز الكاتب حديثه عن كيفية ظهور العثمانيين فى شمال شرق الاناضول. ثم زحفهم على حساب ممتلكات الإمبراطورية السلجوقية من ناحية، واراضى الإمبراطورية البيزنطية الشرقية من ناحية أخرى مع بدايات القرن الرابع عشر (١٣٠٠م).

وما أن وصلت هذه الدولة إلى سنة ١٥٦٦ حتى كانت كل أواسط أسيا، وشمال افريقيا، وبين النهرين، وشبه جزيرة البلقان تحت سيطرتها ولامست حدودها أسوار فينا بعد إمتلاك المجر.. وانتقلت عاصمتها من بورصة إلى أدرنه، ثم إستقرت بعد ذلك فى إستانبول.

تمتع اليهود – على حد قول المؤلف – تحت سيطرة الدولة العثمانية بحريات دينية، وتجارية، ومهنية، وإجتماعية جعلتهم يتنقلون – فى معظم

الأحيان – فى حرية كاملة بين المدن العثمانية، ويمارسون فيها الأنشطة المختلفة. ومنحتهم هذه الحرية الفرصة لكى يكونوا تجمعات ديموغرافية ملموسة.

يستعرض الكاتب جهود السلاطين العثمانيين فى تشجيع التوطن فى المدن البيزنطية بعد فتحها .. ويتحدث عن التغير السكانى الذى طرأ على مدينة إستانبول بعد أن فتحها محمد الفاتح .. والدور الذي قام به اليهود، والأرمن واليونانيين، والذين أمَّنهم الفاتح، وأمَّهم في تعمير المدنية، وخلق أحياء سكنية جديدة ذات طابع عثمانى إسلامى .. وإذا كان بعض الأرمن واليونانيين لم يثقوا فى الوعود التركية .. وفضلوا الهجرة فإن اليهود الذين كانوا في القسطنطينية رحبوا بالترك، وسارعوا في التعامل معهم.

يورد المؤلف فى هذا الجزء مقتطفات من كتابات المورخين اليهود مبرزاً فيها الدور الذى لعبه اليهود فى الدولة العثمانية منذ عهدها المبكر...

المبحث الثاني: العصر الذهبى لليهود العثمانيين ص ٣٧ – ١٠٨، يعتبر هذا المبحث من أهم مباحث الكتاب؛ حيث إستعرض فيه المؤلف أهم ما تحصل لديه من معلومات عن اليهود، وتشكيلاتهم في المجتمع العثمانى، بدأ الحديث بالتحدث عن التوزيع السكانى لليهود فى الدولة العثمانية، وعن المناطق التى وفدوا منها .. والأعداد التى هاجرت إليها من أسبانيا، وغيرها من المناطق التي سبق الحديث عنها .. وإستعان المولف بالإحصاء المبكر الذي قام به الرحالة التركى الشهيير أوليا جلبى لسكان مدنيّة إستانبول، وأنه ذكر أن عدد اليهود فيها سنة ١٦٣٨م كان إحدي عشرة ألف أسرة أي فقط سبع وسبعين ألف نسمة، وأنهم كانوا يسكنون فى حى خاصكوى، Haskoy وأنهم كانوا أقل من الجريك، واليونانيين، والأرمن، أى أنهم كانوا أقل من أى طائفة من الطوائف المسيحية.

يستعرض المؤلف الأحياء الأخرى التى كان يسكنها اليهود، وعدد بيوتهم، والأعمال التى كانوا يزاولونها .. وكيف كانوا يعيشون فى تجمعات وفقاً للبلدان التى وفدوا منها.

ينتقل المؤلف إلى عنصر آخر: ألا وهو التنظيمات اليهودية المشتركة. وقارن هنا بينهم وبين سواهم من أهل الذمة.. وكيف أن السلاطين العثمانيين قد حرصوا على هذا التنظيم الذي ورثوه عن الإمبراطورية البيزنطية، بعد فتح محمد الثانى للعاصمة، وكما هو متبع تقليدياً فى الإمبراطوريات الإسلامية الآخرى.

وعلى طريقة المؤلف المعهودة، فإنه يثير التساؤلات، ويحاول الرد عليها، ويثير هنا تساؤلاً: هل كانت الأحياء، أو التكتلات اليهودية العثمانية تدار من طرف الحاخام الأكبر..؟ ثم يسترسل فى الإجابة على هذا التساؤل وغيره، متنقلاً من تساؤل إلى آخر، ثم ينتقل إلى الحديث عن عدم مركزية السلطة اليهودية .. بل إن اليهود خلال الخمسة قرون التى عاشوها تحت حكم الدولة العثمانية؛ قد عاشوها خاضعين للثقافات التى وفدوا منها.. فقد كان هناك اليهود الذين ظلوا تحت الإدارة الرومانية، والبيزنطية.. واليهود الذين يتحدثون اليونانية ظلوا يستخدمونها كلغة دراسة. وكان هؤلاء يعتبرون أنفسهم هم الطبقة الإرستقراطية لليهود.. وينظرون نظرة متدنية لهؤلاء الذين يفدون من أوروبا ويستطرد فى الحديث عن عدم وجود ثقافة واحدة، أو موحدة لليهود.. وعن العلاقات بين هذه التجمعات غير المتجانسة؛ ثم يصل إلى عملية تنظيم المجتمع اليهودى، ومحاولاتهم للعيش فى جماعة، أو تنظيم جماعى بدلاً من أنهم عبارة عن طوائف، أو جماعات، أو ملل، لكل منهم معبده، ومستشفياته، ومدارسه، وحاخامه الخاص، وكان مثلهم فى ذلك مثل الطوائف المسيحية. وبين الكاتب - كيف أنهم إستفادوا من تسامح السلاطين العثمانيين، وكانوا يستصدرونهم الـ (إرادة السنية) التى كانت تسمح لهم بإعادة بناء، أو ترميم أو صيانة المعابد القائمة بالفعل، دون السماح ببناء معابد جديدة .. ويستعرض المؤلف المعابد اليهودية فى مدنية إستانبول، وغيرها، ذاكراً أماكنها، والشوارع والأذقة التى كانت موجودة بها .. بل يذكر أنه كانت هناك بعض المعابد المتجاورة، والتى يختص كل واحد

منها بطائفة بعينها.. وأن لكل منها بوابته الخاصة، وجدرانه الخاصة به، رغم إلتصاقها ببعضها البعض...

لم يكن المؤلف يتطرق إلى الحديث عن يهود إستانبول فقط، بل كان يتطرق إلى الحديث عنهم فى سالونيك، وسراييفو، وأدرنه وغيرها من الولايات الأوربية، وكذا فى المقاطعات الأسيوية مثل بورصة، وإزمير، وغيرها من الولايات العربية كطرابلس الغرب، وفلسطين، وحلب، والموصل، وبغداد. كما كان يتحدث عن المهن التى كانت تنتشر بين كل طائفة من هذه الطوائف.

بين الكاتب أن فلسطين كانت مقسمة إلى أربعة سناجق؛ وبين كيف أن اليهود كانوا بها قلة متناهية، وكيف كانوا يتسمون؛ فالإشكنازيين؛ وهم الوافدون من وسط أوروبا؛ والسفاردين؛ يطلق هذا الإسم على اليهود القادمون من شبه جزيرة أيبريا .. والمغاربة على الوافدين من شمال أفريقيا.. واليهود المستعربة؛ على اليهود الذين قدموا من البلدان العربية الأخرى. وكانوا يعملون بها بالزراعة، والتجارة وبعض الحرف الصناعية خلال عهد السلطان سليمان القانونى (١٥٢٠ — ١٥٦٦م). ثم ينتقل إلي الحديث عن يهود سوريا ومصر التى كانت تعتبر مرتعاً لتجمعات اليهود، وكما هو شأنهم، فكما لعبوا اللعبة مع المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧م) فلم يمض وقت طويل حتى تعاملوا بنفس اللعبة مع العثمانيين عقب إنتقال السلطة إليهم فى مصر ١٥١٧م. على يد سليم الأول .. ويتابع المؤلف حديث عن يهود مصر فى القاهرة والإسكندرية، ودمياط التى كانت أكثر أهمية فى العصر العثمانى .. وقد عملوا فى مصر بالتجارة والترجمة للدبلوماسيين المقيمين في مصر، أو للتجار والرحالة الذين كانوا يأتون إليها..

يستمر المؤلف على هذا المنوال حتى يصل إلى عملية توحيد التجمعات اليهودية العثمانية، ويستعرض الجهود التى بذلت حتى وصلوا إلى عملية التوحيد هذه تحت راية السلطة العثمانية.

لم يهمل الكاتب الحديث عن الإسكان، وعن منازل اليهود، ومعمارها، وتكوينها، وعن مستوياتها فى كل الولايات، والمقاطعات التى كانوا يسكنونها، وتابعة للدولة العثمانية.

كما يتحدث المؤلف فى كتابه هذا عن الدرجات الكهنوتية للحاخامات، وكذا التقسيمات الحرفية لدى اليهود... مستعيناً فى ذلك بكتابات الحاخامات أنفسهم.

كما تناول الحقوق، والواجبات، والسلطات التى كانت مخولة لكل معبد، أو حاخام.. وكيفية إختياره، أو إنتخابه .. وتحديد مستوى السلطة الممنوحة لكل منهم، وفق القانون الخاص بهم..

ثم ينتقل إلى المعابد «Synagogue»، تجمعاتها.. ومبانيها، وتنظيمها وأقسامها، ومسمياتها، والتقاليد المرعية فى تسمية كل معبد من المعابد المقامة وأن بعضها كان يسمى طبقاً للحى السكنى، أو للمنشئ .. أو وفقاً لشكل أو طريقة وصولهم إلى أراضى الدولة العثمانية، أو باسم العائلة التى أقامته. يتطرق البحث عن التكافل الإجتماعى بين اليهود، بعضهم البعض.. كمساعدة الفقراء منهم، ورعايتهم، ومساعدتهم فى الحصول على عمل، وعتق الأرقاء منهم، وعن التعليم فيما بينهم، ونقل الخبرة المهنية وسريتها بين اليهود، ودفع الضرائب أو الجزية عن غير القادرين، ومقدار الضرائب، والتمويل اللازم للجزية، والخراج المفروض على اليهود فى الدولة العثمانية.

ينتقل المؤلف إلى عنوان رئيسى عن اليهود فى المجتمع العثمانى (ص٧٧).. وبعد أن يقدم لهذا الموضوع بنظرة المسلمين لغيرهم من أهل الكتاب، أو الذميين يبدأ فى تخصيص الحديث عن اليهود وسط المجتمع العثمانى .. وكيف أنهم كانوا يتوائمون ظاهرياً مع الوضع، ويتسمون بأسماء محلية يلتبس على سامعها ديانة صاحبها .. وكيف كانوا ينتقلون إلى الإسلام، ويتخذون اسماء مسلمة مثل عبدالله، ومحمد أحمد بن عبدالله،

بل ينتقل للحديث عن ملبوساتهم وأطعمتهم، وكيف أنهم كانوا يتوارون فى الملبوسات العثمانية.. ويتعودون فى الظاهر على نفس العادات، والتقاليد العثمانية. ولكن فى نفس الوقت لم يفرطوا في عاداتهم، وتقاليدهم، ومحافلهم الخاصة بهم .. كما تناول المؤلف التقسيمات الطبقية، أو لنقل الطبقات اليهودية فى المجتمع العثمانى .. ولكن يبين لنا كيف أنهم إنغلقوا على أنفسهم إلى حد ما بعد بدايات القرن الثامن عشر .. ويبن كيف أنهم أصبحوا طبقة لها مميزاتها الخاصة فيما بينهم .. لم يترك المؤلف الحديث حتى عن الأوبئة، والحرائق التى كانت تنتشر فى الأحياء اليهودية، ويرجع ذلك إلى كونهم مجتمعات، أو تجمعات منغلقة على نفسها معمارياً، مما كان يزيد من فداحة الكارثة عندما تقع.

ثم يعرج الباحث إلى الحياة الإقتصادية، والإجتماعية اليهودية فى العصر العثمانى، ويشير إلى أن اليهود قد لعبوا دوراً إقتصادياً ملحوظاً أكثر من غيرهم من أهل الذمة فى العصر الذهبى للدولة العثمانية. ويبين كيف أنهم استأثروا بأنشطة مالية، وإجتماعية اختصوا بها مثل الطب، والأعمال المالية ثم البنكية .. ويتعرض لأهم رجال المال والإقتصاد، والأطباء الذين برزوا فى المجتمع العثمانى .. ولم يغفل الحديث عن سيدات المجتمع اليهودى، والدور الذى لعبنه فى المجتمع الأرستقراطى، وكيف وصل بعضهن. إلى صنع القرار.. وأصبحن من ذوات النفوذ.

يتضح فى الكتاب كيف كان يهود استانبول، وسالونيك هم همزة الوصل فى التجارة مع شمال شرق أوروبا .. واستقر عدد كبير من التجار اليهود فى أزمير، إعتباراً من الربع الأخير من القرن السادس عشر.. وأظهر كيف أنهم توغلوا فى الإدارة المحلية، وخاصة فى مصر، وفى إدارة جباية الضرائب.

لم يهمل الحديث عن نشوء الثقافة، والفلسفة اليهودية خلال العصر العثمانى ودور اليهود فى إدخال الطباعة، وطبع بعض الكتب العبرية فى

السنوات الأولى من القرن السابع عشر، وكذلك دورهم في الفنون، وعدد أسماء العديد من الذين لعبوا دوراً بارزاً فى هذه المجالات.

إنحدار اليهودية العثمانية فى القرن السابع عشر والثامن عشر:

كل النفوذ والنجاحات التى حققها اليهود فى العصر الذهبى خلال القرنين الخامس عشر، والسادس عشر، إختفى معظمها فى المائتين سنة التاليتين.

فلقد بدأ التفسخ والإنهيار من الطبقة الحاكمة أولاً .. ويستعرض المؤلف عوامل إنهيار الدولة العثمانية .. وكيف أن بوادر هذا التدهور قد ظهرت إرهاصاتها فى نهاية القرن السادس عشر الميلادى، وكانت بدايات الإنهيار ليست فى الأرستقراطية التركية، بل بدأت فى العناصر الأخري المتتركة. كما يشير إلى تدهور مستوى السلاطين الذين أتوا على رأس الإدارة خلال هذه المرحلة.

كما يتناول المؤلف فى هذا المبحث حركات العصيان التى كثرت فى الدولة العثمانية خلال القرنين موضوع الدراسة. ويشير إلى أنه، إذا كانت حركات العنف والإرهاب، والعصيان قد بدأت فى العاصمة، فإنها إنتشرت رويداً رويداً فى بقية المقاطعات والولايات. وكذلك يشير إلى تدهور النواحى الإدارية، وإمدادات المياه فى العاصمة، وبقية المدن الأخرى. كما إزدحمت المدن، والقصبات التركية بالوافدين إليها من المناطق الأكثر تدهوراً فى المتطلبات الحياتية. يكثر المؤلف من وصف الحالة التي وصلت إليها المدن، وتدهور أدوات مكافحة الحرائق مما زاد من خطورتها، إذا ما اندلعت. وما أكثر اندلاعها .. وتعرض هذا المبحث إلى المخاطر التى كان يتعرض لها السفر بالبحر، كما هو الحال بالنسبة للبر، وذلك بسبب القرصنة البحرية، والعصابات البرية، ويستعرض الخسائر فى السفن، وفى كروانات أى قوافل السفر البرية، كقوافل التجارة، وحتى قوافل الحجيج لم تسلم من مثل هذه الهجمات.

ووصل المؤلف إلى الصراع الإنجليزى - الفرنسى على سطح البحر الأبيض المتوسط، كما تعرض المؤلف لما تعرضت له البحرية العثمانية فى البحر الأحمر، والبحر الأسود، وحتى بحر مرمرة. لم يغفل المؤلف الصراعات التجارية بين التجار الأوروبيين، والإمتيازات التى أعطيت للبعض على حساب الآخرين، وما منح لليهود مما أدى إلى التنافس، والتصارع، بل والدسائس.. وبين أن هذه القلاقل وحركات التمرد لم تكن وقفاً علي العاصمة، بل أمتدت إلي كل الولايات، وشبه جزيرة البلقان، وصدام القوى المحلية فى المجر والبوسنة، وصربيا.. والصدام الدائم مع قوات الإنكشارية. ينتقل الباحث إلى أثر هذا الإنهيار والتدنى على اليهود العثمانيين، فليس من الصعب تخيل مدى المعاناة التى عاناها يهود الدولة العثمانية، وما قاموا به، وألم بهم خلال فترات الإنهيار هذه .. وتناول مدى إنتشار الصراع بين اليهود، وغيرهم من أصحاب المذاهب الأخرى غير المسلمين. وكيف حاول رجالات الدوشيرمه، والدبلوماسيون الغربيون، والتكتلات التجارية إخراج اليهود من مراكز صنع القرار فى السراى، وفي المواقع المهمة فى الدولة، وإحلال المسيحيين المحليين محلهم، وخاصة من الأرمن واليونانيين.

ونجح هؤلاء فى الوصول إلي بعض السلاطين. ورجالهم فى السراى الحاكم، وبدأت عملية إحلال هولاء محل اليهود فى البنوك، والمتاجر، والترجمة، وإن ظل بعض اليهود يعملون كممثلين دبلوماسيين للسلطان، أو مندوبين عن الصدر الأعظم. يبين هذا المبحث أنه إذا كان اليهود قد إصطدموا مع الدوشيرمه الذين هم من أصل مسيحى، فقد كان الإنكشارية يكرهونهم لأفعالهم، وأعمالهم، ولم يكن اليهود يفلتون من هجماتهم فى أى حركة عصيان تقوم بها هذه القوات.

وقد كان هناك تعاون وثيق بين الإنكشارية والدوشيرمة في هذا الصدد، ويعدد الباحث أوجه الإتفاق والتعاون ضد اليهود كالضرائب والجزية .. وضرائب الحرب، خاصة وأنه لم يكن يسمح لليهود بالإشتراك فى

أى حرب. بل يتعرض الباحث أيضاً للهجمات التي كان يشنها المماليك فى مصر ضد اليهود لأعمالهم الإستغلالية، والإستفزازية، ويضرب على ذلك الأمثلة الكثيرة، من بينها كيف أن المملوك على بك الكبير قد أجبر بعض اليهود على تغيير أسماءهم، وقبض على العديد منهم كعبيد، ولم يطلق سراحهم إلا بعد دفع البدلات اللازمة. كما يعدد ما فعله أحمد باشا الجزار ضد اليهود في عكة، وأعتبر ذلك ضمن ما كان يقوم به الجزار ضد الدولة العثمانية ذاتها.. وإذا كان المؤلف قد أورد الكثير من الملاحق، وخصص الملحق الأول عن حاخامات استانبول، وولايات الدولة العثمانية والجمهورية التركية حتى سنة ١٩٦١م. فإن الملحق الثانى قد خصصه لتعدادات سكان الإمبراطورية العثمانية ووفقاً لإحصائيات القرن التاسع عشر. وبدايات القرن العشرين وقد وضعها فى جداول؛ الجدول الأول عن الإمبراطورية عامة، والجداول من ٢ - ١٢ عن الولايات الأوروبية، والجداول من ١٣ - ٤٩ خصصها لتعداد سكان الآناضول، والولايات الأسيوية. لقد خصص جدولاً عن مقاطعة إستانبول، شاملاً المدينة ذاتها، والجزر والبوسفور، وبك أوغلي، اسكدار، وشيلة. وكان يقسم الجدول وفقاً لسنة التعداد، فيورد العدد الإجمالى، ثم عدد اليهود، وعدد المسلمين، وعدد الأرمن الأرثوذكس، والجريك الأرثوذكس.

ووفقاً لما أورده عن تعداد سنة ١٩١٤م كان عدد يهود سنجق القدس (يوروشاليم، ويافا، وغزة، وخليل الرحمن) بالضبط ٢٥٩ر٢١ يهودياً، بينما كان فى نفس السنجق ٤٤.ر٢٦٦ مسلماً، و ١٣٠١ أرمنياً أرثوذكسياً، وكذلك ٠٣٥ر ٢٦ جريكياً أرثوذكسياً.

ولم يكن فى مقاطعة حلب التى تضم: حلب والأسكندرونة، وانطاقيا، وعنتاب، وكليس سوى ١٩٣ر١٢ يهودياً، أما ولاية سوريا، والتى كانت تضم بعلبك، والبقاع، وحوران، ودمشق، وحماة فقد كان بها ٠٤٠ر١٠ يهودياً، بينما ولاية طرابلس الغرب حسب نفس التعداد لم يكن بها سوى ١٥٥ر ١٢

يهودياً، في مقابل ٤٣٢ ألفاً من المسلمين. ومقاطعة بغداد كان بها ١٣ر٧١٥ يهودياً فى مقابل ١٦٢ر٩٤٣ مسلماً .. وكان عدد اليهود فى مقاطعة البصرة ٤٤٠ يهودياً فقط، في مقابل ٩ر٤٦٠ مسلماً .. والموصل كان بها ٤ر١٦٥ يهودياً فى مقابل ١٤٨ر١٦٢ مسلماً.

أما الملحق الثالث، فقد خصصه المؤلف لتعداد يهود الجمهورية التركية من سنة ١٩٢٧ – ١٩٦٥م، موزعين على كل الأقاليم التركية .. ومن البيان يتضح أن عدد يهود الجمهورية التركية فى كل الولايات سنة ١٩٦٥م لم يكن يتجاوز ٢٦٧، ٣٨ يهودياً بينما كان عددهم فى سنة ١٩٢٧م يقترب من ٨٢ر٠٠٠ ألفاً .. وإذا كان عدد يهود إستانبول وحدها سنة ١٩٤٥م كان ٣٥ر٤٧٠ يهودياً فقد إنخفض هذا العدد، وفى نفس المدنية سنة ١٩٦٥م إلى ٣٠ر٨٣١ يهودياً أى أن مدينة إستانبول وحدها كان بها ٣٠ر٨٣١ يهودياً من مجموع يهود تركيا كلها البالغ ٣٨ر٢٦٧ وهذا له معناه .. بينما كان عددهم سنة ١٩٢٧ فى نفس المدينة ٤٦ر٦٩٨ يهودياً، وكان فى سنة ١٨٨٣م ٤٤ر٣٦١ يهودياً.. وهذه الأعداد، والإحصائيات لا تكذب، بل أنها تدل على أحداث كبار.. ويجب الوقوف أمامها للتأمل، والتدبر .. وإتخاذ ما يلزم.

الجون تورك
Jeunes Turco
Jön türkler

الجون تورك = Jeunes Turco
Jon turkler (*)

ويطلق عليهم العثمانوين الجدد أو العثمانيون الشبان.

هي جمعية سرية تشكلت في الدولة العثمانية كانت تدافع عن القانون وتطالب بتطبيقه فوراً وإعلان الحياة الدستورية التي كانت تراها المنقذ للدولة العثمانية من عثراتها وكان اسمها الأصلي "العثمانيون الجدد" تشكلت في استانبول (سنة ١٢٨٢ هـ = سنة ١٨٦٥م) وبدأت عملها في شكل سري مؤسسوها الأوائل هم محمد بن صاغير، أحمد بك، والضابط نوري، وقايا زاك رشاد وآية اللّه صبحي باشا ونامق كمال وكانوا جميعاً يرون أن كل من عالى وفؤاد باشا هم السبب الرئيسي لما تعانيه البلاد من نكسات. وكان قائدها الفكري شناسى باشا [١٨٢٦ - ١٨٧١م] وقائدها الفعلي محمد بك. ثم إنتقلت الريادة الفكرية لنامق كمال بعد ذهاب شناسى إلي أوروبا. وعُقد أول اجتماع لها في قصر صاغير أحمد بك وحضر آية اللّه الاجتماع ومعه كتابان عن التنظيمات السرية «الكاربواري» وجمعية «لهستان السرية» وهذا ما ولد التشابه بينها وبين هاتين الجمعيتين في بادئ الأمر. ثم إنضم إليها كل من (ضيا باشا «١٨٤٥ - ١٨٨٠م») وعلي سيعاوي (١٨٣٩ - ١٨٧٨م) وأبو الضيا توفيق، ورفيق أفندي صاحب مجلة المرآة، وكذلك أكاه أفندي وبعد فترة زمنية وجيزة وصل عدد أفرادها إلي [٢٤٥ عضواً] وقد أظهر كل من الأمير مراد والأمير عبدالحميد تعاطفاً مع الجمعية في بادئ الأمر، ولكن الأمير المصري مصطفي فاضل باشا هو الذي لعب دوراً مهماً ومؤثراً من حياة هذه الجمعية. فبناء علي فرمان تغيير وراثة العرش الذي حصل عليه الخديوي إسماعيل باشا سنة ١٨٦٦م فإن أخاه مصطفي فاضل باشا الذي خدم الدولة العثمانية في كثير من الوظائف - هو الذي حرم من الوصول

(*) أعد هذا المقال للوسوعة العربية الميسرة التى كان يشرف عليها د. مصطفى لبيب صاحب دار الثقافة العربية ١٩٧٨م.

إلي العرش. ولهذا فقد وقف موقفاً عدائياً من السلطان عبدالعزيز وصدريه الأعظمين عالى وفؤاد باشا فإنضم فيما بعد إلي جمعية العثمانيين الجدد وبمجرد وصوله إلي باريس وإنشائه شركة مصرفية هنالك بدأ في إصدار مجلة تسمي «حوريت» وأسند رئاسة التحرير فيها إلي محمد بك ووجه خطاباً مفتوحاً بالفرنسية في عددها الأول إلي السلطان عبدالعزيز وأورد فيه بعض الملاحظات عن مواطن الضعف في الإمبراطورية العثمانية وتعرض لبعض الإصلاحات التي يمكن أن تنقذ الدولة العثمانية من كبوتها وطالب السلطان عبدالعزيز بتطبيق الديمقراطية، والحياة النيابية في الدولة العثمانية، وأتهم رجالات الدولة وصدورها العظام مثل عالي باشا وفؤاد باشا بالجهل والخيانة، وأحدث هذا الخطاب دوياً هائلاً بين أنصار الحرية وترجمه إلي التركية نامق كمال وأبو الصيا توفيق وطبع عدة طبعات في «تصوير أفكار» ووزع سراً في داخل البلاد مما دفع بالصدر الأعظم عالي باشا إلي التحرك من جديد سنة ١٨٦٧م ونفي علي سيعاوي إلي قسطموني كما نقل كل من نامق كمال وضيا باشا إلي خارج العاصمة ولقد استحسن كل من علي سيعاوي ونامق كمال التعبير الفرنسى Jeunes Turcs، الذي ورد في خطاب مصطفي فاضل باشا وبدأ كل منهما يقرنه بـ «العثمانيين الجدد» في نشرياته.

وأمام اضطهاد عالي باشا لأعضاء الجمعية فقد دعاهم مصطفي فاضل باشا إلي باريس ومن هنا إنتقل نشاطها إلي هناك بل وانضم إليها بعض موظفي السفارة العثمانية في باريس مثل قاني باشا زاده ورفعت بك.

وبدأ الـ «جون تورك» نشاطهم الصحفي في أوربا فإلي جانب «حوريت» في باريس بدأ علي سيعاوي في إصدار مجلة «مخبر» في لندن اعتباراً من ٣١ أغسطس سنة ١٨٦٧م ولكنه اختلف مع رفاقه فتولي كل من نامق كمال وضيا باشا إصدار «حوريت» وحدهما إعتباراً من ٢٩ حزيران

سنة ١٨٦٨ ثم جاء علي سيعاوي بعد ذلك إلي باريس وأصدر مجلة «علوم» ولكن كانت «حوريت» هي الناطقة باسم الجمعية. وكانت نقطة اللقاء بين كل هذه المجلات هو الدفاع عن الحياة النيابية التي سماها البعض «نظام أساسي» و«نظام سربستانة» و «ديمقراطيت» و «شواري آمت» و «مللت مجلسي». وتجاه العلمانية التي كانت أفكارها تسود أوربا آنذاك إنقسمت الجمعية إلي اتجاهين: الأول ويتزعمه نامق كمال وضيا باشا وهو يري أن تؤسس الحياة البرلمانية علي «أصول المشوري في الشريعة الإسلامية» أي تُبنى الحياة الدستورية علي الربط بين الدين والدولة وكتب ضيا باشا عدة مقالات عن الإدارة الجمهورية علي أساس أن الإدارة الجمهورية الحقيقية هي تطبيق لإصول الشوري في الشريعة الإسلامية. أما الاتجاه الثاني وقد تزعمه فاضل باشا والشيخ المعمم علي سيعاوي فقد كانا يريان عكس ذلك تماماً أي ضرورة فصل الدين عن الدولة.

وكانت الركائز الفكرية التي دارت من حولها الصراعات في الجمعية منذ أول عهدها إلي نهايتها تتلخص من هاتين النقطتين:

(أ) حق كل رعاية الدولة العثمانية في الحرية والمساواة والحقوق. وعلي القانون أن يؤمن ذلك.

(ب) تأسيس الحياة الدستورية في البلاد.

وكان أعضاء الجمعية جميعاً مؤمنين بأن تأمين وحدة الإمبراطورية العثمانية بكل رعاياها وإدارتها العادلة يمكن أن تنبع من هاتين النقطتين السابقتين. وكانت تنظيمات ١٨٣٩م قد أقرت المبدأ الأول وقبله كل أنصار التنظيمات أما المبدأ الثاني فقد كان هناك خلاف كبير في وجهات النظر بين أعضاء الجمعية من كيفية تأسيس الحياة الدستورية، بعضهم يراها عن طريق الثورة وإراقة الدماء إذا لزم الأمر. وبعضهم يراها ممكنة عن طريق الصراع الفكري الذي لابد وأن ينتهي بها.

وجاءت زيارة السلطان عبدالعزيز إلي أوربا في حزيران سنة ١٨٦٧ ضربةً موجهة ضد الجمعية، حيث أن السفارة العثمانية في باريس مارست

ضغطها علي السلطات الفرنسية لطرد أعضائها من باريس فذهبوا إلي لندن، هذا من ناحية ومن ناحية أخري فقد سعي السلطان عبدالعزيز إلي التصالح مع الأمير المصري فاضل باشا، وتم بالفعل، ورافقه في رحلته، وعينه وزيراً للمالية بعد أن عاد «إلي استانبول ومن هنا انقطعت الإمدادات المالية عن أعضاء الجمعية رويداً رويداً.

وهكذا زادت حدة الخلاف بين أعضاء الجماعة وانقسمت إلي مجموعات صغيرة حسب التيارات الفكرية التي كانت تعمل داخلها. وعاد البعض منهم علي إثر إعلان العفو العام سنة ١٨٧١م والبعض الآخر عن طريق التصالح مع السلطة وإن كان بدأ يظهر بينهم صراع فكري جديد، فإلي جانب الصراع الإسلامي والعثماني بدأ يظهر الفكر الطواني لأول مرة علي يد كل من علي سيعاوي ومحمد بك ابن صاغير أحمد باشا اللذين لم يعودا إلي البلاد إلاّ بعد أن اعتلي عبدالحميد الثاني العرش.

وهكذا بدأ .. أعضاء الجمعية يتولون الوظائف والمهام في البلاد بعد أن تشتت شملهم وإن كان البعض منهم قد شارك بالفعل في تأسيس الحياة الدستورية في البلاد بعد أن تولي السلطان عبدالحميد المسئولية وعين نامق كمال رئيساً لتحرير مجلة «عبرت» سنة ١٨٧٢م.

ولقد اقتنع المثقفون وحتى أنصاف المثقفين بالدور الفعّال لجمعية «الجون تورك» في نشر الحرية والديمقراطية في ربوع البلاد والتفوا جميعاً حول مدحت باشا الذي تولي الصدارة لمدة شهرين ونصف فقط في المرة الأولي [أغسطس سنة ١٨٧٢] وأيدوه واستفادت الجماعة من مسرح «كللي أغوب» الموجود في حي «كديك باشا» لدعايتهم فقد ساعدهم هذا الأرمني في نقل مسرحياتهم التي ترجموها عن الديمقراطية والحرية إلي خشبة المسرح. وعلي خشبة نفس المسرح مثلت مسرحية نامق كمال «وطن ياخود سلسترا»= الوطن أو سلسترا والتي جعلت المشاهدين يخرجون من المسرح حاملين نامق كمال علي أكتافهم هاتفين "يحيا الوطن". وفي الليلة الثانية

للعرض قُبض علي نامق كمال ونُفي إلي ماجوسا في قبرص ونوري وحقي إلي عكا وأحمد مدحت أفندي وتوفيق بك إلي رودس.

وبالرغم من ذلك فقد استمر بعض أعضاء الجون تورك في العمل السياسي ملتفين حول مدحت باشا حتي نجحوا في الضغط علي السلطان عبدالحميد الثاني حتي أعلن المشروطية الأولي في الدولة العثمانية لأول مرة في ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٧٦ ولكن الحياة النيابية لم تعمر طويلاً حيث اضطر نفس السلطان إلي تشتيت أعضاء أول برلمان عثماني في ١٤ فبراير سنة ١٨٧٨ وكانت هذه الفترة الوجيزة حتي نهاية جمعية «الجون تورك».

المراجع (مرتبة حسب الورود في الصفحات)

1- Ali Fahri, Yeni Osmanlılar Kongrasi "Cenevre 1899."

2- Ismail Hakki, cidal yahut Maksad-1 Hakikat. Kahire 1908.

3- E. Engelhardet. La Turquie et le Tanzimat. paris 1909

4- Abdurrahman şeref. Tarih Musahabeleri Ist. 1921.

5- Şukru Kaya Gökoranoğlu, Jön Türkler, den birkaçının Biyografisi, Ist. 1937.

6- Şerif Mardin Jön Türklerin Siyasi fikirleri 1895 - 1908.

7- Bernard Lewis, Türkiyenin doğuşu, Çev. Metin Keratle. Ank. 1970.

8- Mithat Cemal Kuntay, Namik Kemal, Ist. 194

الاتحاد والترقي «جمعية»:(*)

جمعية سياسية تُعرف أيضاً بـ «جمعية الاتحاد العثماني» و «جمعية الاتحاد العثماني» تشكلت في ٢١ مايو ١٨٨٩ كجمعية سرية تعمل علي عودة المشروطية والحياة النيابية إلي ربوع الدولة العثمانية وقد انتشرت فروعها في داخل البلاد خلال فترة زمنية وجيزة واتحدث مع جماعات الـ «جون تورك» في داخل البلاد لأول مرة أثناء الأحداث الأرمنية سنة ١٨٩٥م وبناء اعلى المطاردات التي قامت بها الحكومة فقد اضطرُ بعض أعضائها إلي الهروب خارج البلاد أمثال الدكتور عبدالله جودت والدكتو اسحاق سكوتي والدكتور إبراهيم تيمو وحلمي التوني والدكتور عاقل مختار ومن لم يتمكن من الهرب فقد تشرد خارج العاصمة. وكما أن الجمعية باشرت نشاطها بشكل فعّال في شعبتي القاهرة وجنيف سنة ١٨٩٧ فإنها قد أسرعت في فتح شعب ومنظمات لها في اقليم الروميلي حتي أنه خلال هذه المدة افتتحت تسع شعب لها في بلدان الروميلي وكانت تُقدم نفسها إلي المجتمع العربي آنذاك علي أنها ممثلة للجون تورك. وبهذه الصفة انضم أحمد رضا بك إلي مؤتمر نزع السلاح سنة ١٨٩٩ ومعرض باريس سنة ١٨٩٩ والمؤتمرات الصحفية العالمية سنة ١٩٠٠ وألقي بها بيانات وخطباً. كما أن الجمعية خلال تلك الحقبة أعطت أهمية بالغة للصحافة والإعلام خارج وداخل الوطن، ففي أزمير أصدرت المجلات التالية: «خذمت» و «سعادت» و «آهنك» وفي إستانبول أصدرت مجلات: «شوراي آمت» و «مشورت» وفي جنيف أصدرت «عثمانلي اجتهاد» وفي القاهرة، «قانوني أساسي» و «بصيرت الشرق» و «حق» وكانت هذه المجلات جميعاً تدافع وتنشر آراء الجمعية وتنتقد إدارة السلطان عبدالحميد الثاني، وإن

(*) أعد هذا المقال للموسوعة العربية الميسرة التى كان يشرف على اصدارها د.مصطفى لبيب صاحب دار الثقافة العربية ١٩٧٨م.

كانت آراء الجمعية منقسمة إلي وجهتي نظر فيما يتصل بتطبيق النظام الدستوري. وقد اتضح هذا الخلاف صراحة في مؤتمر الجون تورك الأول في باريس سنة ١٩٠٢م حيث انقسمت الجمعية إلى شعبتين؛ الأولي جمعية التشبث الشخصي واللامركزية ويرأسها الأمير صباح الدين. أما الذين التفوا حول أحمد رضا فقد تسمَّوا بـ «جمعية الاتحاد والترقي العثماني» ولكن بوساطة بعض الفرق الأخري تمكنت الجمعيتان من عقد مؤتمر موحد في نوفمبر سنة ١٩٠٧ وتوصلتا إلي برنامج متفق عليه من كليهما للعمل ضد عبدالحميد الثاني. وكان هدفهما أن يتوصلا إلي برنامج مختلف عن ذلك الذي أصدرته «جمعية الحرية العثمانية» التي تكونت في سلانيك سنة ١٩٠٦م. واجتمع الأعضاء سراً في منزل كل من اسماعيل جانبولات ومدحت شكري، وتوصلوا إلي اتفاق حول رفض تدخل الدول الأجنبية في الشئون الداخلية للدولة، كتدخل روسيا لحماية البلغار والسعي لكسب ود الجيش وضم بعض عناصر إلي الجمعية، وبعد سنة اتخذوا قراراً بتوحيد شُعْبَة باريس بشُعَب سلانيك وأطلقوا عليها جمعية الاتحاد والترقي واعترفوا بها علي أنها المركز العمومي الأول.

وبعد هذا الاتحاد نشطت الجمعية في اقليم الروميلي نشاطاً ملحوظاً، حتي وصلت بهم الحال إلي توجيه الانذارات إلي قناصل إنجلترا والنمسا وروسيا وفرنسا وإيطاليا بعدم تعيين ولاة أجانب في ولايات الروميلي الثلاث «مناستر» و «قوصووة» و «سلانيك» وكان لهم ماأرادوا.

وقد حاول السلطان عبدالحميد الثاني أن يقضي علي نشاط هذه الجماعات بقواته المعسكرة من «رسنة» إلاَّ أنها انضمت إلي كتائب التحرير. ثم تحرك بعد ذلك الفريق أول شمس باشا للتنكيل بالاتحاديين إلاَّ أنه قُتل أمام مبنى تلغراف «مانستر» وعلي يد أحد أعضاء الجمعية في ٧ يوليو سنة ١٩٠٨م وبدأ عدد المحتمين بالجبال من فرق التحرير يزداد يوماً بعد يوم وفي ٢٣ يوليو سنة ١٩٠٨م أعلنت قرارات الحرية والعصيان ضد عبدالحميد الثاني في كل مدن الروميلي حتي اضطر السلطان في اليوم الثاني إلي

إعلان الإرادة السنية بتسير القانون الأساسي من جديد وأعلنت المشروطية الثانية وافتتح المجلس دورته الثانية في ١٧ نوفمبر سنة ١٩٠٨م.

وبعد إعلان المشروطية قررت الجمعية تغيير اسمها إلي «الاتحاد والترقي» واستخدمت هذا الاسم في كل نشاطاتها وشكلت لجنة سرية من المركز في سلانيك وبعثت بها إلي استانبول لمراقبة «الحكومة» ولم تعلن أسماء هذه اللجنة إلا فيما بعد، وكان من بين أعضائها احمد رضا وطلعت وخيري وحسين قدري ومدحت شكري وحبيب وأنور واسماعيل حسنى والدكتور بهاء الدين شاكر وناظم.

وبعد افتتاح المجلس أصبح الاتحاديون أصحاب السلطة المطلقة في البلاد وإن لم يصل أحد منهم إلي منصب الوزارة أو الصدارة في بادئ الأمر لخلو صدورهم من الأوسمة والنياشين علي حد تعبير حسين جاهد يالچين. ولذلك تركوا السلطة الشكلية إلي حكومة سعيد باشا. ولكن بمرور الزمن تولد الصراع بين القصر والباب العالي والجمعية وكان السبب الأول لتفجير هذا الصراع هو مَنْ الذي يتولي منهم تعيين وزيري الحربية والبحرية؟ واستقال سعيد باشا وجاء مكانه كامل باشا. وحاولت الجمعية أن تسلب السلطان سلطاته بالاتحاد مع الباب العالي، وأصبحت هي صاحبة السلطة الفعلية شكلاً وموضوعاً، واستغل البلغار الفرصة، وأعلنوا الاستقلال، وضُمت كريت إلي اليونان، كما ضمت النمسا المجر واليوسنة والهرسك وأطلت المشكلة البلقانية بوجهها السافر استناداً إلي تساهل الجمعية في إدارتها لتلك المناطق. وعندما حاول كامل باشا إجراء بعض التغيرات في الوزارة لدرء هذه المخاطر نشب الخلاف بينه وبين الجمعية ولأول مرة في تاريخ تركيا السياسي تسقط حكومة كامل باشا باقتراع سحب الثقة.

وعُين حسين حلمي باشا «صدراً أعظم» في ١٤ فبراير سنة ١٩٠٩م وقد لعب كل من أنور وطلعت وأحمد رضا دوراً مهما في هذه الأحداث.

وشكلت المعارضة التي تود إسقاط كامل باشا «فرقة الأحرار» في المجلس وبدأت تكيل التهم للجمعية وباشرت جريدة «سَرْبَسْتي» الناطقة باسم هذه الجماعة بنشر مقالات شديدة اللهجة ضد الاتحاديين وكذلك ماتقاضاه بعض أعضاء الجمعية من رشاوي واستغلال للنفوذ مدعمة ماتقوله بالوثائق مما دفع الجمعية أن ترتب قتل رئيس هذه المجلة بشكل سري أمام مبني البريد في استانبول، ولكن تحولت جنازته إلي مظاهرة معادية للاتحاديين في (٧ ابريل سنة ١٩٠٩م) كما تشكلت جمعية جديدة من قبل بعض المحافظين تحت اسم «الاتحاد المحمدي» وبدأت تطالب بتطبيق الشريعة وتقترح الاصلاحات المزعومة بدعوي المعاصرة، ونجح المحافظون - في المجلس - في كسب تأييد بعض فرق الجيش والأنصار الجدد في المجلس وخارجه. واضطر حسين حلمي باشا إلي الاستقالة في ١٣ مايو سنة ١٩٠٩ وعين مكانه توفيق باشا في ١٤ من نفس الشهر، وتتابعت الأحداث وفر بعض الاتحاديين من استانبول واختفي البعض الآخر.

ونُهبت مطبعة الجمعية وخُرِّبت وأُنزل بالجمعية ضربة قاضية، إلاَّ أن الجيش اضطر إلي التدخل، وحاصر استانبول والمجلس، وفي ليلة ٢٣ مايو سنة ١٩٠٩م أُنزل عبدالحميد من علي العرش وعُين مكانه محمد رشاد. تمركزت السلطة فى يد محمود وشوكت باشا بعد أن تحرك بقصد فرض النظام وإعادة الأمن وأقال توفيق باشا وأعاد حسين حلمي باشا إلي الصدارة للمرة الثانية. وفي حزيران سنة ١٩٠٩م كان أغلب أعضاء المجلس من الاتحاديين وحتي ذلك التاريخ كان الاتحاديون يعملون كمستشارين للوزراء فقط، ولكنهم قرروا أن يدخلوا الوزارة بشكل مباشر وفي مدة وجيزة أصبح كل من رفيق جاوير بك وزير المالية إلي طلب الاستدانة من كل من فرنسا وانجلترا، إلاَّ أن المانيا هي التي قدمت له المساعدات من جديد وتتابعت أحداث العنف من كل أنحاء البلاد مما اضطر طلعت بك وزير الداخلية إلي الاستقالة.

وتجمعت المعارضة للاتحاديين في زمرتين؛ الأولي تضم رجال الدين والمحافظين بقيادة الاميرال صادق بك الملاحين، أما الثانية فتضم كل المتضررين والحاقدين علي الاتحاديين في داخل المجلس.

وإذا كان إعلان الطليان الحرب علي الدولة العثمانية فى طرابلس فيه ضرر للدولة فقد كان فيه نفع للجمعية؛ فقد استقال حقي باشا وعاد سعيد باشا للمرة الثامنة إلي الصدارة سنة ١٩١٢م وبينما رمي الحرب تدور يشكل بعض الشخصيات العامة. مثل د. رضا نور والأميرال صادق وداماد فريد ولطفي فكري ورضا توفيق حزب «الائتلاف والحرية» (٢١ ديسمبر سنة ١٩١٢م) وبعد مدة وجيزة شكل أيضاً بعض ضباط الجيش الراغبين في التخلص من نفوذ الاتحاد والترقي جماعة «ضباط التحرير» وتحت تأثير هذه الجماعة استقال سعيد باشا من الصدارة (١٧ تموز ١٩١٢م) وبدي للعيان وكأن الاتحاد والترقي ابتعدت تماماً عن السلطة وعيّن الغازي أحمد مختار باشا صدراً أعظم وما أن انتهت الأزمة حتي ترك مكانه لـ «كامل باشا» وكان علي وشك القضاء قضاءً كاملاً علي الاتحاديين إلاَّ أن اندلاع حرب البلقان(١ اكتوبر سن ١٩١٢م) نقل الصراع السياسي إلي المرتبة الثانية. وعندما نجح الأعداء - البلغار - فى احتلال أدرنة استغل الاتحاديون الفرص لصالحهم وألحوا علي إسقاط حكومة كامل باشا واستقالته. وشكلت جمعية الاتحاد والترقي الوزارة (٢٣ يناير سنة ١٩١٣م ودعم الاتحاديون موقفهم باسترداد أدرنة علي أيدي قوات أنور باشا وعُين سعيد حليم باشا صدراً أعظم في مارس سنة ١٩١٣ وأُجريت الانتخابات، واجتماع المجلس العثماني الثالث في ١٤ مارس سنة ١٩١٤م وكانت الجمعية هي صاحبة السلطة المطلقة وقد أعقبت وزارة طلعت باشا وزارة سعيد حليم باشا وبعد تولي وحيد الدين العرش إثر وفاة محمد رشاد تولي طلعت باشا الصدارة للمرة الثانية، وظل فيها حتى هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولي واستقال في ٢٧ أكتوبر سنة ١٩١٨م.

وتحمل المشروطية الثانية طابع الاتحاد والترقي داخلياً وخارجياً وتعد الجمعية هي المسئولة مسئولية كاملة عن دخول الدولة العثمانية إلي الحرب العالمية الأولي وقد اضطر أبرز أعضائها إلي السفر خارج البلاد في نهاية الحرب وتشتت الجمعية.

وقد عقدت الجمعية تسع مؤتمرات في المدة من ١٩٠٨ - ١٩١٨ وكانت مؤتمرات ١٩٠٨، ١٩١٠، ١٩١١. سرية في مدينة سلانيك أما المؤتمرات الأخري فقد كانت علنية.

المراجع حسب الورود في الصفحات

1- Laskoviçli Mehmet Rauf, Itihat ve terakki cemiyeti neisi. Ist 1909.

2- Prens sabahettin Ali,ittihat ve terakki cemiyetine açık mektuplar, ist 1909.

٣- محمد صباح الدين، بيلد يكلرم، اتحاد وترقي جمعيتك مقصد تأسيسي وصورت تشكل ودولت عليه عثمانية نيله سبب فلاكت وانقسامي القاهرة ١٩١٩م.

4- Cemal paşa Hatırati. ist. 1922.

5- Mustafa Ragip, ittihat ve terakki Tarihinde Esrar perdesi, Ist. 1943.

6- Tarik zafer tunaya, türkiye, de Siyasi partılar ist. 1952.

7- Bernard Lewis, yeni türkiyenin Doguşu çev. Metin Kiratle. Ank. 1970.

8- Ferog Ahmet, ittihat ve terakki, Ist. 1971

أنور باشا (*).

هو «أنور أحمد أفندى». من أبرز رجال الدولة العثمانية، فى القرن الرابع عشر الهجرى.

وُلدَ فى مدنية استانبول فى (٢٩ من ذى الحجة سنة ١٢٩٨هـ = ٢٢ من نوفمبر سنة ١٨٨١م) وتخرَّج فى «الأكاديمية الحربيَّة» بها، وترقَّى فى الرتب العسكريَّة حتى صار وزيراً للحربيَّة، ولم يتجاوز عمره الثالثة والثلاثين.

وينتمى «أنور باشا» إلى أسرة تنحدر من «قصبة كُلْبَةَ» فى «رومانيا» التى تقع عند منابع نهر الطونا.

وكان والده «أحمد أفندى» موظفاً فى إدارة الطرق العثمانية، أما والدته فهى «عائشة هانم» ابنة أحد الموظفين المتوسطين في «مانستير».

واتصف «أنور باشا» بالانضباط العسكرى، والبعد عن حياة اللهو والمجون، فلم يكن يتردد على أماكن اللهو، بل كان متمسكاً بتعاليم الدين، والخلق القويم.

وكان «أنور باشا» طويل القامة، قوىّ البنية، شجاعاً جسوراً، وكان قائداً عسكريا من أصحاب الرأى والرؤية، وصاحب شخصية قيادية قوية، وهو من أمهر الفرسان الرماة، وقد أظهر مهارة فائقة فى مطاردة العصابات، والخارجين على القانون فى «سلانيك»، و «مانستير».

وقد انضم «أنور باشا» إلى جمعية الاتحاد والترقى، وكان عضواً بارزاً فى هيئة الإدارة المركزية فى «سلانيك»، وضابط الاتصال بين الهيئة والفروع فى المناطق الأخرى.

(*) نشرت هذه المادة فى دائرة سفير للمعارف الإسلامية العددان ٢٩ ، ٣٠.

وقد تكاثرت الأحداث والثورات الاستقلالية عن الدولة العثمانية: ففى (١٩من رمضان سنة ١٣٢٦هـ = ١٥ من أكتوبر سنة ١٩٠٨م) أعلنت «بلغاريا» استقلالها، ثم تبعتها «البوسنة والهرسك»، وأعلنت «كريت» الانضمام إلى «اليونان»، كما حدثت ثورات فى «ألبانيا» وباقى الولايات العربية.

وفي سنة (١٣٣٠هـ = ١٩١٢م) وقعت «حرب البلقان الأولى»، ثم تبعتها «حرب البلقان الثانية فى سنة (١٣٣١هـ = ١٩١٣م).

وكان توالى هذه الحروب التى شارك فيها «أنور باشا»، وتوالى الهزائم يقويان من نفوذ جمعية الاتحاد والترقى، التى أصبحت حزباً سياسيا يتدخل فى تشكيل الحكومة.

ولما دخل حزب الاتحاد والترقي الانتخابات، حقق الأغلبية التي جعلته يُشكل الحكومة بشكل مستقل.

وحارب «أنور باشا» فى «طرابلس» جنباً إلى جنب مع «مصطفى كمال باشا»، وزادت صداقتهما في «البلقان»، كما شارك فى استرداد مدينة «أدرنة» من أيدى البلغار سنة (١٣٣٣هـ = ١٩١٤م)؛ مما زاد من منزلته بصفة خاصة، ومنزلة الاتحاد والترقى بصفة عامة.

ولما أعلنت «الحرب العالمية الأولى»، كانت الدولة العثمانية قد قطعت كل علاقاتها مع «إفريقا»، واضطرت إلى التنازل عن أراض كثيرة في «البلقان»، ولم يعد لها فيها سوي «أدرنة» التى استردتها من «بلغاريا» و تراقيا الشرقية»، ووجد الاتحاديون فى الحرب العالمية فرصة للتخلص من مشاكلهم فدخلوها تحت ضغوط ألمانيا واغراءاتها، وكان ذلك في (٢٤ من ذي الحجة سنة ١٣٣٢هـ = ١٢ من نوفمبر سنة ١٩١٤م).

وتلقت الدولة العثمانية – وبخاصة جمعية الاتحاد والترقي – ضربة قاصمة، وخرجت من «الحرب العالمية الأولى»، وقد فقدت البقية الباقية لها، بل احتُلت «تركيا» و «استانبول» ذاتهما من قبل جيوش الدول المنتصرة في الحرب.

وكانت جبهة قفقاسيا من أهم ميادين الحرب العالمية الأولي، وقد تولي «أنور باشا» قيادة جيش قوامه مائة وخمسون ألف جندي؛ لكي يحارب به ضد الروس، ولكن شدة البرد، وقلة العتاد، وانتشار المرض أفقدت الجيش العثماني مائة ألف جندي، واضطرته إلى توقيع اتفاقية وقف إطلاق النار واتفاقية الاستسلام فيما بعد، ولم يجد الاتحاديون شيئاً ينقذون به ماء وجوههم سوى الانسحاب من الحكومة فى (٢ من المحرم سنة ١٣٣٧هـ = ٨ من أكتوبر سنة ١٩١٨م)، وشكل «عزت باشا» الوزارة التى قبلت الهدنة الاستسلامية في (٨ من المحرم سنة ١٣٣٧هـ = ١٤ من أكتوبر سنة ١٩١٨م).

ولم يحتمل «أنور باشا» - الذى سطع نجمه فى الأفق منذ (١١ من جمادى الآخرة سنة ١٣٢٦هـ = ١٠ من يوليو سنة ١٩٠٨م) كل هذه الهزائم المتوالية؛ فاتجه إلي جبهة «بخارى الشرقية»؛ لكي يحمل السلاح، ويقود الكفاح داخل حدود وطنه الإسلامى الكبير، ولكنه لقي ربه فوق قمة «بخارى الشرقية» في (١٠ من ذي الحجة سنة ١٣٤١هـ = ٤ من أغسطس سنة ١٩٢٢م) وهو في ساحة الوغى، وكأنه أراد أن يكفر عن خطاياه ضد السلطان «عبد الحميد الثانى» خاصة، والخلافة العثمانية عامة.

أهم مراجع المدخل:

* محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية - دار النفائس - بيروت - بدون تاريخ.
* عبد العزيز محمد الشناوي - الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - بدون تاريخ.
* محمود صالح منسي - حركة اليقظة العربية فى الشرق الأسيوى - دار الفكر العربى - القاهرة - ١٢٧٦هـ = ١٩٧٦م.

فهرس الموضوعات

المبحث السادس

المبحث السابع

المبحث التاسع

الكتب التى صدرت للمؤلف

١) دراسات فى الشعر التركى... طبع فى القاهرة سنة ١٩٧٨م (نفذ).
٢) دراسات فى الأدب الشعبى التركى.. باللغة التركية ١٩٨٠م (نفذ).
٣) السلالات اللغوية ومكانة اللغات الشرقية بينها طبع فى القاهرة سنة ١٩٨٠ (نفذ).
٤) من خطب الملك عبدالعزيز ... دراسة وثائقية .. الدارة .. الرياض المملكة العربية السعودية ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م ٣٨ مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز.
٥) سلطان الفضاء .. وخيال الشعراء، مطبعة خطاب بالقاهرة ١٩٨٧م
٦) القمر الصناعى العربى ... الجذور والآفاق .. دار الزهراء للنشر القاهرة ١٤١١هـ ١٩٩١م.
٧) يشار كمال والقصة التركية القصيرة.. الدار المصرية اللبنانية يناير ١٩٩٧.
٨) مرآة جزيرة العرب .. مترجم فى جزئين، دارالرياض للنشر والتوزيع. طبعة أولى ١٩٨٣م .. طبعة ثانية فى جزء واحد.. دار الآفاق العربية القاهرة ١٩٩٩م.
٩) رحلة أوليا چلى.. الحجاز.. الرحلة الحجازية.. مترجم عن التركية العثمانية صدر عن دار الآفاق العربية بالقاهرة ١٩٩٩م.
١٠) اسيتانبول.. عبق التاريخ وروعة الحضارة.. دار الآفاق العربية بالقاهرة ١٩٩٩م .
١١) قواعد اللغة العثمانية والتركية.. دار الآفاق العربية القاهرة الطبعة الأولى ١٤١٩هـ = ١٩٩٩م
١٢) علم اللغة التقابلى وتطبيقاته على اللغات الشرقية، دار الآفاق العربية بالقاهرة. الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ = ٢٠٠١م.
١٣) القيم الأسرية بين الأصالة والمعاصرة ... دار الآفاق العربية بالقاهرة ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م.

١٤) اللغة التركية .. قواعد ونصوص.. جواد الشرق - القاهرة ١٤٢٢هـ = ٢٠٠٢م.

١٥) دراسات فى الشعر التركى حتى بدايات القرن العشرين .. الجزء الأول.. جواد الشرق ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

١٦) أوراق تركية .. حول الثقافة والحضارة .. الكتاب الأول التاريخ والسياسة .. الجزء الأول. جواد الشرق ٢٠٠٢م ١٤٢٣هـ.

١٧) أوراق تركية.. حول الثقافة والحضارة .. الكتاب الأول... التاريخ والسياسة .. الجزء الثانى جواد الشرق ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.

المعاجم

١٨) «معجم صفصافى» تركى - عربى .. طبع فى القاهرة واستانبول عدة طبعات منذ سنة ١٩٧٦م...

١٩) المعجم التركى - العربى الكبير.. دار الدعوة استانبول ١٩٨٥م.

(الكتب التى تحت الطبع)

١) أوراق تركية.. حول الثقافة والحضارة.. الكتاب الثانى الجزء الأول: اللغة والآدب...

٢) التطور الديمقراطى فى تركيا الحديثة والمعاصرة فى جزئين...

٣) رحلة أوليا چلبى إلى مصر والسودان والحبشة...

٤) تطور الفنون المعدنية السلچوقية...

٥) الصفيحة .. والقيظ .. وحكاية قذرة.. مجموعة قصصية ليشار كمال.. المجلس الآعلى للثقافة والفنون..

٦) الشاعر التركمانى مخدومقلى وأشعاره العرفانية.. المجلس الآعلى للثقافة والفنون...

٧) الدعامة الوسطى .. رواية للأديب التركى يشار كمال المجلس الآعلى للثقافة والفنون...

٨) نظرة على تاريخ الآدب الأذربيجانى.. مترجم عن اللغة الآذارية...

٩) قضايا وهموم المواطن التركى فى الشعر خلال القرن العشرين...

١٠) «المعجم العثمانى .. التركى .. العربى .. الكبير».. معجم ثلاثى اللغة...

١١) «المعجم التركى - العثمانى العربى الجديد» .. معجم ثلاثى اللغة...